الباب الثانى

حياة ابن نباتة وآثاره

ليس من اليسير على الباحث أن يدرس حياة أديب كبير كابن نباتة ، ترعرع فى مصر ، وأقام خلال الشطر الأعظم من حياته فى بلاد الشام ، واتصل بأعيان العصر ، وكأنما كانت حياته ترجمة لهذا العدد الكبير من ممدوحيه الذين انتجع مرادهم ونال عطاءهم .

من هنا نشأت صعوبة هذا البحث ، ولعلى أستطيع أن أذلل ما يعترضنى من عثرات فأبدأ بدراسة حياته .

الفصل الأول

أسرة الشاعر

القسم الأول

نسبة الشاعر

اهتم أدباء العصر ومؤرخوه بتراجم الأعيان والأعلام ، واصطلحوا أن يكون لكل شخص كنية ولقب بالإضافة إلى اسمه العلم . وقد اتبعوا نظاماً معيناً فى ترتيب هذه التسمية ، فقدموا اللقب على الكنية ، والكنية على العلم ، ثم يضيفون بعد ذلك النسبة إلى البلاد والأصل والمذهب ، على أن يذكر قبل ذلك كله النسبة إلى العلم أو الصناعة أو الخلافة أو السلطنة أو الوزارة أو القضاء أو الإمرة أو الحرفة[1].

لن نتبع هذا النظام فى التسمية الآن ، لا لشىء إلا لأننا نجد اختلافاً فى النسبة ، وتعدداً فى الألقاب ، ويتطلب منا هذا التحقيق لكثرة التحريف الذى أضل كثيراً من الباحثين وعلى رأسهم المستشرق بروكلمان .

اسمه وكنيته ولقبه

يذكر المؤرخون أنه محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد ابن أبى الحسن بن صالح بن على بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب عبد الرحيم[2] بن محمد بن إسماعيل بن نباتة[3]. أما لقبه الذى سار به ذكره ،

---

(١) دراسات فى الحياة الاجتماعية ص ٤٠ .

(٢) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٦ ، والموسوعة الإسلامية جـ ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، وطبقات الشافعية جـ ٦ ص ٣١ ، وحسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٥ ، والنجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٥٩ ، وبدائع الزهور جـ ١ ص ٢٢١ ، وتاج العروس ص ٥٩٠ ، والخزانة ص ٢٩٣ ، والبدر الطالع جـ ٢ ص ٢٥٢ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ ورقة ٢٩٤ ، والوافى بالوفيات ص ٣١١ .

(٣) المنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ ورقة ٢٩٤ ، والموسوعة الإسلامية جـ ١ ص ٢٨٨ .

وشهر به فى كتب الأدب فهو جمال الدين[١]، وقيل أيضاً على قلة شهاب الدين، ولم يورده غير ابن بطوطة، وتبعه بروكلمان فى الموسوعة الإسلامية، فذكره بالإضافة للقبه الأول المشهور به[٢].

وأما كنيته التى عرف بها أيضاً فهى أبو بكر[٣]، وذكر غيرها، فقيل: أبو الفضائل[٤]، وأبو الفتح[٥]، وأبو عبد الله[٦]، والأولى هى التى اشتهر بها، وتداولتها كتب الأدب.

نسبته وقبيلته وموطنه

إن نسبته إلى الموطن الذى سكنه أجداده قديماً، وهو ميا فارقين، لاخلاف فيها على الإطلاق، إذ أجمع المؤرخون والأدباء ممن ترجم له أنه فارقى الأصل[٧] نسبة إلى البلد الذى عرف به جده المشهور خطيب خطباء سيف الدولة عبدالرحيم ابن نباتة.

كذلك فإن الأمر نفسه فى نسبته إلى الموطن الذى ولد فيه وترعرع ودرج، وهو مصر، فلا خلاف فيه أيضاً؛ إذ أجمع المؤرخون الأدباء على أنه مصرى

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٧، وطبقات الشافعية جـ ٦ ص ٣١، والنجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٩٥، وبدائع الزهور جـ ١ ص ٢٢١، وتاج العروس ص ٥٩٠، وخزانة الأدب ص ٢٩٠، والوافى بالوفيات ص ٣١١، وشذرات الذهب جـ ٦ ص ٢١٢، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٢ و ٧١، جـ ٦ و ٢٩٤، وحسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٥.

(٢) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٤٢، والموسوعة الإسلامية جـ ١ ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(٣) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٥، والنجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٩٥، والبدر الطالع جـ ٢ ص ٢٥٢، والوافى بالوفيات ص ٣١١، ورحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٤٢، والموسوعة الإسلامية جـ ١ ص ٢٨٩، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ و ٢٩٤.

(٤) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٧، والبدر الطالع جـ ٢ ص ٢٥٢.

(٥) البدر الطالع جـ ٢ ص ٢٥٣.

(٦) خزانة الأدب ص ٢٥٠.

(٧) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٤١٦، والنجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٩٥، وتاج العروس ص ٥٩٠، والبدر الطالع جـ ٢ ص ٢٥٢، وخزانة الأدب ص ٢٩٤، والوافى بالوفيات جـ ١ ص ٣١١، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ و ٢٩٤، و جـ ٢ و ٢٧١.

الدار[١] ، إلا بروكلمان فيذكر أنه ولد بميافارقين ، وسنعود لمناقشة هذا الأمر ثانية فى معرض الحديث عن مكان ولادته .

بقى علينا أن نحقق نسبه ونتأكد منه بعد أن ظهر الخلاف حول هذا الموضوع لكثرة التصحيف الذى طرأ عليه ، إذ قيل إنه جذامى[٢] ، وقيل إنه حذاق[٣] ، ويتطلب منا هذا المزيد من التحقيق فى كتب الأنساب المعروفة . أما من قال إنه حذاق فيعنى هذا أن قومه ينتسبون إلى بنى حذاقة ، وهم بطن من إياد[٤] ، أى أنهم عدنانيون من عرب الشمال . وقد وقع فى هذا الوهم[٥] ابن خلكان ، واستشهد بقول لابن قتيبة لكنه استدرك قائلا والله أعلم .

روى عن ابن عباس (رضى الله عنه) : أن نزار بن معد بن عدنان لما حضره الموت أوصى بنيه ، وهم أربعة : مضر بن نزار ، وربيعة بن نزار ، وأنمار بن نزار ، وإياد بن نزار ، وقسم ما له فى حياته بينهم[٦] .

وهم ابن خلكان ، فذكر فى وفيات الأعيان أن حذاقة بطن من قضاعة ، ونحن نرفض هذا الرأى اعتماداً على ما أورده النسابون العرب ، ولعل مصدر وهمه أن إياداً أقام فترة من الزمن فى اليمن[٧] .

وأما من قال إنه جذامى فإنه ينسبهم إلى جذام ، وهى قبيلة من عرب الجنوب القحطانيين . يذكر النسابون أن لخماً وجذاماً من كهلان ، أولاد عريب بن زيد بن كهلان ، وأن لخماً وجذاماً أخوان ، وهما ابنا عدى بن

---

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٦ ومقدمة الديوان ص د وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥ ، والنجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٩٥ ، وتاج العروس ص ٥٩٠ ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٢٥٢ ، والمنهل الصافى ج ٢ ورقة ٢٧١ و ج ٦ ورقة ٢٩٤ (مخطوط) ، والوافى بالوفيات ص ٣١١ ، وخزانة الأدب ص ٢٩٣ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥ ، والنجوم الزاهرة ج ١١ ص ٩٥ ، وتاج العروس ص ٥٩٠ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٦ ، والوافى بالوفيات ص ٣١١ ، وخزانة الأدب ص ٢٩٣ .

(٤) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٩٠ ، ولسان العرب ج ١٠ ص ٤١ .

(٥) وفيات الأعيان ص ٢٨٤ .

(٦) الأنساب للسمعانى ص ٦ . (٧) لسان العرب ج ٣ ص ٧٧ .

الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان[١]

أشار المؤرخون إلى تفرق القحطانيين ، ولكي نعرف موطن جذام بعد هجرتها لابد لنا من الإشارة إلى ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه مع رجل من القوم ، إذ سأله : ما سبأ يا رسول الله ؟ أرض هى أم امرأة؟ قال : ليست بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب ،فأما ستة فتيامنوا ، وأما أربعة فتشاموا ،وأما الذين تشاموا فلخم وجذام وعاملة وغسان ،وأما الذين تيامنوا فالأزد وكندة وحمير والأشعريون وأنمار ومذحج[٢] .

نخلص من هذا الحديث إلى هذه النتيجة : وهى أن قبيلة جذام سكنت بلاد الشام . يؤيد قولى هذا ما ذكر من أن هذه القبيلة تسكن بجبال (حسمى) فى أرض بادية الشام[٣]. واختلف فى موقع هذه الجبال بين الجنوب والشمال .

أما هذه الجبال فقد جاء وصفها فى أخبار المتنبى عند ما سار من مصر إلى العراق ، وقد ذكر أنها لا مثيل لها فى الدنيا ، ولايكاد القتام يفارقها كما يظهر ذلك فى قول النابغة الذبيانى :

فأصبحَ عاقلًا بجبالِ حِسْمَى ... دُقاقَ التُّرْب محتزم القَتَامِ[٤]

لكن كتاب السيرة النبوية فى أخبار نوح يذكرون أن حسمى جبل مشرف على حران قرب الجودى ، وهذا إن صح ، فإنه يكون خير دليل على أن قبيلة جذام أقامت فى هذه المنطقة المجاورة لميافارقين بلد الخطيب عبد الرحيم جد شاعرنا ابن نباتة .

ولابد لنا قبل أن ندلى برأينا أن نذكر أن هاتين اللفظتين تعرضتا للتحريف ، فذكرت بعض المصادر أنه حمدانى[٥] ، وذكر بعضها الآخر أنه خداقى[٦] وأنه الحدقى[٧] ، وذكر غير هذا وذاك .

---

(١) طرفة الأصحاب ص ١١ . (٢) الأنساب ص ٧ .
(٣) معجم البلدان ص ٢٥٩ ، ولسان العرب جـ ١٢ ص ٨٩ .
(٤) معجم البلدان ص ٢٥٩ . (٥) المنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ و ٢٦٤ .
(٦) المنهل الصافى (مخطوط) جـ ٢ و ٧١ .
(٧) بروكلمان : آداب اللغة العربية SII, P4

نخلص من ذلك إلى القول إن جمال الدين بن نباتة من قبيلة جذام ، ونستبعد أن يكون من بنى حذاقة ، ولو أن هذه النسبة الأخيرة كانت صحيحة لكان — كما نرى — هذا النسب هو فى حقيقة الأمر صفة لجده الخطيب عبد الرحيم بن نباتة. يؤيد ما أذهب إليه ما جاء فى لسان العرب من أن الحذاق معناه الفصيح اللسان والبين اللهجة[١]، وقد عرف عن جده ذلك ، فكان مؤدب سيف الدولة وخطيب خطباء عصره . يؤيد قولى هذا أيضاً ما ذكره ابن برى : « وأما قول الآخر :

وقولُ الحُذاقىِّ قد يُسْتَمَعْ وقولىَ ذُرَّ عليــه الصَّبِرْ

فقد يجوز أنه يريد به واحداً بعينه وقد يجوز أنه يريد به الرجل الفصيح»[٢]

ننتهى من قول ابن برى لنقرر باطمئنان أن أديبنا ابن نباتة جذامى فارقى من أصل قحطانى ، وليس من بنى حذاقة كما وهم ابن خلكان الذى أضل من جاء بعده ، هاجرت قبيلته جذام إلى بلاد الشام وأقامت فى ميافارقين . بقى علينا — ونحن فى معرض الحديث عن نسبه — أن نرفض رأى بروكلمان القائل إنه أموى قرشى[٣]، وغريب جداً أن يلتبس الأمر على المستشرق المذكور ، ولعل مصدر خطئه أنه اعتمد فى ترجمة ابن نباتة فى الموسوعة الإسلامية على ما أورده الرحالة ابن بطوطة من كلام ابن جُزَىّ عنه فى معرض حديثه عن كمال الدين بن الزملكانى[٤]. ، ولابد لنا هنا من الإشارة إلى أن القدماء عرفوه باسم (ابن نباتة المصرى.)[٥] ذلك لأن أرض الكنانة مصر كانت مقام أسرته ومسقط رأسه ، فهو إذاً مصرى الدار والمولد والوفاة .

اسم جده الأول

اقتصر الخلاف على ضبط حركة النون من حروف اسمه ، ولعل مصدره يعود لزمن جده الخطيب الحذاق عبد الرحيم بن نباتة ، وقد أشارت بعض

---

(١) لسان العرب ج ١٠ ص ٤١ . (٢) المصدر السابق .

(٣) الموسوعة الإسلامية : E.I. V 2. P 431,432 ، وبروكلمان: آداب اللغة العربية SII,P 4

(٤) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٢ . (٥) تتمة المختصر ج ، ص ٣٤٠ .

المصادر القديمة إلى هذا الخلاف فى ضبط حركة النون بين ضمها وفتحها . ويظهر أن بعض الأقدمين [١] قصر حركة الضم على الشاعر أبى نصر عبد العزيز ابن نباتة السعدى [٢] . الذى مدح سيف الدولة الحمدانى بغرر القصائد . وكان معاصراً للخطيب عبد الرحيم .

ذهب معظم الأقدمين إلى أن الضم أصل وأثبت وأكثر [٣] . ورأوا أن الفتح ليس بصحيح على الإطلاق .

كما جزم ابن خلكان بضم نون نباتة . ولعل منشأ هذا الخلاف أن طائفة من القدماء أرادت بهذا التفريق بين الخطيب الحذاق والشاعر السعدى اللذين عاشا فى عصر واحد واجتمعا فى بلاط واحد .

ننتقل إلى أديبنا جمال الدين بن نباتة . فنجد أنه اختلف فى حركة اسمه ، كما اختلف فى جدّه من قبل . ويعنى هذا أن الخلاف تجدد فى حركة النون للتفريق بين اسمه واسم جده فى هذه المرة ، فقصروا الضم على الخطيب والفتح على الشاعر . وسبب ذلك أن الشاعر كان صاحب مدرسة رمزية يورّى فى شعره كثيراً بالقطر النباتى نسبة للنبات بفتح النون وهو — كما نعلم — لفظة فارسية مولدة تطلق على ضرب من السكر العجيب [٤] أنشدنا الإمام ابن الشاذلى :

حلا نباتُ الشَّعْرِ يا عاذلِى ... لمّا غدَا فى خدِّه الأحمرِ
فشاقَنى ذاكَ العِذَارُ الذى ... نباتُه أَحلى مِن السكَّرِ [٥]

وهذان البيتان للشاعر بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى (المتوفى سنة

---

(١) شفاء الغليل ص ٢٠٢ ، وتاج العروس ص ٥٩٠ ، والمحيط جـ ١ ص ١٥٩ ، وتبصير المنتبه (مخطوط) ورقة ٣٢ .

(٢) أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن نباتة السعدى ، أحد شعراء بلاط سيف الدولة ، ولد سنة ٣٢٧ هـ وتوفى سنة ٤٠٥ هـ .

(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٥٦ ، والنجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٩٥ ، وتاج العروس ص ٥٩٠ ، والمحيط جـ ١ ص ١٥٩ ، وتبصير المنتبه (مخطوط) ورقة ٣٢ .

(٤) شفاء الغليل ص ٢٠٢ ، وتاج العروس ص ٥٩٠ .

(٥) تاج العروس ص ٥٩٠ .

٦٨٠هـ)[١] وقد عدهما ابن حجة من لطائف تغزلاته فى فن التورية .

لم يرض كثير من القدماء بهذه التسمية النباتية ، وعدوا ذلك جهلا وتطاولا على اسم الشاعر جمال الدين ، والدليل على ذلك ما ذكره ابن حجر : « وأن الذى يزعمه كثير ممن لا يعرفون هذا الشأن أن الخطيب بالضم والشاعر بالفتح ليس بذلك »[٢] .

يؤيد ابن حجر ما أذهب إليه فليس من الضرورى أن نحرف اسم الأديب المذكور لندلل على مذهبه الرمزى فى التورية . وهل عليه من حرج إذا أكثر التورية فى السكر النباتى لأنه من اسمه ؟ وهل يشفع لهم إكثاره منها أن نحرف اسم جده الأول نباتة ؟ كان القدماء يستسيغون ذلك ، لكننا لانستسيغه ، لأننا نحافظ على اسمه بعيداً عن كل قلب أو تحريف ، فاسم الشاعر غير مذهبه فى شعره ، ولكل حديث .

القسم الثانى
سروات الأسرة النباتية

لا بأس علينا لو بدأنا بالتحدث عن سروات الأسرة النباتية قبل أن نفيض فى ذكر الأديب جمال الدين الذى أحيا اسم جده الأول نباتة فكان من الخالدين .

آل نباتة الحذامى

لعلنا نتساءل ومن هو نُباتة الجذامى؟ قد لانستفيد من الجواب شيئاً ، لأننا لانعثر على أى خبر يلقى الضوء على هذا الرأس الكبير من هذه الأسرة النباتية . فنحن أبداً نتعطش لمعرفة الزمن الذى جاءت فيه جذام إلى ميافارقين ، حيث عرف جده الأول هناك ، ونشأت أسرته من آل نباتة .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٥٢ ، وخزانة الأدب ص ٢٢٧ .

(٢) تبصير المنتبه (مخطوط) ورقة ٣٢ .

وهى ، كما اتضح لنا ، أسرة عربية ، كريمة المحتد ، عريقة النجار ، وقد فخر الشاعر بأنه سليل السلف الذكى منها ، ويستبد به الغرور ، فيتطاول إلى الشهب عزة وتكرماً ، إذ يكاد يحسبها من أحلافه ومنازله :

شِيمٌ عن السَّلفِ الذكىِّ وَرِثْتُها ... لا فى الصِّبا عيِيتْ علىَّ ولا فى
لِى حينَ أنسبُ أسرةٌ عربيّةٌ ... كادتْ تُعدُّ الشُّهبُ من أحلافى
وفضائل ما قد سَمِعْتَ وأنَّهـا ... لمسامع الأشرافِ كالأشنافِ
أشكو التأخُّرَ فى الزمانِ وهذهِ ... شيمى لَديهِ وهذهِ أسلافى[1]

كما أشار الشاعر فى موطن آخر إلى سلفه ، وافتخر بهم ، فهم «آل نباتة الغرّ السراة » ، وهو سليل هذه الأسرة النجيبة ، إنه ثمرة ذلك النبات ، بل إنه القطر النباتى ، كما يحلوله أن ينعت نفسه :

ورثت اللفظَ عن سَلَفى وأكرمْ ... بآلِ نُباتَةَ الغُـرِّ السُّـراةِ
فلا عَجَبٌ لِلَفْظِى حينَ يحلو ... فهذَا القطرُ من ذَاكَ النباتِ[2]

مهما يكن من أمر فنحن سنتجاوزه ما دمنا لا نملك أىّ خبر ، لنتحدث عن أحد أحفاده خطيب خطباء سيف الدولة .

عبد الرحيم بن نباتة

إن جده المشهور الذى تحدثت عنه كتب الأدب والتاريخ هو الخطيب الحذاقى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقى الجذامى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى فى عصر سيف الدولة الحمدانى .

ولد فى بلدة ميافارقين[3] سنة ٣٣٥ هـ ، وانتقل إلى حلب ، وأصبح مؤدباً

---

(١) الديوان ص ٣٢٣ .

(٢) الديوان ص ٨٠ .

(٣) ميافارقين ، ذكرها ياقوت فى معجمه وهى أشهر مدينة فى ديار بكر ، تحدث عنها بطليموس ، وحدد موقعها من الأقاليم ، وكانت قبل الفتح الإسلامى متداولة بين الفرس والروم ، واختلف فيمن فتحها من المسلمين وهل كان فتحها عنوة أو صلحاً .

لبلاط سيف الدولة ، وشهر بالخطابة ، فلقب بخطيب الخطباء . وقد جمعت خطبه الكثيرة ، وكانت تمتاز بالقصر ، يغلب عليها السجع ، وتتناول فى معظمها الموضوعات الدينية العامة ، وتشير فى بعض الأحيان إلى الحوادث المعاصرة ؛ وقد توفى هذا الخطيب ببلدته ميافارقين سنة ٣٧٤هـ[١].

خلف عبد الرحيم هذا ابنه أبو طاهر محمد[٢]، وقد عرف أيضاً بالخطابة وله فيها مجموعة من الخطب الدينية على غرار أبيه ، وتوفى سنة ٣٩٠ هـ .

نقف بعد الحديث عن عبد الرحيم وابنه محمد عند حفيده أبى الفرج طاهر[٣]، المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ، وله مثلهما مجموعة من الخطب الدينية . والطريف أن هذه المجموعات الخطابية الثلاث جمعت فى ديوان واحد .

عرفت هذه الأسرة بالقضاء بالإضافة إلى الخطابة ، نشير منهم إلى القاضى الأجل تاج الدين أبى سالم طاهر بن القاضى علم الدين على بن القاضى أبى القاسم يحيى بن طاهر بن عبد الرحيم[٤].

لا نعرف عن هؤلاء القضاء ما هو جدير بالذكر ، لكننا عثرنا مصادفة فى سلوك المقريزى على اسم جلال الدين بن نباتة ، وقد ذكر أن الملك الكامل بعث إلى ميافارقين سنة ٦٣٠ هـ ، فأحضر جلال الدين بن نباتة ليستكتبه . فلما حضر خلع عليه ، ولم يستكتبه فاستكتبه الأشرف صاحب دمشق[٥].

لا نعرف لم أحجم السلطان الكامل عن استخدام جلال الدين بن نباتة ، ولعل هذا الحادث يشير إلى أمر هام فى نظرنا ، وهو أن أحفاد الخطيب عبدالرحيم كانوا معروفين بالعلم والدين ، حتى إن السلاطين كانوا يستخدمونهم فى العصر المذكور .

نستنتج من هذا الخبر أن الأديب النباتى ترك شمال بلاد الشام ، وأقام فى دمشق ، ولا ندرى هل توجه إلى مصر واتخذها دار مقام أم أن أبناءه وأحفاده

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٨٤ ، وتاج العروس جـ ١ ص ٥٩٠ ، والموسوعة الإسلامية جـ ٢ ص ٤٣١ ، ٤٣٢ (النص الفرنسى) ، و جـ ١ ص ٢٨٨ (الترجمة العربية) .

(٢) الموسوعة الإسلامية جـ ١ ص ٢٨٨ .

(٣) المصدر السابق . (٤) تاج العروس ص ٥٩٠ .

(٥) السلوك جـ ١ ص ٢٤٦ .

هم الذين توجهوا من بعده إليها ؟ نخلص من كل ذلك إلى القول : إننا لانعرف غير أبيه من هذه الأسرة . وقد أقام فى مصر ، فهو مصرى الدار والمولد .

شمس الدين بن نباتة

شمس الدين محمد بن محمد بن الحسن بن الجذامى الفارقى الأصل [١]، وقد ولد فى القاهرة سنة ٦٦٦هـ[٢] فى بيت علم وأدب ، وسمع من العز الحرّانى وابن خطيب المزة وغازى الحلاوى وابن الأنماطى وغيرهم[٣]. وقد أصبح شاهداً بديوان بيبرس الجاشنكير ، لكنه غادر مصر ، واتجه نحو بلاد الشام ، ولعل هناك سبباً سياسياً يكمن وراء رحيله الغامض، ونظن أنه كان من مؤيدى بيبرس ، فلما أزيح عن السلطنة لم يجد بدّاً من الفرار إلى أرض الشام ، فأقام فيها ، وتنقل فى عدة مناصب . باشر شهادة الخاص بدوما وداريا وغيرهما من مدن الإقليم الشامى ، واستقر آخر أمره بدمشق فاتخذ له فيها سكناً بالظاهرية[٤]

كان الشيخ شمس الدين من شيوخ الحديث المشهورين وقد ذكر الصفدى أنه نال منه الإجازة بخط يده سنة ٧٣٠هـ ، وولى مشيخة المدرسة الظاهرية [٥]. ولما توفى الشيخ زين الدين بن المزى شيخ دار الحديث النورية ولاّه القاضى تقى الدين السبكى مشيختها سنة ٧٤٩ . وقد وافته المنية بعد توليها بعام واحد .

عرف الشيخ شمس الدين بأنه حسن الأخلاق ، وكان ساكناً قليل الكلام خيراً كريماً ، وقد أجمعت المصادر التى ترجمت له أنه كان ينفق كل ما يحصله على أولاد ابنه الشاعر جمال الدين ، وقد عرف عنه بأنه كان حسن الحال .

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ١٧٣ ، والخزانة ص ٢٩٠ ، والوافى بالوفيات ص ٢٧٠ والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ ورقة ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ١٧٣ .

(٣) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢٧٣ ، والوافى بالوفيات ص ٢٧٠ ؛ والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ ورقة ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٤) الوافى بالوفيات ص ٢٧٠ .

(٥) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ١٧٣ ، والوافى بالوفيات ص ٢٧٠ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ ورقة ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، وأعيان العصر (مخطوط) جـ ٦ ، ق ٢ ، و ٣٣٤ .

كما لا نعرف شيئاً عن إخوته ، إن كان له إخوة ، ولم نعثر على أى خبر ، نستطيع به أن نلقى ضوءاً على زوجه ، ولم نعرف أيضاً عن أولاده أى حديث يذكر ، ولعله لم يكن له غير هذا الولد العبقرى جمال الدين .

تلك هى لمحة خاطفة عن حياة أبيه ختمنا بها الكلام عن سروات الأسرة النباتية ، وما كاد نجم جمال الدين يشرق فى سماء هذه الأسرة حتى رأيناه قد سبق الأولين منهم والآخرين . وكأنما اجتمعت فيه هذه الصفات الوراثية التى رأيناها فى أسرته منذ جده عبد الرحيم إلى أبيه شمس الدين . فأخذ عنهم العلم والدين والأدب والشعر والخطابة ، ولاسيما إن أباه كان شاعراً كما أشارت إلى ذلك بعض المصادر القديمة[١] يضاف إلى ذلك أنه خلف بعض الآثار ، لكننا نعجب عن إغفال كتب التراجم القديمة ذكر ذلك ، ولقد عثرت مصادفة على كتاب تاريخى جليل مخطوط[٢] اسمه : (الاكتفاء فى تاريخ الخلفاء) .

عرضنا بإيجاز لما وصلنا عن سروات الأسرة النباتية ، ونشير أخيراً إلى أن ابن الأزرق الفارقى المتوفى فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى أورد فى تاريخه ذكر المشاهير الأعلام من الأسرة النباتية التى انتهت إلينا فى شخص أمير شعراء المشرق جمال الدين بن نباتة المصرى .

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٤ ص١٧٣ .

(٢) يوجد الجزء الثالث منه فى دار الكتب المصرية ، ويبتدئ بذكر الخليفة أبى إسحق إبراهيم ابن أمير المؤمنين المقتدر بالله ، ويختم بالحديث عن الخلفاء الفاطميين ، ولعل حديثه عنهم كان من العوامل التى جعلت المؤرخين والمعاصرين يهملون هذا الكتاب التاريخى . أما الجزء الثانى منه فصور مخطوط فى معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، وأما الجزء الأول منه ففقود .

الفصل الثانى

مراحل حياة الشاعر

المرحلة الأولى

٦٨٦ – ٧٠٦ هـ

فى مصر[١] بلد الخير والجمال ، وعلى ضفة النيل المبارك مانح الخصب والحياة ، وفى القاهرة[٢] الجبارة التى لم تلن للفرنجة والتتار ، وفى حى منشية المهرانى[٣] بزقاق القناديل[٤]، كان ميلاد أديب العصر الأكبر ، فى شهر ربيع الأول[٥] من سنة ست وثمانين وستمائة للهجرة[٦] الموافق لشهر نيسان « أبريل» سنة ١٢٨٧م فى عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون .

وهم المستشرق بروكلمان فى مكان ولادته[٧] ، فذكر فى الموسوعة الإسلامية أنه ولد بميافارقين ، وهذا قول خاطئ ، لأنه مصرى الدار قاهرى المولد ، وإن كان فارقى الأصل ، فالمعروف أن جده عبد الرحيم ولد فى ميافارقين . لانعرف الكثير عن طفولة هذا الأديب الكبير ، وكل ما نقوله إنه بدأ

---

(١) حسن المحاضرة ١ ص ٢٤٥ ، والخزانة ص ٢٩١ ، والمنهل الصافى (مخطوط) ج ٦٠ ورقة ٢٩٤ .

(٢) طبقات الشافعية ج ٦ ص ٣١ . (٣) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٢١ .

(٤) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٦ ، ٢٢١ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ٢٢١ ، ومقدمة الديوان ص د ، والمنهل الصافى (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤ .

(٥) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٦ ، ٢٢١ ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، ومقدمة الديوان ص د والخزانة ص ٢٩١ .

(٦) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٦ ، ٢٢١ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ٢٢١ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٤ ، والخزانة ص ٢٩١ ، وطبقات الشافعية ج ٦ ص ١١ ، ومقدمة الديوان ص د ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، والمنهل الصافى (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤ .

(٧) الموسوعة الإسلامية : E.I.V.2.P43 243, تنبه بروكلمان إلى خطئه هذا، فذكر فى كتابه (آداب اللغة العربية) أن ولادته فى زقاق القناديل بالقاهرة SII.P4 .

حياته فى أرض الكنانة . وعاش فى جو دينى علمى . أهله ليسلك هذا السبيل الذى سلكه أجداده من قبل . وهكذا تضافر فى حياته عاملان هامان : أحدهما وراثى والآخر مكتسب .

١

العبقرية النباتية المبكرة

استمرت المرحلة الأولى من حياته عشرين عاماً . نال فيها قسطاً وافراً من الثقافة الدينية والأدبية . وقد تبدت أمارات الذكاء وملامح النباهة عليه منذ حداثته . ولعل والده لمس منه ذلك. فتنبأ له بمستقبل زاهر . فعنى به كل العناية ولم يكتف بما قدمه له من معرفة بالحديث والعلوم الأخرى . بل حاول أن يعرفه بأصدقائه من مشاهير علماء عصره ممن كان يأخذ عنهم علومه الدينية .

ولعل من حسن حظ ابن نباتة أن يكون والده صديقاً لتقى الدين بن دقيق العيد . وقد أجمع علماء العصر على أنه الإمام المبعوث على رأس السبعمائة . وأستاذ زمانه علماً وديناً وأدباً . وأن يكون أيضاً أحد المحدثين عن هذا الإمام العظيم .

يضاف إلى ما ذكرناه أنه كان شاعراً وأديباً . وقد قال عنه الشهاب محمود : « لم تر عينى آدب منه » . ولو أنه تفرغ للأدب والشعر لكان لنا منه شخصية أدبية كبرى . غير أن انصرافه للفقه ورواية الحديث[١] والتخصص فى معرفة علله شغله واستنفد جل وقته[٢] .

مثل هذا الإمام المبعوث . كما يدعوه معاصروه قادر على تبين عبقرية هذا الطفل الذى كان يرافق والده بين حين وآخر . وبالفعل تعرف على هذا الإمام الذى كان يخشاه السلاطين فأحبه . وأصبحت له دالة عليه . إذ سمح له بدخول بيت كتبه ، ولعل هذا الطفل أراد أن يقلد أباه وصديقه الإمام . فيطالع مثلهم .

---

(١) الموسوعة الإسلامية ج ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٨ ، وفوات الوفيات ص ٢٤٤ ، وطبقات الشافعية ج ٦ ص ٢ ، ٣ .

ولعله طلب منه ما يقرأ ، ويتفرس الإمام فى هذا الطفل العبقرى ، فيتحسس منه هذه الرغبة الصادقة ، ويناوله ما يشاء ليعرف ميله ، ويروى غلة عطشه .

أعتقد أن معرفة الإمام به كانت نقطة تحول وانطلاق فى مجرى حياته ، وسنرى أن ابن نباتة تأثر به كثيراً ، وكان له منه خير مثال يحتذيه فى الدأب والعمل والتقشف فى الحياة .

لمس أبوه اهتمام صديقه الإمام بهذا الطفل العبقرى ، وقد ذكر أنه دخل به عليه ذات مرة ، فناوله كتاب الحماسة[١] ، ولم يختر له غيرها من المجموعات الشعرية القديمة . ولعله توخى من ذلك أن يطلعه على الشعر العربى القديم بعد أن لمس منه هذه الموهبة الشعرية الصادقة .

لم يكتف بذلك بل كان — كما يظهر — يختار له النصوص القديمة فيحفظها ، وقد يشرح له فى بعض الأحيان ما يعسر عليه فهمه ، ويصعب إدراكه .

أما الجانب الآخر من ثقافته الشعرية فقد اتجه نحو الشعر الأندلسى والموشحات ، يؤيد قولى هذا ما رُوى عن الشيخ أبى الفضل الحافظ فقد حكى أنه دخل صحبة أبيه كعادته على الإمام ، وهو قائم فى بيت كتبه ، فبعث أباه فى حاجة ، وترك الطفل عنده . نترك هذا الطفل يتحدث إلينا ، ويذكر ما جرى له مع هذا الإمام المبعوث ، قال : « فناولنى كتاباً ، فإذا هو فى الأدب ، أحسبه من الذخيرة لابن بسام ، فنظرت فيه ، فاستغرقت ، فجاء أبى ولم أشعر بمجيئه ، فتعجب من تمكين الشيخ إياى لنظرى فى كتبه ، وكان ذلك كشفاً من الشيخ ، وتولعت بالنظم من ذلك الحين »[٢] .

كان ذلك قبل السبعمائة ، فهل كان قبلها بكثير أم بقليل ؟ ومعنى هذا أنه لم يكن قد تجاوز العاشرة أو الثانية عشرة على أبعد تقدير . ومعنى هذا أيضاً أنه كان فى مثل هذه السن المبكرة يطالع كتب الأدب القديم ومجموعات الشعر المختارة ، فيحفظ منها ما يحلو له . وقد عجب أبوه كل العجب من صديقه الإمام المبعوث الذى مكن ولده من النظر فى كتبه . إن لهذا النص دلالة خاصة

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٧ . (٢) المصدر السابق .

عندنا ، إذ يوضح لنا العوامل التى نمت فيه ملكته فى وقت مبكر . وما أحلى قول الطفل نفسه وأصدقه : إن فعل شيخه كان كشفاً منه عن عبقريته . ويذكر بصريح العبارة أنه أولع بالنظم من ذلك الحين ، بدأ ينظم الشعر حدثاً قبل أن يستكمل ثقافته الخاصة . والدليل على ذلك ما ذكره لنا فى معرض إجازته للصفدى أن الأمير الفاضل شمس الدين محمد بن الصاحب المنبى الآمدى قد اقترح عليه أن ينظم فى زيادة النيل ؛ ولما يبلغ بعد سن الحلم ، فقال :

زادتْ أصـــابعُ نيلِنـــا وطَمَتْ فأكْمَدَتْ الأعادى
وأتتْ بكلِّ جميلةٍ ماذى أصابعُ ذِى أياد [1]

تلك هى براعم الشاعر . إنها تبشر بثمر شهى . ولعل الفضل فى تفتح هذه البراعم يعود للإمام المبعوث الذى صقل موهبته ، وأمدها من ينابيع الشعر العربى فى المشرق والمغرب . لكن الغريب ألا يشير ابن نباتة إلى شيخه الجليل فى ديوانه إلا مرة واحدة ذكره فيها عرضاً مع تقى الدين ابن بنت الأعز وتقى الدين السبكى :

إمامَ التقى دُمْ لنـــا مُرتجًى وما بابُ فضلِك بالمُـــرتَجِ
فليسَ الدقيقُ كمثلِ الجليلِ ولا العِلِيُّ [2] كالخَـــزْرَجِى [3]

وورّى باسمه عرضاً فى مقطوعة ثانية :

ألا قُلْ لقاضى قُضاةِ الأنام ِ إمام ِ التقى ذى الفخار العريق
لقد حارَ عبدُكَ يا ســـيدّى وحقِّ الجليل بحَقِّ الدَقيـــقِ [4]

---

(١) الديوان ص ١٦٣ والوافى بالوفيات ص ٣١٨ ، والدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٢١ ، والخزانة ص ٢٩١ ، وحلبة الكميت ص ٢٩٩ . وقد لوحظ بعض الاختلاف فى رواية الحلبة .

(٢) العلى : يقصد بها ابن دقيق العيد الذى كان ضالعاً بعلل الحديث .

(٣) الخزرجى .

نعتقد أنه قاضى القضاة ابن الحرستانى واسمه جمال الدين أبو القسم عبد الصمد بن محمد بن أبى الفضل الأنصارى الخزرجى الدمشقى الشافعى؛ ولد سنة ٥٢٠ هـ وقد درس وأفتى وبرع فى المذهب وانتهى إليه علو الإسناد وقال عنه عز الدين بن عبد السلام : إنه لم ير أفقه منه ، وعليه كان ابتداء اشتغاله توفى سنة ٦١٣ هـ فى دمشق .

الديوان ص ٩٤ ؛ وشذرات الذهب ج ٥ ص ٦٠ .

(٤) الديوان ص ٣٥٥ .

أغلب الظن عندنا أنه كانت بين الأستاذ الشيخ وتلميذه مطارحات شعرية ، ولقد وقعنا على واحدة منها ، ذكرها للعاملى ، وقال : إن أستاذه ابن دقيق العيد كتب إليه :

كم ليلةٍ فيكَ وَصَلْنا السُّرى ... لا نَعرفُ الغمضَ ولا نستريحْ
واختلفَ الأَصحابُ ماذا الذى ... يُزيلُ منّ شكواهمُ أو يُريحْ
فقيلَ : تعريسُهمْ ساعةً ... وقيلَ : بل ذكراكَ وهو الصحيح

فأجابه تلميذه ابن نباتة ، وهو بعد فى مقتبل العمر :

فى ذمــةِ اللهِ وفى حفظِهِ ... مسراكَ والعَوْدُ بعزمٍ نجيحْ
لو جازَ أنْ تَسلُكَ أجفانَنَا ... إذًا فَرشْنا كلَّ جفنٍ قريحْ
لكنَّهــا بالبعــدِ معتلَّةٌ ... وأنتَ لا تسلكُ إلا الصحيحْ[1]

ذلك كل ماقاله ابن نباتة عن ابن دقيق العيد فى شعره، لكننا نتساءل عن مدى العلاقة بين أسرته والإمام المبعوث ، فمتى بدأت هذه العلاقة ؟ وفى أى سنة تقابل فيها مع أستاذه ؟ .

أما العلاقة فقديمة ، إذ كان أبوه يروى عنه الحديث[2]، وهو أنبه من روى عنه من المحدثين .

وأما بدء هذه العلاقة فلا نص بين أيدينا، يحددها تماماً . وإذا كان الأمر كذلك ، فبإمكاننا أن نحددها تبعاً للقرائن التى مرت معنا ،فنقول : إنها استمرت فترة من الزمن ما بين سنة ٦٩٥ هـ وسنة ٧٠٢هـ ، وكانت سنه آنئذ لا تنقص عن العاشرة . ولا تتجاوز السابعة عشرة على أصح تقدير .

---

(١) الكشكول (ج ١ ص ٣٨) ، وقد وردت القصيدة فى الديوان فى السبعة السيارة فى مدح السلطان الناصر حسن (ص ١١٥) .
(٢) طبقات الشافعية ج ٦ ص ٣ .

٢

ثقافته الدينية

تلك هى مدرسته الأولى فى الحياة استمد من أبيه وأستاذه علوم القرآن والحديث وفنون الشعر والأدب . لكنه لم يكتف بهذه الثقافة، بل أخذ يسعى إليها جادًّا لدى أشهر علماء العصر وأدبائه . فنهل العلوم الدينية من ينابيعها الثرة غير مقصر ولا وان ، فروى الحديث النبوى عن حفاظه ، وقرأ السيرة النبوية ، وتعمق فى علوم اللغة العربية وغيرها من العلوم ، وما زال هذا دأبه حتى أجيز من معظم مشاهير العصر ،

أغنانا فى التفتيش عنهم ، وقد أحصاهم لنا ، وعدّهم فى معرض إجازته للصفدى ، فمنهم من أخذ عنهم الحديث ، ومنهم من أخذ عنهم السيرة النبوية .

أما علوم الحديث فقد أحضره أبوه على غازى الحلاوى [١]، فسمع عليه بعض «الغيلانيات »[٢]. وبخاصة الجزء الثانى والثالث ، وهى تبلغ بمجموعها أحد عشر جزءاً .

تتألف الغيلانيات من أجزاء من الحديث النبوى ، وتحتوى على فوائد حديثية ، رواها أبو بكر محمد بن عبد الله (المتوفى سنة ٣٥٤هـ)،وعنه رواها محمد بن محمد بن غيلان البزاز (المتوفى سنة ٤٤٠هـ) ، ويعتبر ابن نباتة آخر من حدث بها عن غازى الحلاوى .

كما أخذ الحديث عن الشيخ عبد العزيز الحصرى[٣]، وسمع عليه جزءاً من أحاديث ، خرّجها له والده شمس الدين[٤] .

---

(١) غازى الحلاوى : أبو محمد بن أبى الفضل بن عبد الوهاب الدمشقى المعروف بالرادف أو الرداف ، وقد انتهى إليه علم الإسناد فى الحديث . حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٦٢ .

(٢) كشف الظنون جـ ٢ ص ١٢١٤ ، وشذرات الذهب جـ ٣ ص ١٦ و جـ ٣ ص ٢٥٦ .

(٣) الوافى بالوفيات ص ٣١٧ ، والخزانة ص ٢٩١ ، والدرر الكامنة جـ ٤ ص ١٦٢ .

(٤) الوافى بالوفيات ص ٢١٧ .

أما باقى المحدثين الذين أخذ عنهم ، ولم يشر إليهم فى إجازته للصفدى ، فهم عبد الرحيم الدميرى[١] وابن خطيب المزة .

تظهر أهمية ابن نباتة فى علم الحديث ، لأنه يعتبر آخر من حدث بالسماع عن التقى عبيد وبهاء الدين بن النحاس وجده شرف الدين بن نباتة[٢].

نترك الحديث لننتقل إلى السيرة النبوية ، فنجد أن أديبنا الكبير ابن نباتة قد سمع عن الأبرقوهى[٣] هذه السيرة المباركة ، بقراءة الشيخ فتح الدين بن سيد الناس ، وقد تفرد بها[٤].

هؤلاء بعض أساتذته فى الدين ، وقد أجاز له كثيرون ، نشير منهم على سبيل المثال — لا الحصر — إلى العز الحرانى والفخر بن البخارى وزينب بنت مكى وابن المجاور وابن الزين وغيرهم من معاصريه[٥].

ولقد اعتذر ابن نباتة عن تعدادهم فى إجازته للصفدى لكثرتهم ، فقال : « وأما من أجازنى فى مصر وغيرها من الأمصار فكثير »[٦]. نذكر منهم أبا النون فتح الدين الدبابيسى[٧] يونس بن إبراهيم (المتوفى سنة ٧٢٩هـ) ، وكان ساكناً ديناً صبوراً .

---

(١) محيى الدين عبد الرحيم بن عبد المنعم المصرى توفى سنة ٦٩٥ هـ . حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٦٢ .

(٢) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٦ .

(٣) الأبرقوهى : مسند العصر شهاب الدين أحمد بن رفيع الدين إسحق بن محمد الهمذانى الأبرقوهى ولد بأبرقوه من أعمال شيراز سنة ٦١٥ هـ ، وكان رجلا خيراً ديناً متواضعاً حسن القراءة وتفرد بأشياء ، وتوفى فى مكة حاجاً سنة ٧٠١ هـ. حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٦٢ ، والمنهل الصافى جـ ١ ص ٢١٨ ، والبداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢١ ، والنجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٨ .

(٤) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٦ .

(٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٢١٧ .

(٦) الخزانة ص ٢٩١ ، والوافى بالوفيات ص ٣١٧ والدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢٢١ ، والوافى بالوفيات ص ٣١٧ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٢ ورقة ٧٠ ، ٧١

(٧) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٤٨٤ .

٣
ثقافته الأدبية

لازم أديبنا الكبير أعلام الأدب والشعر فى عصره ، وقد سماهم لنا فى معرض إجازته للصفدى . وتحدث عن ذكرياته معهم ، وما يتطارحه معهم من الشعر والأدب .

ذكر صلته بمحيى الدين بن عبد الظاهر كاتب الإنشاء بمصر[١] ، وهو أديب معروف وشاعر مشهور ، وقد صنف سيرة الظاهر بيبرس . لم يذكر مدى تأثره . ولم يشر إلى شيء من أدبه . بل اكتفى بنعته بالكاتب المصرى[٢] .

وذكر بهاء الدين بن النحاس النحوى[٣] . ولعله كان أستاذه فى علوم اللغة العربية .

وذكر الأمير شمس الدين محمد بن الصاحب المنبى[٤] الذى شجعه على النظم . وهو لم يبلغ بعد سن الحلم ، واقترح عليه أن ينظم فى زيادة النيل ، وسبق لنا أن أتينا على ذكره من قبل .

وذكر أيضاً علاقته بعلم الدين قيس بن سلطان الضرير ، وقال : إنه كان يقرأ عليه كثيراً من كتب الأدب المشهورة . ويتطارح الشعر معه خلال هذه الجلسات الأدبية . وقد أنشده ابن نباتة ذات مرة :

يا غائبين ، تعلَّلْنا لغيبتِهِمْ بطيبِ عيشٍ ولا واللهِ لم يَطِبِ
ذكرتُ والكأْسُ فى كفِّى ليَاليَكم فالكأْسُ فى راحةٍ والقلبُ فى تَعَبِ

---

(١) محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان المصرى كاتب الإنشاء بالديار المصرية ، توفى سنة ٦٩٢ هـ . حسن المحاضرة ص ٢٤٤ .

(٢) الوافى بالوفيات ص ٣١٧ ، والدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢٢١ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٢ ورقة ٧٠ ، ٧١ .

(٣) الوافى بالوفيات ص ٣١٧ ، والدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٢١ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٢ ورقة ٧٠ ، ٧١ .

(٤) المصدر السابق .

فقال له أستاذه : أتعب والله جزعك القدح[١]

نقف أيضاً مع ابن المفسر ، هذا الشيخ العالم الذى كان يطارح تلميذه نظم الشعر ، وقد أنشده لنفسه ذات مرة :

لا أرَى لى فى حياتى راحةً ذهبتْ لذةُ عيشى بالكِبَرْ
بقىَ الموتُ لمثلى سترةً يا إلهى ، أنتَ أولى من سَتَرْ

ولنستمع إلى شاعرنا الشاب يجيب أستاذه :

بَقَّلَتْ وجنةُ[٢] المليحِ وقدْ ولَّ ى زمانُ الصِّبَا الذى كنتُ أملِكْ
يا عِذارَ الحبيبِ دَعْنى فإنى لستُ فى ذا الزمانِ من خُلِّ بقْلِكْ[٣]

كان ابن نباتة فى زمان الصبا والشباب، لكنه قضى أجمل أيامه منكبًّا على التحصيل، ودأب يزوّد نفسه بشتى المعارف، ويتصل بمشاهير الأدباء والشعراء .

لا بأس أن نطوف ساعة مع الحماى والوراق وقد اجتمع بهما فى زمان الصبا وأخذ عنهما مذهب العصر فى التورية. يذكر ابن نباتة أنه سمع الوراق ينشد لنفسه :

واخَجْلتى ، وصَحـــائفى مسودّةٌ وصحائفُ الأبرارِ فى إشراقِ
وتوقُّفى لموبّخٍ لى قـــائلٍ أكذا تكون صحائفُ الوُرَّاقِ[٤]

هكذا يورّى الوراق باسمه ، وهى صفة خاصة من صفات شعراء التورية الذين استخدموا صناعتهم وأسماءهم فى التوريات. ويذكر لنا ابن نباتة الحماى[٥] الشاعر المورى أيضاً ، وقد لقيه أديبنا أيضاً ، واستمع له ، وهو ينشده لنفسه :

أحبُّ من الدنيا إلىّ وما حَوَتْ غزالٌ تبدَّى لى بكأسٍ رحيقِ[٦]

---

(١) الديوان ص ٦٤ ، و الخزانة ص ٢٩١ ، والوافى بالوفيات ص ٣١٨ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٢ و ٧٠ ، ٧١ ، والديوان ص ٦٤ .

(٢) بقل الوجنة : ظهر شعرة .

(٣) الديوان ص ٤٢٣ ، و الخزانة ص ٢٩١ والدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢٢١ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٢ ورقة ٧٠ .

(٤) الديوان ص ٣٥٢ .

(٥) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٤

(٦) الرحيق : الخمر.

وقد شَهِدَتْ لى سنَّةُ اللهْوِ أنّنى ... أُحِبُّ من الصهباء كلَّ عتيقِ[١]

وسرعان ما يجيبه ابن نباتة حول المعنى نفسه، فيرتجل له هذين البيتين :

إنِّى إذا آنسْتُ همًّا طارقًا ... عَجّلتُ باللذاتِ قَطْعَ طريقِهِ

ودعوتُ ألفاظَ المليحِ وكأْسَه ... فنعِمْتُ بينَ حَديثِه وعتيقهِ

يتجلى لنا مذهبه فى الشعر ، وهو فى سن مبكرة ، ولعلنا نلحظ هذه العذوبة والسلاسة فى أسلوبه . مما لم نعهد مثله فى شعر من أنشدوه من أدباء وشعراء ، وهو ما زال فى زمان الصبا وريعان الشباب ، فهل نشك فى أن أستاذه الأول ابن دقيق العيد قد قدم للأدب العربى خير أديب أخرج للناس فى هذا العصر ، كما أجمع على ذلك النقاد المعاصرون .

لم يكتف بالتعرف على كل هؤلاء والأخذ عنهم ، وهم أساطين الشعر والأدب بل عاشر غيرهم ، وقد أشار إلى ذلك فى معرض إجازته للصفدى ، واعتذر عن ذكرهم ، لأنه عز عليه ألا يحضره شعرهم[٢]. ولقد كفانا الصفدى مؤونة التفتيش عنهم ، فذكر لنا أنه كان يكثر من التردد على القاضى علاء الدين ابن عبد الظاهر[٣]، ويذكر أنه كان له منه نصيب[٤].

استكمل — كما رأينا — ثقافتيه الدينية والأدبية فى وقت مبكر ، واطلع على المذاهب الشعرية المعاصرة ، وكأنما أعجب بمذهب شعراء التورية ، فتأثر به كثيراً فى أدبه ، وقد أوردنا علاقته ببعض شعراء هذا المذهب أمثال الوراق والحمامى وغيرهما .

وهكذا خرج للحياة بعد أن أجازه أشهر علماء عصره ، لكننا لانعرف على التحقيق متى نال أول إجازة ؟ ومن هو أول من أجازه ؟

مهما يكن من أمر ، فقد أجازه الكثيرون ، وهو دون العشرين من عمره

---

(١) الديوان ص ٣٥٢ ، وحلبة الكميت ص ١٧ .

(٢) الخزانة ص ٢٩١ ، والدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٢١ ، والمنهل الصافى (مخطوط) ج ٢ و ٧٠ ، ٧١ .

(٣) علاء الدين على بن محمد بن عبدالظاهر الأديب من كبار المنشئين وعلمائهم توفى سنة ٧١٧هـ.

(٤) المنهل الصافى (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

لنبوغه المبكر ودأبه على التحصيل ليل نهار . والدليل على ذلك أن بعض الذين أجازوه ماتوا قبل السبعمائة ، فخرج للحياة يسعى فى مناكبها كأحد علماء الدين .

المرحلة الثانية

٧٠٧هـ — ٧١٦ هـ

بدأ ابن نباتة كفاحه فى الحياة بعد أن أنهى عهد دراسته ، ولا ندرى هل تسعفه الأيام ، وتبتسم له أم أنها سوف تتجهم أمامه ؟ ولعله كان يفتش عن عمل فى ديوان السلطان ، لكن الأخبار أكدت أنه لم ينل منصباً يمكنه العيش ، لابل إنه لم يثبت لنا أنه تولى مشيخة أحد المساجد أو ما إلى ذلك .

كانت بضاعته الشعر ، ولم يكن ذا مال « وما كان ذو وفر يقيم له وزناً » — كما يقول[١] — وليس عليه إلا أن يستجدى بشعره ، لكنه لا يصيب حظّاً ، لأنه كان مغموراً ، ومثله من يحتاج لزمن طويل حتى يشق طريقه فى الحياة .

ويسلك باب التعليم ليكون سبيله لكسب الرزق وأداء دوره فى المجتمع ، ويفتتح كتّاباً للناشئة ، وقد عثرت على نص أنار لى محجة السبيل ، ووضح أمامى هذه الفترة الغامضة ، وكان ذلك فى كتاب (الانتصار) لابن دقماق فى معرض حديثه عن زقاق الأندلسيين ، إذ يقول : « . . . وكان بأوله من جهة زقاق القناديل كتاب الشيخ ابن نباتة . . . . »[٢] .

غير أنه قد يتبادر إلى الذهن أن ابن نباتة افتتح هذا الكتاب بعد عودته من بلاد الشام . ونحن بدورنا نرفض هذا الرأى لأسباب كثيرة ، أخص بالذكر منها أنه كان ضعيفاً عاجزاً فى أيامه الأخيرة ، وأعفى من الحضور إلى الديوان الذى نقل إليه ، فكيف يقوى على إدارة الكتاب ؟

وفى هذه الفترة من هذا العصر يحدث صراع عنيف بين الناصر محمد ونائب السلطنة بيبرس الجاشنكير أتابك العسكر ، ويترك السلطان ملكه بعد فراره إلى الكرك ، ويحتل بيبرس مكانه فترة من الزمن لاتتجاوز أشهراً معدودات ،

---

(١) الديوان ص ٥٨١ .

(٢) الانتصار ، ج ٤ ص ١١ .

يعود بعدها الناصر إلى ملكه ليستقر فيه زمناً طويلا . أما أبوه فيترك مصر ، وكان من قبل شاهداً فى ديوان الجاشنكير [1] ولعله كان يخاف انتقام الناصر ، ويقيم فى دمشق حتى وفاته .

أما ابن نباتة فيعز عليه أن يغادر مصر ويحرم من ماء النيل ، وهو الذى أحبه ونظم فيه أول ما قاله من شعر . فكيف يتركه؟ وفضل أن يترك أباه يذهب وحده وقنع من مصره بالفقر والحرمان .

نظن أن ابن نباتة قد تزوج فى هذه المرحلة من حياته ، وأنشأ أسرة لكننا لانملك الدليل على ما نقول ، وإن أعوزنا ، فإننا نظن أن رحيله المقبل إلى بلاد الشام كان من أسبابه الرئيسية فقره وعوزه . ولعلى أحسن صنعاً لو تحدثت فى هذه المرحلة عن زوجه وجاريته وأبنائه .

أما زوجه فكانت امرأة ولوداً ، ولدت له قريباً من ستة عشر ولداً [2] ، ومعظمهم كان يموت بين الخامسة أو السادسة أو السابعة من العمر ، ولم يعش له إلا ولد واحد اسمه محيي الدين محمد [3] ، تعانى الأدب ، ونظم وسطاً ، وتكسب بالكتابة .

لعل عدد أولاده فى هذه المرحلة لم يكن يتجاوز الخمسة ، وقد أشار إلى ذلك فى معرض تورياته :

لقد أَصبحتُ ذا عُمْرٍ عجيبِ   أُقضِّى فيهِ بالأَنكادِ وَقْتِى

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ١٧٣ .

(٢) المنهل الصافى جـ ٦ ورقة ٢٩٥ (مخطوط) .

(٣) أورد ابن حجر ترجمة ولد ابن نباتة : « محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن نباتة يلقب محيي الدين ، ابن الشاعر المشهور المتقدم ، تعانى الأدب ، فنظم وسطاً ، وكتب النسخ وقلم الحاشية والغبار ، وتكسب من ذلك بدمشق ، وقدم القاهرة بعد التسعين ، ومات بالقرب من ذلك » . (الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢٢٩) . والطريف ماوقع من الوهم الكبير والتصحيف الخطير فى النقل عن ابن حجر . فقد أسقط بعض النساخ كلمة (ابن) الواقعة بين (محيى الدين) و (الشاعر) ، وصحفت (التسعين) فأصبحت (السبعين) ولذلك نشأ الخلاف حول وفاته التى لم يحددها بدقة ابن حجر ، فقال ابن العماد : « كذا قال فى الدرر ، وجزم مختصر ضوء السخاوى أنه توفى فى هذه السنة ، أى ٧٦٨ هـ » . وهذا الجزم ناتج عن هذا لسقط الكلمة (ابن) فى النسخ ، فقد تحولت ترجمة الولد إلى أبيه وأعطى تاريخ وفاته . ومما يؤكد مانذهب إليه أن الأب لم يلقب بمحيى الدين إطلاقاً . (شذرات الذهب جـ ٦ ص ٢١٢) .

من الأولادِ خمسٌ حولَ أمٍّ فوا حَرْباهُ من خمسٍ وستِّ[1]

تلك هى حال ابن نباتة فى هذه المرحلة ، كما تصورتها ، لأننى لا أملك الكثير من الأخبار التى تجلى لنا هذه الفترة القصيرة من حياة الأديب ، لكننى حسبتها هكذا كانت ، ولعلى قد وفقت فى تصويرها بما تبين لى من نفيسته خلال دراستى المستديمة له . كما أننى أود لو أوضح الأسباب التى حدت به ليتوجه إلى بلاد الشام بعد أن أخفق فى نيل منصب يدر عليه ما يدرأ عن أسرته غائلة الفقر والجوع .

كما أنه — بالإضافة إلى ذلك — لمس من ممدوحيه القلائل إخلاف الوعود عن بعضهم أو العطاء النزر من بعضهم الآخر . أما أشهر ممدوحيه فى هذه الفترة القصيرة فهم : بدر الدين بن فضل الله ، وشرف الدين بن فضل الله ، وعلاء الدين بن الأثير .

١

مع بدر الدين بن فضل الله

لعل أسرة آل فضل الله هى أول أسرة اتصل بها الشاعر ، فمدح أعيانها الذين يشغلون مناصب خطيرة فى دواوين السلاطين المماليك فى مصر والشام . وسنرى أن ابن نباتة يستمر على مدح هذه الأسرة العمرية فى معظم مراحل حياته المديدة .

أما فى هذه المرحلة فقد اتصل باثنين من رجالها : أولهما بدر الدين الذى نحن بصدده الآن وكان من أعيان الكتاب فى ديوان السلطان ، وقد أسر عند هجوم غازان على بلاد الشام وهو إذ ذاك فى صحبة السلطان ، وبقى فى الأسر مدة من الزمن حتى تم خلاصه وإطلاق سراحه[2] . مدح ابن نباتة بدر الدين بثلاث قصائد . أشار البشتكى جامع ديوانه إلى واحدة منها ، وذكر فى الثانية أنه نقلها بعد موته لقريبه شهاب الدين . أما القصيدة الثالثة فذكر

---

(١) الديوان ص ٨٠ . (٢) الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٣٧ .

أنها قيلت فى الرثاء فقط[١] ، دون الإشارة إلى الشخص الذى قيلت فيه . وقد ثبت لدينا بعد التحقيق وإمعان النظر أنها قيلت فى رثاء بدر الدين هذا . يضاف إلى القصائد الثلاث مقطوعة سداسية بعث بها إليه وهو مريض[٢] .

نقف عند القصيدة الأولى ، ويحلو لنا أن ندعوها بالقصيدة السبكية ، وهى ذات طابع مصرى محض ، إذ يتغنى فيها بمصر ونيلها وسبكها وسواد عيون نسائها . يقول فى مطلعها .

خليلىَّ من مصر قِفَانَبْكِ فى النَّبْكِ ... على عيشِنَا بالنيل فى فَلَكِ الفُلْكِ
على مصرَ ، والهفى على مصرَ لهفةً ... يصحُّ بها قلبى المشوقُ على السُّبْكِ
ويا طَرَبى فيها إلى سودِ أَعْيُنٍ ... على مثلِهَا فى كلّ داجيةٍ أَبكى[٣]

هذا المطلع الذى تغنى فيه الشاعر ببلاده لايخرجه فى نظرى عن التقليد المعروف للشعر الجاهلى لأنه يذكرنا بمعلقة امرئ القيس الشاعر الضليل الذى وقف واستوقف وبكى واستبكى ، وها هوذا ابن نباتة يستوقفنا فى النبك ويستبكينا ، ولا عجب إذا لم نلمه ، لأن كثيراً من الشعراء قبله ، ومنهم أبو العلاء ، قد مروا فى طور التقليد حتى استقام لهم عمود الشعر ، ووصلوا إلى طور الابتكار .

لن نقف طويلاعند هذا النسيب بل نتخلص منه إلى المديح ، لكن الشاعر لم يحسن التخلص ، بل انتقل دون أن يمهد لذلك ، والمعروف عنه — كما سنرى — أنه يجيد التخلص كل الإجادة ، لكننا نعذره ، ومن حقه أن يعذر لأنه نظمها وهو دون العشرين من العمر ، وذلك بدليل أن ممدوحه بدر الدين مات سنة ٧٠٦ هـ .

التحق الشاعر فى هذه المرحلة كما قلنا بأسرة آل فضل الله ، وقد قال فى القصيدة المذكورة لممدوحه :

بكمْ آلَ فضلِ اللهِ طافَتْ مقاصِدِى ... وتمَّ على نُجحِ الرجَا بكمُ نُسْكِى

(١) الديوان ص ٤٦٠ .
(٢) الديوان ص ٢٣٥ .
(٣) الديوان ص ٣٦٥ .

رَفَضْتُ الوَرَى لمّا عَلِقْتُ حِبالَكمْ ونزَّهتُ دينَ الحبِّ فيكمْ عنِ الشِرْكِ
وسرَّ فؤادى أنَّ أقلامَ بدرِكمْ سرورٌ لذى ودٍّ وغيظٌ لذى مَحْكِ[1]

ويتحدث بعد ذلك عن أقلام مولاه فى السلم والحرب ، ويصفها وصفاً رائعاً إذ يقول فيها :

لأقلامِ مولانا ثَنًا متضوِّعٌ فهلْ هى فى الكافور تُكتبُ بالمسك ؟
وما هىَ إلا القُضْبُ إمّا موائسًا وإما مواضِى الحدِّ تَحْمى حِمَى الملكِ
تَربَّتْ بآكامِ الأُسود ، ترابُها مواقعُ سُحْبٍ ما نداها بمنفكِ
مُسَخَّرَةٌ تجرِى بما ينفعُ الوَرى على يدِهِ فانظرْ إلى البحرِ والفُلْكِ
مُؤَمَّرَةٌ تَسْرى إلى حومةِ الوغَى ومن أسودٍ فى أبيضٍ عَلَمُ الرَّنْكِ
مسدّدة الأَفعالِ والبأْسِ والنَّدَى مثقفةُ الآراءِ فى الأَخذِ والتَّركِ
فأَحْسِنْ بها فى الطِّرس هَيْفا كحيلةً تُريكَ قُدُودَ العُربِ معْ ثِقَلِ التُّركِ[2]

إن دلتنا الأبيات السابقة على شىء فإنما تعطينا صورة واضحة عن العصر. ولا يهمنا كثيراً أن يتحدث لنا عن أقلام مولاه ، بل يهمنا أن ندلل على انطباع هذه القصيدة بطابع العصر ، وإن جاء أسلوبها فى المطلع جاهليًّا . فهو يتحدث عن حمى الملك وعن علم الرنك وعن ثقل أرداف الترك .

نخلص من دراسة هذه القصيدة إلى القول إن الشاعر لم يستكمل بعد صورته الشعرية الذاتية ، وقد أشرنا إلى التقليد فى مطلع النسيب ، وذكرنا عدم قدرته على التخلص من هذا النسيب التقليدى إلى غرض المدح .

لكننا وضحنا فى خلال ذلك وجود طابع مصرى صميم فى كثير من المعانى ، كإشارته للسبك ومصر والنيل ، يضاف إلى ذلك تعريضه بالعرب والترك واستخدامه بعض ألفاظ خاصة ، عرفها الناس فى عصر المماليك .

لن نطيل وقوفنا عند شعره فى هذه المرحلة ، ولكننا نستزيد من عرضها ،

---

(١) المحك : يقال محك يمحك محكاً أى شار ونازع فى الكلام ، وتمادى فى اللجاجة .
(٢) الديوان ص ٣٦٥ .

ويحلو أن نقف عند القصيدة الثانية التى نقلها للشهاب بن فضل الله . ولقد تعمدت الوقوف عندها لأن فيها بادرة جديدة فى الشعر العربى ، فهو لم يبدأها فى الغزل بل أخره وختم به قصيدته . ولم نكن نعهد مثل ذلك لدى غيره من الشعراء السابقين واللاحقين ، وهذا أول تجديد نلحظه فى شعره ، وهو دون سن العشرين . لكنه يبشر بخطوة جريئة ، تتعلق بعمود الشعر العربى الأصيل . يذكر لنا فى مطلعها :

هنيئًا لأفقِ الفضلِ ، إنك بدرُهُ وإنَّ سجاياكَ الكريمةَ زُهْرُهُ
قدِمْتَ قدومَ الغيثِ يَهْمِى نوالُه ويعبقُ ريّاهُ ويَبْسِمُ ثغـرُهُ

لم يستطع أن يفلت الشاعر من بدره فى مطلع قصيدته ، لأنه جاء تصريعاً للبيت ، ولا مناص من إبقائه بدره الأول فى هذا المطلع من أفق شعره .

لانقف كثيراً عندها بعد ما تم نقلها ، لكننا نلقى نظرة عامة على هذه الخاتمة الفريدة التى هى من هيكل القصيدة ، لم تتغير بل بقيت معانى هذا النسيب ، كما كانت فى هيكلها الأصلى .

أنجلَ العُلا ، قابَلْتَنى ساعَةَ العُلا مقابلةً لاقى بها القلبَ جَبْـرُهُ
إذا شِيدَ فى نَظْمِ امتداحِك بيتُه فما هُوَ إلا فى ذوى النَظْمِ قَصْرُهُ
لمدحِكَ يا معنى النسيب تـأَخَّرتْ قوافى نسيبٍ طالما طارَ شعرُهُ[1]
على أننى مغرًى بكلِّ مُقَرْطَقٍ[2] بما خدُّه ماءُ الحيـاةِ وخُضْرُهُ
عجبْتُ لهُ فى كأْسِ مِرْشَفِهِ الطِّلَا[3] وفينا ولمْ يقْرُبْ من الكأْسِ سكرُهُ
ثناؤكَ أَشْهَى مِنْ لماه إلى فَمِى ولفظُكَ لا حلوُ الوصالِ ومُرُّهُ[4]

والطريف بعد هذا النسيب التقليدى أنه أحسن التخلص، ليختم القصيدة

---

(١) الديوان ص ٢١١ .

(٢) القرطق لباس معروف ، معرب (كرته) ، يقال : قرطقته فتقرطق ، أى ألبسته إياه فلبسه ، وقد تضم طاؤه وإبدال القاف من الهاء كثير فى الأسماء المعربة .

(٣) الطلا : أى الطلاء بقصر الممدود لضرورة شعرية ، وهى الخمر .

(٤) الديوان ص ٢١٢ .

بثلاثة أبيات ، يدعو فيها لممدوحه بطول البقاء.

يبقى علينا أن نعرض للقصيدة الثالثة التى تبين لنا — بعد التحقيق — أنها قيلت فى رثاء بدره ، وقد تعجب لظهور الحكمة فيها ، وهو فى مثل هذه السن المبكرة :

بَكَى لكَ العاليانِ : القدرُ والهممُ والماضيان : سِنانُ الرأيِ والقلمُ
يا غائبًا ، أظْلَمَتْ دارٌ لغيبتِهِ وهكذا البدرُ تدجو بعدَه الظُّلَمُ
«يا مَنْ يَعِزُّ علينا أنْ نفارقَهمْ وِجْدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكمْ عَدَمُ[1] »
رَحَلْتَ عنْ عادمى صبرٍ وما «قَدَرُوا أنْ لا تُفارقَهمْ فالراحلونَ هُمُ »[2] [3]

هذا المطلع لا جديد فيه لأنه صورة عن الرثاء المعروف ، لكننا نلحظ — بالإضافة إلى ذلك — التقليد ظاهراً كل الظهور ، فقد تضمن شعره بعض شعر المتنبى فى ميميته المشهورة . وسنرى أن هذه الخاصة قد طبعت شعره كله بهذا النوع من التضمين ، ذلك لأننا لانمر بقصيدة ما لم نرها قد تضمنت شطراً أو آية أوحكمة مأثورة أو كلمة مشهررة ، ويدلنا هذا على ثقافته الواسعة وقوة حافظته ، ومثله من يتصف بذلك وهو المحدث المشهور .

يظهر فى هذا الرثاء بعض الإشارات الخاصة إلى الوحدة السياسية بين مصر والشام كما فى قوله :

ماذا تركْتَ لأرضِ الشام من أسفٍ؟ إذا تُذكرتِ الأنسابُ والشيمُ
ماذا تركْتَ بمصرٍ منْ حَقيقِ جوًى ؟ ياذا الشيبةِ حتَّى آذَها الهَرَمُ[4]

بدأ بالشام وشفعها بمصر ، وجمعهما فى الهرم ، وهذا خير دليل على وحدة الشعور بالآلام والمصائب ، وهذا — فى نظرنا — عنصر هام من عناصر وحدة المشاعر فى ذلك العصر . والجديد فى هذا الرثاء أننا بدأنا نرى ظهور براعم الحكمة فى شعره :

---

(١) ضمن الشاعر فى قصيدته هذا البيت من قصيدة المتنبى (واحر قلباه) التى عاتب بها سيف الدولة ، ومعظم البيت الذى تلاه (ديوان المتنبى ج ٣ ص ٣٧٠) .

(٢) الشطر الأول فى بيت المتنبى هو « إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا » (ديوان المتنبى ج ٣ ص ٣٧٢) .

(٣) الديوان ص ٤٦٠ . (٤) الديوان ص ٤٦٠ .

مَضَى الأنامُ على هذا وساقَ بِهِمْ ... حادي الردى، ومنمضى نَحْنُ إثْرَهمُ
والمرءُ فى الأصلِ فخَّارٌ ولا عَجَبٌ ... إنْ راحَ وهو بكفِّ الدهرِ منحطمُ
وللمنيَّةِ فخٌّ من هلال دُجًــا ... «شُهبُ البُزاةِ سواءٌ فيهِ والرخَمُ»[1]

نترك حديثنا عن هذه الحكمة لموطنها فى بحث الرثاء ، ولننتقل إلى ممدوحه الثانى من أسرة آل فضل الله .

٢

مع شرف الدين بن فضل الله

لم يصلنا شىء من مدح ابن نباتة لشرف الدين[2]، ولكننا نقرر منذ البدء أنه كان يمدحه ، والدليل على ذلك أنه رثاه عندما انتقل إلى بلاد الشام بعد عام واحد ، وفاءً لهذا الفقيد الذى عرفه فى أيام صباه . وقف على قبره يبكى عهده ، ويدعو له بالسقيا . ويظهر لى أنه كان كثير الإحسان إليه ، فمدحه وهو بمصر، فلما ألقى عصا الترحال بأرض الشام بلغه نعيه فزار قبره وعاده استعبار ، وذرف دمعة سخينة لذكرى فقيده الراحل :

سقاكَ وحيَّاكَ الحَيَا أيّها القبرُ ... وفاضتْ على مغناكَ أدمعُه الغُزْرُ
وزارتْ ثَرَاكَ الطهرَ سحبٌ وفيَّةٌ ... لَدَى المَحْلِ حتَّى يُجْمَعَ الطُّهرُ والطُّهر
تجودُ بسُقياها على جَدَثِ العُلا ... وإنْ كانَ فى أرجائِهِ البحرُ والبَرُّ
إمامُ تقًى للملكِ فى رأيهِ هُدًى ... وصدرُ عُلًا للهِ فى أمرِهِ سِرُّ

(١) ضمن الشاعر الشطر الثانى من قصيدة المتنبى (واحر قلباه) ، وصدر البيت « وشر ما قنصته راحتى قنص » (ديوان المتنبى جـ ٣ ص ٣٧٣) . الديوان ص ٤٦١ .

(٢) شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله ، ولد سنة ٦٢٣ هـ وتعانى الكتابة وامتاز أسلوبه ببعده عن التكلف والتصنع . ولى كتابة السر فى عهد الأشرف خليل ، ولما رجع الناصر من الكرك سنة ٧٠٩ هـ نقله إلى كتابة سر دمشق عوضاً عن أخيه محيي الدين ، وخلفه فى منصبه علاء الدين بن الأثير وبقى شرف الدين بدمشق حتى وفاته سنة ٧١٧ هـ . الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٤٢٨، ٤٢٩ .

عليكَ ،ابنَ فضلِ اللهِ ،شَقَّتْ جيوبَها فضائلُ فى طىِّ البلادِ لها نَشْرُ
سلامٌ على الإنشاء بعدَ فراقِهِ سلامَ امرئٍ أَمْسَى لأَدمعِهِ نَثْرُ[1]

٣

مع علاء الدين بن الأثير

خلف ابن الأثير[2] شرف الدين بن فضل الله فى كتابة السر بعد عودة الناصر من الكرك سنة ٧٠٩ هـ ، ومن الطبيعى أن يتصل به ابن نباتة ، فيستميح جدواه . وقد مدحه بثلاث قصائد ، ورثاه برابعة ، ولو أمعنا النظر فى هذه المدائح لوجدناه يشكو لأول مرة فى حياته سوء حاله ، وينعت نفسه بأنه عبده ، وينتظر منه الغوث والرحمة .

هنأه بعد عودته من الحجاز بقصيدة تتجاوز التسعين ، وهى من أطول قصائد وأجملها يبدؤها كالعادة بالنسيب ، ويطول نفسه فى هذا النسيب ، ويحلو لنا أن نقتطف ما نراه جديداً لم نعهده فى نسيبه من قبل :

أما وتلفّت الرشأِ الغريرِ[3] ولينِ معاطفِ الغُصنِ النَضِيرِ
لقد عَبَثَتْ لواحظُه بعقلِى فيا وَيلَ الصحيحِ مِن الكسيرِ

وفيه يقول :

فربَّ دجًى لنا فيهِ عِنَاقٌ تغُوصُ به القلائدُ[4] فى النحورِ
زمانُ العيشِ مبتسمُ الثنـــايا ووجهُ الأُنسِ وضَّاحُ السرورِ

---

(١) الديوان ص ٢٣٢ .

(٢) علاء الدين على بن أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبى الأصل المصرى ، ولد سنة ٦٨٠ هـ ، وكان أبوه من أعيان الموقعين ، وقد صحب الناصر إلى الكرك وبعد عودته نقل شرف الدين بن فضل الله المار ذكره إلى دمشق ، ووضع مكانه علاء الدين ، واستمر فى منصبه حتى إصابته بالفالج ومات سنة ٧٣٠ هـ . حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٢ ، والدرر الكامنة جـ ٣ ص ١٤ — ١٦ ، والوافى بالوفيات (مصورة المخطوطة جـ ١٩ ل ١٢٨) .

(٣) الرشأ : ولد الظبية أو الذى تحرك ومشى مع أمه .

(٤) القلائد : جمع قلادة وهى ما تجعل فى العنق من الحلى .

ووصلُ معذِّبى جنَّاتُ عَـدْنٍ لباسى فيه ضمٌّ كالحريرِ

تروم يداىَ فى خَصريهِ مَسْرَى ولكنْ ضاقَ فِترٌ عن مسيرِ

وتعيا الكفُّ عن كشحٍ هضيمٍ[1] فأرفعُهَا إلى رِدْفٍ وثيـرِ

وأستُرُ ثغرَهُ باللثمِ خـوفًا على ليلى من الصبحِ المُنيرِ

سَقَى صوبُ الحَيَا تلكَ الليالى وإنْ عُوِّضْتُ بالدمعِ الغزيرِ

وحيَّا منزلَ اللَّذاتِ عنَّا وإنْ لم يُمْسِ منَّا بالعميرِ

وبدرًا فائزًا بالحسن يحْثُو ترابَ السبْقِ فى وجهِ البُدورِ

يَلذُّ تغـزُّلُ الأشـعارِ فيـهِ لذاذةَ مَدْحِهَا فى ابن الأثير[2]

لم نعهد غزل الشاعر من قبل كهذا الذى بين أيدينا ، إذ نستنشق منه نفحة شعراء الغزل الأقدمين ، ولعل الشاعر أراد من هذا الغزل الرائع أن يستميل قلب ابن الأثير وأن يظهره على قوته فى الشعر وطول باعه . يؤيد قولى هذا ما وصف به الشاعر شعره إذ يقول :

ولى لفظٌ رقيقُ الورْدِ جَزْلٌ كما نَبَعَ الزلالُ من الصخورِ

سَمَا شعرِى وعادَ على علاهمْ فلقَّبناهُ بالفلكِ الأثيرى[3]

وأحسنُ ما سرى بيتٌ لطيفٌ يُصاغ ثناهُ فى بيتٍ كبير[4]

يمدح الشاعر صاحبه بما عرفناه من معانيه السابقة ، ولعله من لغو الكلام أن نقف عندها كرة أخرى ، على أننا قد استوقف نظرنا فى هذه القصيدة الحجازية الغراء وصف حاله وذكر ما يقاسيه من عنت الحياة ، وقد ضمن هذا الوصف عتاباً يلين حيناً ويشتد حيناً آخر :

أطلتُ مديحَه وأجدتُ فيه ومـا حابيتُـه وزنَ النقيرِ[5]

وقُمتُ بجاهِهِ أشكو الليـالى كما تشكو الرعيـةُ للأميرِ

---

(١) كشح هضيم : أى أخمص منضم . (٢) الديوان ص ٢١٢، ٢١٣ .

(٣) الأثير هو عند الأقدمين الفلك التاسع . (٤) الديوان ص ٢١٤ .

(٥) النقير : النكتة فى ظهر النواة .

وأعجبُ كيف أظمأُ من غَمَامٍ ... وقد شَمَلَ الجليلَ مع الحقيرِ
وكيف ظلالُهُ تسعُ البَرَايَا ؟ ... وشخصى قائمٌ وَسطَ الهجير
وما فى السحبِ مثلُ نَدَى يديهِ ... وما فى الأرض مثلىَ من شكورِ
رعاكَ اللهُ دارِكْ شكوَ عَبدٍ ... تَمسَّكَ منكَ بالعدلِ السفيرِ
فمثلُكَ من أغاثَ حليفَ بيتٍ ... فأَحْيا بعضَ سكانِ القبور
أتيتُكَ مُحْرِمًا منْ كلِّ صنع ... فدُمْ ، يا كعبةً ، للمُسْتجيرِ[1]

تمثل هذه الخاتمة من قصيدته الحجازية أصدق تمثيل سوء حال الشاعر وفقره ، ولعل كثرة أولاده من العوامل التى أفقرته ، وجعلته يتوسل بذلة وضراعة لابن الأثير ، فيذكر له جمال شعره ورقته ، وقد سماه بالفلك الأثيرى ، ثم يقول له فى هذه الخاتمة : لقد أطلت مديحك ، وجودته لك ، وشكوت لك فيه سوء حالى ، ولكننى أعجب كل العجب : كيف أبقى ظمآن القلب ، والغمام يشمل الناس جميعاً ، وأنا محروم منه ؟ . وأعجب كيف يظلل الناس بظلاله الوارفة ، ويسعهم جميعاً ، لكننى محروم من ظلاله . فأنا وحدى دون الناس أجمعين قائم وسط الهجير .

إنه عتاب الشاعر لأنه محروم ، إنه عتاب إنسان بلغ به اليأس مبلغه ، إنه صوت إنسان محروم ، ينادى سيده : رعاك الله ، دارك شكوى عبدك . فهو يستجدى منه العطف ، ويهون عليه نفسه فيقول له : إنه عبده . وكنت أود لو صان ماء وجهه ، فلم يلقب نفسه بالعبد ، لكننا لاحظنا ذلك فى كل قصائده التى قالها فيه[2] ، ولعله كان تقاليد العصر فى أدب المخاطبة .

لا تخرج القصيدتان اللتان قالهما الشاعر — بالإضافة إلى هذه القصيدة — عما رأيناه من وصف سوء حاله . ولاحاجة بنا لتكرار القول ، لكننا نقف عند القصيدة الرابعة التى يدور حولها الشك .

---

(١) الديوان ص ٢١٥ .

(٢) الديوان ص ٨٤ ، ١٠٨ ، ٣٤٤ .

أما مصدر الشك فهو أن جامع الديوان البشتكى ذكر أنه قالها ولم ينشدها ، وهى فى الحقيقة قد قيلت فى رثائه . وكان الشاعر إذ ذاك قد بلغ بلاد الشام ، فسمع بموته ، فرثاه بالقصيدة المذكورة ، لكنه عدل عن هذه القصيدة وغيرها بعد أن سارت بها الركبان . استندت فى حكمى هذا على ما ذكره ابن حجر العسقلانى فى درره : ولابن نباتة فيه مرثية طنانة ، ومن قوله فيها :

لاعدِمْنا لابن الأثير يراعًا جاريًا للعُفاةِ [1] بالأرزاقِ
كلّما ماسَ فى المهارقِ[2] كالغصن رأيْت النَّدى على الأوراقِ [3]

أما فى الديوان فقد جاءت القصيدة فى معرض المدح لاالرثاء ، بُدئت بالنسيب وجاء المديح بعدها ، ولا بأس أن أورد نص البيتين السابقين لنرى ما طرأ عليهما من قلب وتحريف :

ذو يراعٍ جارٍ بفصلِ القضايا واتصال العُفاة بالأرزاقِ
كلما ماسَ فى المهارق كالغصنِ رأَيتَ النّدَى على الأوراقِ [4]

نتساءل هل من دلائل أخرى تثبت وتؤكد أن القصيدة قيلت فى الرثاء ؟ وعدت إليها مراراً فوجدت أثر البكاء واحمرار الدموع فى مطلعها :

ما عليكمُ من احمرارِ دموعٍ قد تحلَّوا بها مَعَ الأطواقِ [5]

قد يتبادر إلى ذهننا بعض التعجب ، فنتساءل : لم غير الشاعر رثاءه فى ابن الأثير ، وقلبه يمدح به غيره ؟ يذكر جامع الديوان أنه لم ينشدها وقد أورد أجزاء منها ابن حجر ، وقال إنها مرثية طنانة . هل نضبت قريحته ؟ أم لعل حرمانه له — يعطى الناس جميعاً وهو وحده قائم وسط الهجير — هو الذى

---

(١) العفاة : جمع عاف ، وهو طالب المعروف .
(٢) المهارق : جمع مهرق ، وهو اسم مفعول من أهرق ، ومعناها الصحيفة ، تصنع من قماش حريرى يسقّ الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه .
(٣) الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٥ ، ١٦ .
(٤) الديوان ص ٣٤٦ .
(٥) الديوان ص ٣٤٥ .

أثار نقمته عليه فلم يحفظ عهده لأنه نكث وعده وأخلف ظنه .

إن شعر أديبنا ابن نباتة فى هذه المرحلة ، وبخاصة مديحه لابن الأثير يصف لنا حاله السيئة خير وصف ، ويبين لنا أنه اشتكى من الفقر وتضرع لممدوحه باذلاً ماء وجهه، لكنه أفاق من هذه الذلة والمسكنة صفر اليدين ، وصمم على مغادرة أرض مصر ميمماً شطره نحو آفاق جديدة ، لأنه لا كرامة لنبى فى وطنه .

المرحلة الثالثة

٧١٧هـ — ٧٣٢ هـ

نعتقد أن هذه المرحلة أهم مرحلة مر بها الأديب الكبير فى حياته على الإطلاق ، ونعتقد أيضاً أنها فترة ذيوع صيته وسيرورة ذكره فى جميع بلاد المشرق ، فملأ الدنيا وشغل الناس .

غادر مصر ، فى أوائل سنة ست عشرة وسبعمائة ، وتوجه إلى بلاد الشام[1]، وكأنما كان يتشوق إلى الأرض الطاهرة التى ضمت رفات جده الأول نباتة فى ميافارقين ، والأرض التى استمعت لخطب جده عبد الرحيم خطيب الخطباء .

يتكرر فى ذهنى إلحاح وتساؤل عن الأسباب التى دعت ابن نباتة لترك مصر ، ولا شك أن فقره كان أحد هذه الأسباب ، لكنه ليس كل شىء فى هذا الأمر .

وتتزاحم الخواطر المختلفة فى ذهنى ، ولعلى أحسن صنعاً لو تبينت حقيقة هذه الدوافع التى شجعته على الرحيل وهو فى ريعان الصبا ، ولما يتجاوز بعد الثلاثين من عمره .

---

(١) البدر الطالع جـ ٢ ص ٢٥٢ ، والموسوعة الإسلامية جـ ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ ورقة ٢٩٤ .

كان الفقر — كما أسلفنا — أحد هذه الأسباب ، لأن حياته كانت تضن عليه حتى بالقوت الزهيد . يمدح أعيان عصره ، فلا ينال بعض ما يستحقه ، وكان يعرّض حيناً ويصرّح أحياناً بسوء حاله ؛ وقد فصلنا هذا الأمر فى مطولته الأثيرية الحجازية عندما عاتب ابن الأثير بصريح الشعر ؛ فذكر له أن ظلاله تسع البرايا جميعاً ، وشخصه قائم وحدَه وسط الهجير ، يقاسى لفحه وشواظه ، ويعجب كيف يظمأ ، والغمام من فوقه يهطل مدراراً على الحقير والجليل ، وينتظم البلاد من أدناها إلى أقصاها ، ويمتنع عنه ، فلا يصيبه نغبة من صيِّبه ، ولاقطرة من ودقه .

هاجر كثير ممن يعرفهم وممن لا يعرفهم ، فأصابوا الغنى والجاه ، وهم دونه أدباً وعلماً ، فلم لا يجرب حظه كغيره ، والحياة حظوظ ؟ !

كما أن أباه قد ترك من قبله أرض مصر ، فهل يلحق به ؟ وكان قد مضى أمد غير يسير على سفره ، وبالفعل سار على هديه فلعله يجد بعد عسر يسراً ، وبعد الشقاء سعادة وهناءة .

قد يكون لابن نباتة اتجاه سياسى معين مثل أبيه ، ولعل هذا من الأسباب التى جعلت سلاطين المماليك غاضبين على هذه الأسرة النباتية فى بعض الأحيان ، وإلا بم نعلل إعراض أكبر شعراء العصر وأدبائه عن مدح الناصر محمد ، وهو الذى شملت مدة حكمه ثلاث مراحل تقريباً من حياته . لعل السخط الذى لحق أباه أصابه أيضاً ، وقد كان — كما ذكرنا — شاهداً فى ديوان الجاشنكير بيبرس ، ويكفى هذا أن يكون سبباً كافياً لسخط السلطان عليه أيضاً .

لا نستغرب إذا لم نجد قصيدة سلطانية خلال هذه المراحل الثلاث من حياة ابن نباتة ، وقد يكون موقف ابن الأثير منه مجاراة لرغبة السلطان . يضاف إلى كل تلك العوامل ما ذكرته كتب التاريخ عن قدوم الملك المؤيد أبى الفداء فى العام المذكور إلى القاهرة . ومبالغة السلطان فى إكرامه . ومن الطبيعى جداً أن يتصل بهذا الملك الأيوبى كبار القضاة والشيوخ والشعراء والأدباء . ما دام السلطان قد احتفى بصديقه الذى خدمه حينما كان منفياً بالكرك .

ولعل ابن نباتة كان أحد الذين وفدوا عليه وهو بمصر ، فمدحه كغيره ، وكان هذا بدء تعارف بينهما ، ولعله طلب إليه أن يوافيه فى حماة عاصمة ملكه .

* * *

مهما كانت الدوافع التى حملته على الرحيل إلى بلاد الشام ، فالمهم أن الشاعر حل بهذه الأرض الطيبة ، لكنه لايدرى أين يقيم . فى دمشق أوفى حماة أو فى حلب أو فى غيرها من عواصم بلاد الشام ؟ ، وقد حاولت أن أعرف المكان الرئيسى الذى أقام فيه خلال هذه المرحلة ، ومنه انتقل إلى سائر المدن الشامية .

لم يشر أحد من المؤلفين القدامى إلى هذا الأمر ، وقد درست شعره بعمق ، وصنفت آثاره التى ألفها للملك أبى الفداء . فوجدت أن كل هذه المؤلفات قد كتبها تلبية لطلب الملك العالم الأيوبى ، وأن القصائد التى قيلت فيه تعنى بالضرورة أن الشاعر أقام فى حماة إقامة متصلة ، كان يسافر بين الحين والآخر إلى حلب الشهباء ودمشق الفيحاء وغيرهما من المدن .

كانت مملكة حماة الأيوبية كعبة الأدباء قبله ، فقد ألم بها كثيرون ، منهم الشرف الأنصارى والتلعفرى وابن ظفر الصقلى وابن مطروح والشهاب محمود والصفى الحلى والمقرى الفيومى ، بل كان العلماء والأطباء يتركون حواضرهم ليقيموا فى بلاط الملك الأيوبى الذى كان يستخدمهم ، ويدر عليهم الأرزاق ، مثل الأبهرى الذى كان بارعاً فى الطب وعلم الهيئة ، ويعرف علم الحساب والمساحة والاسطرلاب ، فقد ذكر ابن حجر أن المؤيد اقتطفه ، وأجرى عليه رزقه ، فلم يزل بحماة إلى أن مات المؤيد وتحول بعدها إلى حلب[1] .

فهل يترك إذاً ابن نباتة هذا البلاط الأيوبى الذى يزخر بالشعراء والأدباء والعلماء من كل الأصقاع ، ويبقى بعيداً عنها ، يتنقل بين دمشق وحلب وطرابلس ، أو يُهرع إليها ليقيم فيها ، وينعم بنوافل مليكها العالم ؟

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٣٣٩ .

١
فى بلاط الملك المؤيد

أشارت بعض المصادر القديمة إلى أن ابن نباتة كان يفد على حماة لينال عطاء أبى الفداء ، ويعنى هذا القول أنه لم يقم فيها إقامة دائمة ، لكننى فكرت مليًّا فى هذا الأمر ، وحرت فيه ، ذلك لأن ما بين يدى من المصادر ينفى قول الأقدمين ، ويشعرنى أنه أقام إقامة مستديمة فى حماة بعد وفوده على بلاد الشام بمدة لا تزيد على ثلاث سنوات أو أربع . والدليل على ذلك أن كل مؤلفاته قد ألفت بناء على طلب من الملك المؤيد ، وأن مؤيدياته تضم مجموعة كبيرة من القصائد ، بله المقطوعات الصغيرة ، تزيد على اثنتين وأربعين قصيدة ومقطوعة قالها الشاعر فى مدة لاتزيد على خمس عشرة سنة . وقد أشار فى بعض قصائده إلى وفادته عليه كل عام . واستقصينا هذا الأمر ، فوجدناه لايتعدى قصيدتين اثنتين أو ثلاثاً على أبعد تقدير ، كما فى قوله :

إذا لم يكن للغيث فى العام نجعةٌ ... فحسبُك بالمَلْكِ المؤيدِ منْجَعَا
غَدَتْ كلَّ عامٍ لى إليه وفادةٌ ... فيا حبّذا من أجلِ لُقياهُ كلَّ عا
تَطوَّقْتُ تطويقَ الحمامِ بجودهِ ... فلا عجبٌ لى أنْ أَحومَ وأَسْجَعَا[1]

قد يكون هذا الأمر صحيحاً خلال سنى وفادته الأولى ، لكنى أجزم ، وأؤكد أن ابن نباتة أقام بحماة فى معظم أوقاته فى هذه المرحلة ، ومنها كان يتنقل بين غيرها من المدن الأخرى . والدليل على ذلك ما عثرت عليه فى بعض آثاره ، إذ تحدث فى سجع المطرق عن الشيخ الحموى جمال الدين بن حمّاد ، وذكر نبذة من مكاتباته إليه ، ثم قال « كتبت إليه أول وفودى على حماة ونزولى عنده »[2] . وفى حماة عاش ابن نباتة ، وقضى فيها أجمل أيام حياته ،

---

(١) الديوان ص ٢٩٤ .

(٢) سجع المطوق (مخطوط) و ٥٥ .

فلنترك الشاعر يتحدث لنا عنها بلسانه : « وبعد ذلك فكل الأحاديث الطيبة طيب حماة وحماها ، وطيب النهار إذا جلاّها ، والليل إذا يغشاها ، وكؤوس فواكهها المختومة ، وزرابي أزهارها المبثوثة ، وفضل عاصيها فكيف طائعها ؟ ونواعيرها التي كانت كأنما ترد على السحب ما في الأنهار من ودائعها . دخل المملوك فكأنما دخل دار السلام من الجنة ، واتخذها ملجأ ، فكأنما اتخذ من طوارق الأيام جنة ، وقابل ملكها ، فكأنما قابل الملك الأنور ، وشكا الظمأ ، ففاض من كل أنملة بحر يهزأ بجعفر »[1].

يؤكد ذلك أيضاً ما ذكره ابن تغرى بردى فى ترجمة الملك المذكور ، وأشار إلى شاعره ، وبين بما لا يدع مجالاً للشك أنه كان مقيماً عنده ، وله عليه رواتب تكفيه[2].

كانت حماة ملجأه ، وكانت له دار إقامة ، فهل من بعد قوله هذا شك ؟ إنه خير قيلا وأحسن دلالة وتأويلا . قابل ملكها الأنور ، فأفاض عليه العطاء ، فأغناه عن كل ذى مال غيره ، وانصرف يجمع له أجمل الألحان المؤيدية ، ويتحدث عن حماة القاهرة ، ويعجب بنواعيرها ، وهى تنوح وتغنى ، وهى « فلك يدور على المجرة مطلقاً أسنى الكواكب »[3] من منازل البحر ، « وهى ذات ذوائب »[4] مؤلفة من « دف أشجار »[5] تغنى على الدف[6] تارة ، وتبكى تارة أخرى « كحالة الصب بين اليأس والأمل »[7] فإن « حنت فباطنها قلوب كله »[8] ، وإن « بكت فظاهرها الجميع عيون[9] » .

وناعورةٍ قسّمتْ حسنَها على واصفٍ وعلى سامعِ
وقد ضاعَ نشرُ الربا فاغتَدتْ تدورُ وتبكى على الضائع[10]

---

(١) سجع (المطوق) و ٤٠ .
(٢) المنهل الصافى (مخطوط) جـ ١ و ١٧٥ .
(٣) الديوان ص ٦١ .
(٤) الديوان ص ٦١ .
(٥) الديوان ص ٣١٥ .
(٦) الديوان ص ٣٣٥ .
(٧) الديوان ص ٤٢٥ .
(٨) الديوان ص ٥٣٨ .
(٩) الديوان ص ٥٣٨ .
(١٠) الديوان ص ٣١٧ .

ويتحدث بلسانها ويقول إنها تدور على قلبها الضائع :

وناعورةٍ قالتْ : وقد ضاعَ قلبُها ... وأَضلُعُهَا كادتْ تُعدُّ من السّقمِ
أَدورُ على قلبي لأَنى فقدتُه ... وأَمّا دموعى فهى تجرِى على جسمى[١]

ويتحدث أيضاً عن موج دموعها وسقام ضلوعها قائلا :

أَحسن بها ناعورة فى روضــةٍ ... عن جعفرٍ يروِى الهناءَ ربيْعها
هذا وليس يُعَدُّ مــوجُ دُموعِها ... وتُعَدُّ من فَرْطِ السقامِ ضُلوعُها[٢]

ويشخص هذه الناعورة أيضاً قائلا :

يا حبّــذا فى الحسنِ ناعورةٌ ... كأَنهــا من فَلَك الشمِس
تحمى حِمَى الروضاتِ منْ مائِها ... وشكلُها بالسيفِ والترِس[٣]

لم يقتصر الشاعر على وصفها وصف الناظر أو السامع ، وإنما كان يعبر من خلال ذلك عن أحواله . فهى قد نشأت مثله على عهد الأسى فأدمعها مستمدة من أدمعه :

ناعورةٌ نَشَأَتْ على عهدِ الأَسَى ... مثلى فما تنفكُّ ذاتَ توجُّعِ
كانتْ قضيبًا قَبلَ ذلك يانعًا ... فى أَيكةٍ نَبَتَتْ بإثرةِ موضعِ
ناحَ الحمامُ بها وأَبكانى الأَسَى ... فَتَعلَّمَتْ نوحَ الحمام وأَدمعى[٤]

ويبثها الشاعر أحزانه ، ويشكو لها الغرام لتواسيه وتسليه :

وناعورةٍ كانتْ قضيبًا فأَصبحتْ ... إلى القضب شوقًا كالحمامة تسجعُ
شكوتُ لها ضُرَّ الغرام وحالُها ... كحالى بكاءً أَو حنينًا يُرجّعُ
ولا بدَّ من شكوَى إلى ذى مروءةٍ ... يُواسيكَ أَو يُسليكَ أَو يتوجّعُ[٥]

---

(١) خزانة الأدب ص ٣١٩ .
(٢) الديوان ص ٣١٧ .
(٣) الديوان ص ٣٧٢
(٤) الديوان ص ٣١٥ .
(٥) الديوان ص ٣١٥ .

إن حديثه عن هذه المدينة الخالدة ذات النواعير الخالدة حديث إنسان مقيم عرفها عن كثب ، فأحب أهلها وأحبوه ، وكتب إليهم وكاتبوه ؛ وكأنما أسكرته طبيعتها الساحرة فتغنى بسحرها وجمالها ، ونهل من صهباء مليكها ، واستظل بدوحه الوارف ، بعد أن بقى زمناً طويلا قائماً وسط الهجير فى كنف ابن الأثير يشكو الظمأ ولا مجير .

فليقر الآن عيناً ، ولينشد مع هذه النواعير الخالدة فى تلك المدينة الساحرة أجمل ألحانها المؤيدية ، وهل غير أبى الفداء أحق بهذه الأناشيد النباتية ؟

هكذا انقضى زمانه بالجذل ، وقد نسى الشاعر فى هذا الوادى المقدس بؤسه وشقاءه ، فنعم بالحياة فى ظلال هذا المليك ، وشعر بالراحة الكبرى فى هذا البلاط الحافل . فنظم أجمل ما قاله من شعر فى حياته ، فكان شعره فى الملك المؤيد ، إسكندر زمانه — كما يقول — آية شعره على الإطلاق ، فهل يترك الإسكندر الأيوبى بعد ما شهد السعادة والصفو والهناءة :

أمَّـا حمـاةُ فعيشُ ساكنِيها صَـفْوٌ ، وكلُّ زمانِهِ سحرُ
إسكنـدرُ الأيـامِ مالكُها بدليل أَنَّ زمـانَه الخَضْرُ

كان فى مصر يسأل أعيان الناس . فيخلفونه وعودهم ، لكنه ما كاد يسأل أبا الفداء حتى غمره العطاء وأغناه عن كل ذى مال :

شَكَرَتْ لُهَاكَ فما أَشكُّ بأَنَّنِى ثقَّلْتُ وهْىَ مطيقةٌ أَثقالَهَا
أَغنيتَنى عن كلِّ ذِى مالٍ فلم أفتحْ يَدًا لِسِوى نَدَاكَ ولا لَهَا
وكفَيْتَنِى حتى قفوتُ معاشرًا كثُرَ الندَى فاستكثرَتْ أَطفالَهَا
أيامَ مالى غيرَ قصدِكَ حيلـةٌ تُنْجِى وتُنجعُ فى الوَرى نُطَّالَهَا[١]
لا زلتَ مقصودَ الحِمَى بقصائدٍ أَصبحْتَ عِصْمةَ أَمرِها وثِمالِها[٢]
لولاكَ لمْ يَخْطُرْ ببالى نظْمُهَا لا والذى يَلْقَاكَ أَنْعَمَ بالَهَا

(١) نطال : جمع ناطل ، ونطل الخمر عصرها .

(٢) ثمال القوم غياثهم الذى يقوم بأمرهم .

سأَلتْ رواياتِ النَّدَى فتأَخرتْ ... عنها الوَرَى وأَجزْتَ أَنتَ سؤالَهَا[1]

فرق كبير بين حاليه أمس واليوم ، سأل الناس الندى بمدائحه . فأخلفوا وعوده ، أما الملك المؤيد فقد كفاه ذل السؤال وأجازه وأنابه ووظف له راتباً كل عام ، وبذلك صان الشعر النباتى من الابتذال . نقرأ فى هذه القصيدة آيات الشكر وجميل العرفان . وهى تصور خير تصوير كيف أن هذا الممدوح العظيم رفعه بعد ضعف . وأغناه بعد فقر وحرمان ، فلا عجب إن حفظ له الود ، فردد ذكره فى جل مدائحه . وما أحلى هذا النداء النباتى الصادر من أعماق قلب الشاعر :

يا أَيُّهَا الملكُ المؤيَّدُ دعوةً ... تَذَرُ العُداةَ[2] بغيظِهَا تَشْكو الحُرَقْ

واصَلْتَ قصدى بالِلها وقطعت ما ... بينى وبينَ بنى الزمانِ من العُلَقْ

فلأَشكرنَّ جميلَ ما أَوليتَنى ... شكرَ الرياضِ الزَّهْرِ للماءِ الغَدَقْ

بمدائحٍ أَهَّلْتَنى لِنظامِها ... فغَدَتْ محرَّرةً وعنقِى مُسْتَرقْ[3]

مسكين هذا الشاعر . فما كاد يحظى بهذا الممدوح حتى كثر بالطبع أعداؤه وحساده الذين غاظهم ما رأوه من حب متبادل بين الملك والشاعر فليقدم له آيات الشكر وليذكر ما أفاء الله عليه ، وما أحلى شكره إنه أحلى من شكر الرياض للسحاب المدرار الذى نضر أزهارها بعد موات . وأنعشها بعد ذبول ، وأصبح أسير مليكه الذى حرر شعره من عبودية الممدوحين فنظم له من المدائح عقودها لكنه أصبح أسير جدواه . لن أفيض فى ذكر سائر ما قاله فى وصف هذه الحال ، ولكنه ــ سامحه الله ــ يأبى علينا كلما حاولنا الانتقال إلا أن نكرر معانيه هذه ، وكأنما استرق عنقنا كما استرق عنقه :

يا لميكًا أَحيا الثَّنَا والعَطَايا ... فجَلَبْنَا لسوقِهِ الأَشعارا

أَسأَلُ اللهَ أَنْ يزيدَك فضلًا ... وسموًّا على الوَرَى وفَخَارا

---

(١) الديوان ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ . (٢) العداة : جمع عاد وهو العدو .

(٣) الديوان ٣٢٨ .

صُنْتَنِى عن أذَى الزمانِ وقدْ حا ولَ حربِى واستكبَر استكبارا
وانبَرى غيثُكَ الهتَونُ بجَدْوَى علَّمتنِى مدائحًا لا تُبارَى[1]

منعه مليكه عن أذى الزمان وأهليه ، هذا الزمان الذى تنكر له فى فجر حياته ، وما إن فاض غيثه عليه حتى أزهر روض شعره ، فقطف له خير المدائح الغر التى لاتجارى . فكان له منها أجمل عقد ينظمه شاعر مبدع . تلك هى المؤيديات ، ويعلم الله أنى ما تلوتها إلا شعرت بهذا الحب العميق المتبادل بين هذين الإنسانين ، لا يفرق بينهما ملك أو سلطان . ذلك لأن قرابة الآداب فوق كل قرابة وحتى فوق قرابة الأنساب ، وأبو الفداء عالم وأديب قبل أن يكون ملكاً ، فلا غرابة أن اصطفى ابن نباتة ليكون صفيه وخليله . فهل من كثير على الشاعر إن أنساه مليكه نفسه وأهله ومصره ونيله وأهرامه وسبكه . كان فيها قائماً وحده وسط الهجير يشكو الظمأ ، أما الآن فقد ظلله دوح الملك الأيوبى فنعم بظله وعل من معينه .

كيف لا ينسى الشاعر غربته ؟ وكيف لا يسلو نفسه وأهله وموطنه فى هذا الوادى الجميل ، وفى حمى الملك الظليل . فيخرج للأدب خير أسفاره ويسمع الناس أعذب أشعاره ؟

خليلىَّ هَذَا من حمــاةِ محله فعوجَا على الأَرضِ التى تُنبتُ الهَنَا
ولا عيبَ فيه غَير أنى قصدتُهُ فأنْسَتْنِىَ الأَيامُ أهلًا وموطنا[2]

يتضاءل أمامه نيل مصر وكان أول شعر قاله فيه ، ويسلو مربعه ومراده بعد أن جاد عليه المؤيد :

فَدَتْ طلعةُ البدرِ المنيرِ أبا الفدا وإنْ كانَ أعلى مَنْ فداها وأرفعا
أَلَمْ تَر أَنَّا قدْ سَلْونا بأَرضِــهِ مرادًا لنا فى أَرضِ مصرَ ومَرْتَعا
إذا ابنُ تقىِّ الدينِ جادَ نباتُه علينا فلا مدَّتْ يدُ النيلِ إصبعًا[3]

(١) الديوان ص ١٩٠ .
(٢) الديوان ص ٤٨٩ .
(٣) الديوان ص ٢٩٤ .

ويخاطب نيل مصر كرة أخرى ، ويتحداه ، ولعله يتحدى من حرموه ، ويقول له إنه لا يساوى إصبعاً واحدة من يمين المؤيد :

فلا تفتخرْ من نيلِ مصر أصابعٌ　　فما النيلُ إلَّا من يَمينك إصبعُ
أيا ملكًا لمّا دَعَتْهُ ضراعتى　　تيقنتُ أنّ الدهرَ لى سوف يَضْرعُ
قصدتُكَ ظمآنًا فجُدْتَ بزاخر　　أشقّ ـ كما قد قيلَ ـ فيه وأذرعُ[1]

فلا غرابة إن رأيناه قد تضاءل كل إنسان أمامه غير المؤيد ، فيعرّض بسيف الدولة وابن عمّار ، ويذكر أنه لايضيره إذا تولى عهدهما ، ما دام الله قد قيض له وللأدب هذا الملك العالم :

وطاهرِ الخِيمِ[2] لا تُثنى خلائقُه　　على الملالِ ولا تُطوى على الدَنَسِ
ما شِمْتُ بارقَ جدواهُ فأخلَفَني　　ولا عَهِدْتُ إلى معروفِهِ فنَسِى
تلك العُلا لابنِ حمدانٍ على حلب　　ولابنِ عمّارَ شأْوٌ فى طرابُلُسِ
ما ضرنى إن تولّوا وهْوَ مرتقبٌ　　وخاسَ عهدُ الغوادى وهو لم يخِسِ
يابنَ الملوكِ الأُلى خُذْهَا عروسَ ثنًا　　مصرية المنتمَى غربيةَ النفَسِ
اللهُ أكبرُ ، صاغَ الحَقَّ ما دحُكُم　　كأنّه ناطقٌ فى حضرةِ القُدُسِ[3]

أشهد — والحق يقال — أنى ما تلوت هذه القصيدة إلا شعرت بجمال أخاذ، لا أعرف مصدره ، ولا أتبين مبعثه : هل هو فى هذا الأسلوب الجزل ؟ أو فى هذا اللحن السنى الجميل ؟ أو فى هذه النفحة المؤيدية الساحرة التى سبكتها الطبيعة فى هذا البلد الجميل على قصيدة مصرية المنتمى غربية النفس ففيها رقة أندلسية . وقد وصف الأقدمون مدينة حماة أنها ذات طابع أندلسى . ولا أكاد أقف عند بيتها الأخير ، وأستوقفه وأنادى مع جمال الدين : (الله أكبر) حتى يقترن شعورى بنفحة صوفية قدسية ، تفعم القلب بالإيمان المطلق

---

(١) الديوان ص ٢٩٦ .
(٢) الخيم : بكسر الخاء الطبيعة والسجية ، والخلق ، وقيل : سعة الخلق .
(٣) الديوان ص ٢٦٤ .

والصوفية الصادقة التى تسامت فى وجدها لتتحد بالذات الإلهية ، وتتلاشى فى المسالك السماوية ، حيث لايحدها مكان ، أو يدركها زمان ، ولايحجبها مدى عن آفاق القلوب . هكذا أنطق الملك المؤيد شاعره أروع آيات شعره ، فتفتحت أكمام هذه الشاعرية التى كادت تخمد وتموت ، وهو فى غلواء الشباب ، وقد اعترف بجميل مولاه ، فأنشده شعراً خلد به عاصمة ملكه ، وقرنها بالقاهرة :

لولاكَ ما أمستْ قريـ حتّىَ الكليلةُ شاعرةْ
أنتَ الذى روَّتْ غما ئمُهُ رباى العاطرةْ
فلقدْ وجدتُ ديارَ مل كِكَ بالسعادةِ عامرةْ
قهرتْ حماةُ لىَ العِدَا فحماةُ عندى القاهرةْ(١)

لم تقهر القاهرة من قبلُ أعداءه ، ولكن حماة مدينة المؤيد قهرتهم له ، وأخرست حساده ، فهى بحق حماة القاهرة ، والعجيب أن يشكو ابن نباتة منهم ، ولعله خاف أن يوقعوا بينه وبين المؤيد ، فما أفلحوا إلى ذلك سبيلا ، وعادوا خائبين :

يا أيُّها المَلِكُ المؤيّدُ دَعْــوةً تذَر العُداةَ بغيظِهَا تشكو الحَرَقْ
واصلْتَ قَصْدى باللُّها وقطعتَ ما بينى وبينَ بنى الزمانِ من العُلَقْ(٢)

أفاض مليكه عليه من العطاء ، فأكثر حساده :

شكرتُكَ حتّى لم تدعْ لىَ لفظةً وكِدْتُ بأن أشكوكَ فى كلِّ مشهدِ
لأنَّكَ قد أوهنْتَ جُهْدى باللُّها وأنسيتَنى أهلى وأكثرتَ حُسَّدِى(٣)

لم يكن ابن نباتة يأبه لعداته وحساده ، بل شق سبيله فى الحياة بعد أن عرف مكانته وقدره ، وأحس بجمال شعره ، وأصبح لامنازع له فيه ،

---

(١) الديوان ص ١٨٧ .
(٢) الديوان ص ٣٣٨ .
(٣) الديوان ص ١٣١ .

فتحدى الشعراء الأقدمين والمعاصرين قائلا يخاطب مليكه :

لبابِكَ يابْنَ الأكرمينَ بعثتُها ... أوانسَ مِنْ مَدْحٍ عن الغيرِ جُفَّلا
وأرسلتُها غرّاءَ كالغصن يانعًا ... وزهرِ الرّبى ريانَ والريح سَلْسلا
ممنَّعةَ المغْزَى تَجُرُّ برأسِه ... جريراً وتُلْقِى من جِرا[1] الكلبِ جَرْوَلا
شببتُ لها فكرى وفاحت حروفُهَا ... كأنّىَ قد دخَّنْتُ فى الطِّرْسِ مَنْدَلا[2]
فلو رامها الطائى من قيلُ لم يقلْ : ... « لهانَ علينا أن نقولَ ونفعَلا »
وكمْ مثلهَا أهديتُها طىَّ مُدرَجٍ[3] ... تكادُ لفرط الشوقِ أنْ تتسلَّلا
يفوهُ بها الرّاوى فيملأُ لفظُهَا ... فم الخِلّ درًّا أو فمَ الضدِّ جَنْدَلا
حلفتُ يمينًا ليس مثلُكَ فى الوَرَى ... فما شَرَعَ الإسلامُ أنْ أتحلَّلا[4]

إنها قصيدة تنطق بلسان حديد ، ولم نكن نعهد الشاعر ، ، يتحدث بمثل هذا الحديث ، ويتحدّى مثل هذا التحدى ، فهو يخاطب المؤيد بأنه بعث لبابه قصيدة ، تأنس بمديحه ، وتجفل عن مديح غيره ، أرسلها له غراء محجلة كالنهار المشرق ، تثنى كالغصن النضير ، وهى ريانة تقطر بالندى كأزهار الروابى الفيح ، وهى ناعمة رقيقة كسلسل النسيم .

يتحدى بمثلها الشعراء جميعاً ، وتكاد بسحرها وروعتها تجر جريراً بأشطانه ، وتلقى الحطيئة ، فتقرنه معه بأرسانه ، ليضم إليهما الطائى بعد ذلك . لكنه يوقر أبا تمام ، ويخاطبه بغير خطاب سابقيه ، ويفهم من شعره أنه يفضل نفسه عليهم جميعاً ، ويتحداهم أن يأتوا بآية واحدة من قصائده ، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

اختار الشعراء الثلاثة المذكورين على عمد ، فالحطيئة يمثل المدرسة الأوسية الجاهلية وهى المدرسة الحسية ، وجرير يمثل المدرسة السياسية فى العصر الإسلامى الأول ، وأبو تمام يمثل المدرسة الشامية فى الشعر العربى فى العصر

---

(١) جرا أى جراء بقصر الممدود ، وهى جمع جرو ، ويطلق غالباً على ولد الكلب .
(٢) المندل : يطلق على العود الطيب الرائحة .
(٣) المدرج : الكتاب الملفوف المطوى . (٤) الديوان ص ٥٥٠ ، ٥٥١ .

العباسى ؛ وقد توخى من هذا الاختيار المتعمد أن يثبت للأدباء والشعراء أنه خير من الشعراء الأقدمين فى الجاهلية والإسلام ، بالإضافة إلى عصر العباسيين ، فهو رب القريض بلا منازع ، وغيره من الشعراء بعض خلائقه المستضعفين :

تعلَّمْتُ أنواعَ الكلامِ برفدِهِ ... فأصبحتُ أعلى الناسِ شعرًا وأحسنا
إذا قيلَ مَنْ ربُّ المكارمِ فى الورى ؟ ... أقُلْ : هوَ أو ربُّ القريضِ ، أقُلْ أنا[1]

استوى الشاعر على ذروة المجد ، وليس من المعقول أن يتحدث شاعر عن نفسه بأنه رب القريض لو لم يقر له معاصروه بإمارة الشعر ، فحمل لواءه وسار فى ظلاله معاشر الأدباء والشعراء ، ولنستمع إلى الشيخ شهاب الدين بن حجلة يقول :

يا معشَر الأدَبَا غَدَا تشبيبُكمْ ... ومديحُكُمْ فيما يروقُ ويعذُبُ
وافاكُمُ ابنُ نباتةٍ فتفقَّهُوا ... أقوالَهُ بسكينةٍ وتأدَّبوا[2]

هذا هو رب القريض ، فعليهم أن يتفقهوا أقواله ، وأن يتأدبوا بحضرته ، لأنه أصبح فى مرتبة من المجد ، لا يخاف أن ينازعه فيها منازع . لقبه القدماء فى مطلع هذه المرحلة بشاعر الشام[3] ، وقد ذكر ذلك ابن بطوطة سنة سبعمائة وخمس وعشرين ، وما يكاد يأتى على نهاية هذه المرحلة حتى تنتهى إليه زعامة الشعر فى جميع بلاد المشرق على الإطلاق . وقد أشار ابن جُزَى إلى هذا الأمر فقال : « وإليه انتهت الرئاسة فى الشعر على هذا العهد فى جميع بلاد المشرق »[4] .

* * *

ما أبعد البون بين الأمس واليوم ، بين أمس حالك يفتش فيه عن القرت الزهيد فينثنى عنه ، وبين هذا اليوم الأغر الذى أصبح فيه رب القريض فى المشرق بأسره ، ولولا المؤيد لكان ابن نباتة أحد هؤلاء المغمورين الذين يعيشون ويموتون دون أن يكترث بهم الدهر .

---

(١) الديوان ص ٤٨٩ .
(٢) الخزانة ص ٣٢٧ .
(٣) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٢ .
(٤) المصدر السابق حـ ١ ص ٤٣ .

كان غاضباً على هذا الدهر لأنه لم يؤته سؤله ، أما اليوم فقد أصبح فرحاً بدهره ، ويقسم أنه لن يبيّم شطره إلا لمغنى سيده أبي الفداء ، ولن يمدح أحداً إلا إياه وكان حقًّا وفيًّا على العهد المقدس لمليكه الذى فتح له باب الخلود فى جنته العارشة بحماة القاهرة :

كنت غضبانًا على الدّهرِ وقدْ ... ردَّنى جودُكَ فرحانًا بدهرى
فيمينًا لِسِوَى مغنـــاكَ لا ... يَنْثنِى قصدِى ولا أُثنى بشعرى
أنتَ غيثى ونبـــاتى للثنـــا ... حقُّه أنْ يتلقّاكَ بزهرِ[1]

حفظ له الجميل ، ودعا شعراء عصره لسوق الشعر فى عكاظ الملك المؤيد ، حيث يجتمع الشعراء والأدباء والعلماء من كل حدب وصوب ، يحيون سوق عكاظ الأيوبى . فلنستمع إليه يدعو صاحبه صفى الدين الحلى لينعم بباب المليك العادل :

خلِّ هذا وانعمْ بباب مليكٍ ... عمَّ بالعدلِ والنوالِ عفاتَهْ
لو طلبْنا له شبيهًا من الدهْـ ... ـرِ لكنّا كطالبِ إعنـــاتَهْ
زوجَتْنا حماةُ نُعْمَى يديهِ ... فغَدا كلُّنا يُحِبُّ حماتَهْ[2]

كان غاضباً على الدهر ، ورده هذا الملك فرحاً بدهره ، وها هو ذا الآن يدعو صاحبه ، وقد صادق الدهر الذى جمعه . وما أحلى هذه التورية —وهو إمامها — فى البيت الثالث ، فلقد وفق فيها حقًّا كل التوفيق .

أما صاحبه الصفى الحلى فقد أتى إلى حماة ملبياً دعوة شاعر الشرق وفى بلاط المؤيد اجتمع سروات القوم وعلماؤهم وأدباؤهم وشعراؤهم وبين يدى الملك العالم جلس رب القريض ، وأمير الزجل فى عصره ابن مقاتل ، والصفى الحلى أحد كبار الضيوف ، وغيرهم من كبار الشيوخ والقضاة وعلى رأسهم جمال الدين بن حماد صديق ابن نباتة ، وخطيب الخطباء فى جامع حماة الكبير .

---

(١) الديوان ص ١٩٤ .
(٢) الديوان ص ٧٣ .

استمع المؤيد لرب القريض ، فطرب مع من فى المجلس ، وقام أمير الزجل ، واستأذن فى الإنشاد ، فأنشده هذا الزجل فى المديح ، وهو أعذب ما قاله ، وافتتحه بهذا النسب الزجلى :

قلبى بحب تيّـــاه ليس يعشق إلّا إيّاه
فاز من وقف وحيّاه يرصد على محياه
بدر السما لو يطبع من رام وصالو يعطب

واختتمه بهذا المديح الزجلى :

كم خصم فى المقاتل صابوا ابن مقاتل
وكم ذا فى المحافل قد أنشا لو جحافل
من كل بيت مربّع ملحون بـألف معرب[1]

فلما وصل أمير الزجل إلى هذا المقطع الأخير ، وانتهى من إنشاده ، وقف أمير شعراء المشرق ، لأنه لم يطق صبراً على هذا التحدى السافر للغة القرآن وشعر العرب ، ونظر إليه بازدراء واستخفاف . وأخذ ينقل بصره ، وهو يتهكم بينه وبين صفى الدين الحلى، ويقول للأول متهكماً : (ملحون) ويلتفت إلى صديقه الحلى، ويقول : (بألف معرب) فابن مقاتل ملحون ، وصفى الدين ألف معرب ، وشتان بين الملحون والمعرب ! هذا بينما كان الملك المؤيد يتبسم بوقاره ، وهو على دست الملك ، ويشهد هذا الصراع العنيف بين الشعر المعرب والزجل الملحون .

* * *

وتمضى بنا الأيام سراعاً ، وشاعر الشرق منصرف بكل جوارحه لسيده ، يؤلف له ما اقترحه عليه من الكتب . يتنقل بين بعض المدن ، ويتصل بمن يعرفهم من علمائها . فيلقى الحفاوة والاحترام بعد أن كان يقابل بالإعراض والازدراء . لكن الأيام لاتبقى لإنسان ، وسرعان ما تتغير الأحوال ، وما هى

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٣ ص ١٣٣ ، والخزانة ص ٤٠ ، ٤١ .

إلا عشية وضحاها وطرفة عين وانتفاضتها حتى يوافى الموت هذا الملك العظيم ، فيفرق بينهما ، ويحزن عليه ، ويبكيه بدمع سخين طوال حياته . ويرثيه بأجمل المراثى بعد موته .

لم ينس الشاعر مليكه . بل كان يرثيه فى كل قصيدة يمدح فيها ابنه الأفضل أو غيره . ولقد حفظ له عهده ، وصان ودّه ، وكان وفيًّا له فى حياته وبعد موته .

نطوى هذه الصفحة من حياة ابن نباتة . ولعلنا نحسن صنعاً لو تحدثنا عن سائر الممدوحين الذين عرفهم فى هذه المرحلة المؤيدية ، ومعظمهم كانوا من أرباب الدواوين الإنشائية . أو من القضاة والعلماء أو من الكتاب والشعراء .

أحدث ابن نباتة حركة أدبية كبرى بمجيئه إلى بلاد الشام . فألف للملك المؤيد ، وهو إذ ذاك بدمشق ، بعض الكتب الأدبية القيمة كمجمع الفوائد وسرح العيون . وقد أحدث الكتاب الأول ضجة كبرى فى المحافل الأدبية الشامية . فزكاه سروات علمائهم وأدبائهم وشعرائهم .

ألف ابن نباتة كتابه « سجع المطوق » اعترافاً لهم بجميلهم ، وقد تناولهم بالشكر . وذكر فى هذا الكتاب ترجمة كل شخص منهم ومكاتباته له . فجاء هذا الكتاب خير تاريخ للحركة الأدبية ورواداها فى هذه المرحلة المؤيدية من حياة الأديب الكبير . ولعلنا نحسن صنعاً لو وقفنا عند هؤلاء الرواد . فنعرض لهم ، ونذكر علاقة الشاعر بهم ، ونتحدث عن مدائحه فيهم ومدائحهم فيه . لأننا إذا فعلنا ذلك نكون قد استوفينا هذه الحركة الأدبية حقها من البحث ، ونكون قد عرضنا لأعلام العصر الذين عرفهم ابن نباتة فى هذه المرحلة المؤيدية التى خلدت أمير شعراء المشرق . وأصبح معاشر الأدباء يتفقهون أقواله . ويتأدبون بحضرته .

٢

مع شهاب الدين محمود

اتصل ابن نباتة بشهاب الدين محمود[١] وهو أول ممدوحيه فى هذه المرحلة بعد الملك المؤيد ، وقد عرف عنه أنه كان أحد أدباء هذا العصر ، وأحد شعرائه المجيدين . وله فى الملك المؤيد كثير من المدائح ، وقد روى لنا ابن كثير إحدى قصائده فى الملك الأشرف بعد فتحه قلعة الروم[٢] .

كان ابن نباتة قد افتتح باسمه كتابه ، فترجم له ترجمة ضافية ، وأشاد بمنزلته الأدبية فى الشعر والنثر ، وأطرى عليه كل الإطراء ، فقال : « ما أبرع محاسنه وأبدع فنونه التى كمّ بها عن الفكر محاسنه . وما شئت من عربية ، تفرّد فيها فكره الذرب[٣] وانتسبت زهرتها إليه انتساب ريحانة لابن معدى كرب[٤] ، وجاورت من فكـره ليث غاب أشب ، إذ جاورت من غـيره جحر ضب خرب ، ولغة هو جوهرىّ تنكيتها ، ومعانى نطق هو المفصح بها ، تطوى الطائى فلا ينفع عندنا ذكرى حبيب . ولا يستحسن عبث الوليد ، وتصانيف تملأ الأذهان فهماً ، وتسع فنون الآداب علماً . ومواقع أقلام تخرس الأفواه . والأفواه توسعها رشفاً ولثماً . كتبت الأنداء براعته . وكتبت مصر والشام براعته . فكلا الإقليمين أثبت لأقلامه فضلها وكلتا الجنتين آتت

---

(١) شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سلمان بن فهد بن المحمود الحلبى ثم الدمشقى ، شيخ صناعة الإنشاء . ولد سنة ٦٤٤ هـ ، وهو يحسن النظم والنثر عين لكتابة الإنشاء بدمشق ، ثم نقله ابن السعلوس إلى مصر عقب موت محيى الدين بن عبد الظاهر ، فكتب فيها الإنشاء . نقل إلى دمشق ٧١٧ هـ وتولى فيها كتابة السر بعد موت شرف الدين بن فضل الله ، وبقى فى منصبه حتى وفاته سنة ٧٢٥ هـ كان من الشعراء المقدمين مدح الملك المؤيد وغيره ، وله مؤلفات منها « حسن التوسل فى صناعة الترسل » فى المعانى والبيان والبديع ، ومنها ديوان فى المدائح النبوية اسمه « أهنا المنائح » .

(٢) البداية النهاية ج ١٣ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٣) أى الحاد .

(٤) فى هذا العلم لغات ثلاث : رفع الباء ممنوعاً من الصرف ، والإضافة مصروفاً ، والإضافة ممنوعاً من الصرف ، والياء ساكنة فى الأحوال الثلاث .

أكلها ، حللت بهذا حلة ثم حلة بهذا ، فشاب الواديان كلاهما ، ما زالت همم فضائله تبغى صعوداً ، وتعيي جاحداً وتتعب حسوداً ، وتعلم الشهب عن سنائه وسناه أن ليس كل شهاب محموداً»(١) .

أوردت هذا النص لأبين أولا كيف كان ابن نباتة يترجم لمن زكى كتابه فى سجع المطوق ، ولأستدل بالتالى أيضاً على الوحدة السياسية بين الإقليمين مصر والشام ، وعلى الوحدة الفكرية التى ظهرت لنا فى هذا النص أتم ظهور .

كتب شهاب الدين محمود الإنشاء بدمشق ، وانتقل للقاهرة ، وعاد بعد ذلك لدمشق ، فتولى أمانة السر فيها ، وقد أشار ابن نباتة إلى هذا الأمر فى هذا النص ، وأرانا بالتالى الوحدة الفكرية فى هذه القطعة الأدبية . ذلك قوله فى سجع المطوق ، ولم نكن لنورد ذكره لو اقتصر الأمر على ما ترجمه له ، وإنما افتتحنا بذلك علاقته به ومدائحه فيه .

لن نقف طويلا فى عرض مـِدَحـِه الأربع ، لأننا لانجد حاجة لذلك ما دام هيكلها العام كسابقاتها ، وما دامت لاتتعرض لحياة الشاعر نفسه . لكننا نشعر من خلالها أن العلاقة بينهما لم يكن أساسها العطاء ، بل كانت قرابة الآداب هى التى دفعته لذلك :

مدحتُكَ لا أبغى ثراءً بذلتَـــه ... إلىّ ولكنْ رفعةً بثَراكا
بعيشِكَ إلا ما تأمّلْتَ صفوَما ... منحتُكَ ودّىَ بعين رضَاكا
فأُقسِمُ ما ضمّتْ كحبِّكَ أَضلُعِى ... ولا استنشقَتْ روحى كنشرِ هواكا
أكادُ أُطيقُ السيلَ أَدفعُ صدرَهُ ... ولا أدّعى أنىّ أُطيقُ جفاكا(٢)

تؤيد هذه الأبيات ما أشرت إليه من حب متبادل بينهما ، ولعله قد حدثت جفوة ألهبت إحساس الشاعر فأسمعنا من الاعتذار ما ذكرنا بالنابغة . وقد

---

(١) سجع مطوق (مخطوط) ورقة ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) الديوان ص ٣٦٤ .

طلب إليه ألا يستمع لمقال العداة ، ويذكره بأيامه الأولى عند ما تعرف عليه فى دمشق :

ناشدتُكَ اللهَ فى ودٍّ عُنيتَ بهِ ... شطرًا من العمرِ لا يألوه مجهودُ
راجعْ يقينَكَ فى ودِّه عُصَبًا ... لرأيهمْ فى اقترابى منكَ تبعيدُ
واردُدْ مقالَ عُداةٍ لا اعتبارَ به ... إنَّ الردىء على أهليهِ مردودُ
لهمْ بذكرىَ أضغانٌ مناقضةٌ ... فى القلبِ وقدُوق التحريشِ تبريدُ
حاشا ثباتكَ من إيلامِ قلبِ فتى ... ما فيه إلَّا موالاةٌ وتوحيدُ
لى منْ مبادئ عُمْرى فيكَ فَرْطُ وَلا ... فمُ المصائبِ عن ذكراهُ مسدودُ
فهل أضِلُّ وجُنحُ الشيبِ متَّضحٌ ... بعد الرشادِ وليلاتُ الصِّبا سودُ ؟
إنْ كنتُ أُظهرُ ودًّا لستُ أُضمِرُهُ ... فلا وَفَى لىَ منْ نُعماكَ مقصودُ
فلستُ أكرهُ شيئًا أنتَ صانعُه ... مهما صَنَعْتَ فمشكورٌ ومحمودُ[١]

لعل هذه القصيدة وما فيها من اعتذار وعتاب وإشارة إلى مقال عداته ، تدلنا على محاولة الإيقاع بين ابن نباتة وصاحب ديوان الإنشاء . وكان — كما يبدو لى — أعقل منه ، لأنه لم يحاول أن يقطع ما بينهما من وشائج الصلات ، بل حفظ لصديقه عهده ، وقد عرفه فى الحقبة الأولى من عمره عند ما تولى المذكور ديوان الإنشاء بمصر بعد أن استدعاه ابن السعلوس . تشير هذه الأبيات أيضاً من طرف آخر إلى اتضاح جنح الشيب فى رأسه . وهو بعد لما يبلغ الأربعين من عمره .

نقف عند قصيدة دالية . وكثيراً ما كان يختار فى قصائده رويًّا ، هو بعض حروف اسم الممدوح . ونستمع فيها لهذه الأبيات التى قدم فيها صاحبه على عبد الحميد الكاتب :

يا أخَا الفضلِ لا يُعطَّلُ فى با ... بكَ جيدٌ ومسمعٌ من عقود

---

(١) الديوان ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

أَصبحَ الدهرُ جنةً بكَ زهرا ... ءَ فعِشْ فى الأَنامِ عيشَ الخلود
لو تصدَّى عبدُ الحميدِ لعُليا ... كَ لَلَجَّتْ أَسبابُها فى الصعود
وَربا كلَّ ساعةٍ فضلُكَ الجـ ... ـمُّ وعبدُ الحميدِ عبدُ الحميدِ[1]

نكتفى بما عرضناه من مِدَحِه الأربع . نضيف إليها قصيدة قالها فى رثائه ، ويتحدث كعادته عن الفقيد وعن الفراغ الذى أحدثه ، ويختم قصيدته بحكم أشبه ما تكون بالحكم العتاهية :

هى المنيةُ لا تنفكُّ صـائدةً ... نفوسَنَا بينَ مسموعٍ ومشهودِ
أَينَ الملوكُ الأُلى كانتْ منازلُهُم ... تزاحمُ البحرَ فى عزٍّ وتشييدِ
لم يحمِهِمْ سَرْدُ[2] داودَالَّذِى ملكوا ... مِن المنونِ ولا جندُ ابنِ داود[3]

نخلص من حديثنا عن الشهاب محمود إلى أن ابن نباتة حافظ على صداقته ، برغم محاولة العداة الإيقاع بين شاعر الشرق وصاحب ديوان الإنشاء . ولو أراد أن يقابله بمثل فعله لجفاه ، ولكنه عظيم النفس شديد التواضع لايحب أن يكثر أعداؤه ، بل كان يفضل أن يعتذر عن كل إساءة ، ولو كانت الإساءة إليه . وهذا دليل على ما عنده من خلق عظيم .

---

(١) الديوان ص ١٥٣ .

(٢) سرد : اسم جامع للدروع وسائر الحلق .

(٣) الديوان ص ١٥٦ .

٣

مع كمال الدين بن الزملكانى

كان كمال الدين [١] بن الزملكانى [٢] أحد الذين أثنوا أيضاً على كتابه (مجمع الفوائد) ، فحفظ الشاعر له الجميل ، وترجم له فى كتابه (سجع المطوق) . ولم تكن علاقة الشاعر به مستحدثة ، بل كانت قديمة العهد ، تعود إلى أوائل أيام وجوده فى بلاد الشام خلال هذه المرحلة الأيوبية ؛ ولقد عثرنا فى ديوانه على أربع قصائد فى مدحه ، يضاف إليها قصيدة خامسة ، لم تذكر فى الديوان ، لكننا وجدناها فى رحلة ابن بطوطة . وذلك خلال حديثه عن الممدوح المذكور ، وسوف نشير إليها فى مكانها من هذا الكتاب . نضم إلى هذه هذه القصائد الخمس بعض المقطوعات الشعرية الصغيرة ، بالإضافة إلى مرثية واحدة قالها فيه بعد أن بلغه نعيه ، وكان المرثى قد توفى وهو ببلبيس فى طريقه إلى مصر .

ومن بين تلك المدح الخمس تطل علينا تلك التائية المطولة التى نيف عدد أبياتها على المائة ، وقد أبدع الشاعر فى نسيبها كل الإبداع ، وبخاصة عندما ضمن هذا النسيب وصفاً حيًّا للخمرة يكاد يطغى بها على خمرة أبى نواس . وسوف نورده فى بحثنا المقبل عن خمرياته خلال دراسة الأغراض .

---

(١) كمال الدين أبو المعالى محمد بن على بن عبد الواحد بن عبد الكريم بن الزملكانى الأنصارى الدمشقى . ولد سنة ٦٧٧ هـ ، ونبغ فى وقت مبكر ، وأصبح ضليعاً فى التدريس والمناظرة والفتوى ، وأطلق عليه عالم العصر وأمير الشافعية ، ويروى أنه أفتى وهو لم يتجاوز العشرين من العمر . شغل الزملكانى منصباً فى ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم وقع الدست ، وولى بعد ذلك نظر المارستان سنة ٧٠٧ هـ ، وولى قضاء حلب ٧٢٤ ، هـ وعزل سنة ٧٢٧ هـ فعاد لدمشق . وقد طلبه الناصر ليوليه قضاء دمشق ، لكن المنية وافته وهو فى طريقه إلى القاهرة ببلبيس سنة ٧٢٥ هـ . الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٧٤ ، ٧٥ ، والبداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) الزملكانى : نسبة إلى زملكان ، بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، وفتح اللام ، وآخره نون ، قرية بغوطة دمشق . ذكر ياقوت أن أهل دمشق يقولون (زَمَلْكا) . (معجم البلدان ج ٣ ص ١٥٠) .

نتجاوز وصف الخمر إذاً دون أن نعشو ديرها الأقصى كما يقول لنستمع لابن نباتة يحدثنا عن ممدوحه الزملكانى ، ويذكر لنا فتاويه التى اشتهر بها والتى قيل عنه : إنه أفتى بها وهو ابن عشرين، وقد أشار إلى هذا المعنى فى أكثر من قصيدة واحدة ، وهذا يدلنا على أن مدح الشاعر كان يتسم بالدقة فى نعت ممدوحيه ، إذ يخص كلاً منهم بمميزاته الذاتية التى تطلعنا عليها التراجم القديمة ، ثم ينتهى من هذا الوصف ليتحدث لنا عن علمه وجوده بالأسلوب التقليدى المعروف لدى الشعراء القدامى ، وهو يعتمد على طريقة (ما) النافية ، تتلوها باؤها الزائدة ، ولكنه أضفى على هذا النمط معنى مستحدثاً ، يحسن أن نعرض له فى هذا المكان من البحث :

ما روضةٌ قلَّدَتْ إحياءَ سوسنِها ... من السحابِ عقودٌ لؤلئياتُ
وخَطَّتِ الريحُ خطاً فى مناهلِها ... كأَنَّ قَطْرَ الغوادى فيهِ جِرياتُ
وللجداولِ تصفيقٌ بساحتِها ... والقَطْرُ روضٌ وللأَطيارِ رنَّاتُ
يوماً بأَبهجَ من أَخلاقِهِ نظراً ... أَيامَ تُنكرُ أَخلاقٌ سريّاتُ
ولا الغيوثُ بأَسخى من عوائِدهِ ... أَيامَ تَعْيَا السجيّاتُ السخيّاتُ
ولا الشموسُ بأَجلى من فضائلهِ ... أَيامَ تدجُو الظُنونُ اللوذعياتُ
ولا النجومُ بأَنأَى من مراتبِهِ ... أَيامَ تقتصر الأَيدى العليَّاتُ
قدرٌ علا فرأَى فى كلِّ شمسِ ضُحًى ... جمالَه فكأَنَّ الشمسَ مرآةُ[1]

هذا الوصف الساحر الذى يطالعنا فى هذه التائية الكبرى ، من حديث عن الروض وسوسنه، شمل السحاب والريح وقطر الغوادى وتصفيق الجداول ورنات الأطيار والشموس فى ضحاها . . .

يدلنا ذلك كله على أثر الطبيعة فى أوصاف الشاعر ، ويدلنا من ناحية أخرى على صدقه ، وعلى سلامة طبعه الشعرى وجودة خياله ، ولأمر ما يتحدث فى هذه التائية عن الشعراء الذين كانوا يناصبونه العداء ليحتلوا مكانه لدى

---

(١) الديوان ص ٦٧ ، ٦٨ .

هذا الممدوح أو غيره :

جاورتُ بابَكَ فاستصْلحْتَ لى زمنى   حتّى صفا وانقضت تلك العداواتُ
ولا طفتْنِى اللّيالى فهْىَ حينئذٍ   من بعد أَهلى عمّاتٌ وخالاتُ
وبتُّ لا أَشتكى حالًا إذا اشتُكِيتْ   فى بابِ غيرِكَ أَحوالٌ وحالاتُ[1]

انعدمت الشكوى ، لأنه قد نال من الدنيا ما تمناها ولا طفته الليالى بعد أن تجهمت عليه ، والفضل كل الفضل لمليكه المؤيد الذى أغناه بعد فقر ، وآمنه بعد خوف ، وها هو ذا يردد هذه المعانى خلال مدائحه لأصحابه من القضاة والعلماء والأدباء .

ولعل علاقة ابن نباتة بغيره من شعراء العصر تكشف لنا عن كثرة أعدائه ، وقد أشار إلى ذلك فى معرض مؤيدياته ، لكنه يفصح لنا عن هذا الأمر هنا ، لأن المؤيد كان لايسمح لأحد أن يتكلم عن الشاعر فى حضرته ، وها هم أولاء ينتهزون فرصة ابتعاده عن بلاط سيده ليوجهوا إليه نقدهم ، وهذا شأن كل عظيم ، وطبيعى أن يكون هذا فى حياته الحافلة ؛ ولا سيما إنه كان شاعر الشام ، وأصبح بعدها شاعر الشرق .

تحدث عن أعدائه من الشعراء الذين كانوا يزاحمونه على أبواب ممدوحيه فقال لكمال الدين :

يُزاحمــونَ بأَشــعار مَلفّقةٍ   كأَنَّها بينَ أَهلِ الشعرِ حَشْواتُ
ويطرحونَ على الأَبوابِ من حمقٍ   قصائدًا هى فى التحقيقِ باباتُ[2]

---

(١) الديوان ص ٧٠ .

(٢) بابات : مفردها بابة ، وهى فصل أو مشهد من خيال الظل ، ولم يكن معروفاً عند العرب ، وإنما اقتبسوه من الأمم الأخرى فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقد نشره محمد بن دانيال الموصلى الطبيب الكحال الذى هاجر من الموصل إلى القاهرة .

ذكر الأبشيهى وصف الدنيا فى كتابه المشهور (المستطرف فى كل فن مستظرف) ، فقال : « وقد شبهها بعضهم بخيال الظل ، فقال :

رأيت خيال الظل أعظم عبرة   لمن كان فى علم الحقائق راقى
شخوصاً وأرواحاً يخالف بعضها   لبعض وأشكالا بغير رفاق =

من كلِّ أبله لكنْ ما لفطنتهِ ... كالبُلْهِ فى هذهِ الدنيا إصاباتُ
يُحمُّ حينَ يُعانى نظمَ قافيةٍ ... عجزًا فتظهرُها تلك الخُرافاتُ
ويغتدى فكرُه المكدودُ فى حُرَقٍ ... وقد أحاطَتْ بما قالَ البرودَاتُ
أعيذُ مجدَكَ من ألفاظهم فلها ... جَنًى كأَن معانيهم جِناياتُ
إنْ لم تفرّقْ بفضلٍ بيَن نظمِهِمُ ... وبينَ نظمى فما للفضلِ لذّاتُ
حاشاكَ أن تتساوى فى جنابِك منْ ... قصائدِ الشعرِ سوءاتٌ وجبهَاتُ
خذْهَا عروسًا لها فى كل جارحةٍ ... لواحظ وكؤُوسٌ بابليّاتُ
شمّاءُ يركع نظمُ الناظمينَ لها ... كأنما ألفاتُ الخطِّ دالاتُ[1]

كان حديثه عجباً ، لم نعهده من قبل يحمل كهذه الحملة الشعواء على أعدائه من الشعراء ، وفيه يصف لنا منافسيه وكثرتهم . ولا ندرى لم يطلب من الزملكانى أن يفرق بين شعره وشعرهم ، ولعله كان يستمع إليهم بعد ما رأى من انصراف الشاعر للملك المؤيد . ولعله يريد أن يستعيد مكانته لديه ، وهو صديق قديم له . فيطلب إليه أن يفرق بين جبهات الشعر وسوءاته ؛ ويتحدث بعدئذ عن قصيدته التى هى عروس من الشعر ، وهى إحدى المطولات التى جرّدها الشاعر ، وتعطينا فكرة عن أسلوبه وعن بعده عن استخدام حشو الكلام الذى يعيبه على غيره من الشعراء .

نلاحظه فى هذه القصيدة ينهج نهجه المعروف ، فيتحدث عن جوده وهى الصفة الرئيسية لكل ممدوحيه على الإطلاق ، وعن علمه وأقلامه وطروسه . ولن أفيض فى هذه الأوصاف الآن ، لأنها لا تتميز من سابقتها ، وسأتحدث عنها فيما بعد ، وأكتفى من هذه الدراسة بما يتعلق بحياته وأسرته .

ولنستمع للشاعر فى قصيدة أخرى يتحدث لنا عن ابتعاده عن أسرته ، ولعله

=تجىء وتمضى بابة بعد بابةٍ ... وتفنى جميعاً والمحرك باق »
(ج ٢ ص ٣٢٠ ، ٣٢١) .

(١) الديوان ص ٧١ .

تركهم فى حماة ، وقصد هذا الممدوح فقال له :

منْ مبلغٌ عنّى الأَهْلَ الذين نَأَوْا أنى نزيلك لا فقرٌ ولا فَزَعُ
مطَوَّقٌ بهِبَـــاتٍ ساجعٌ بثنا يُنسى الأَوائلَ ما جادُوا وما سجعُوا[١]

تتوطد العلاقة بين ابن نباتة والزملكانى ، ويزداد عطاؤه له ، ويجود مدائحه بعد أن أمر شعره على الشعراء قاطبة ، وكان يطلب إليه من قبل أن يفرق بين شعره وشعرهم ، فيقول له :

إنّى سألتُ نَدَى كفّيكَ رىّ صَدًى وما سألتُ نَدَى كفيك طُوفانًا
فاحبسْ هباتِكَ عنّى إننى رجلٌ أخافُ بغيًا على نفسى وعُداونًا
واغلِقْ[٢] لُهَاكَ وإن زُقّتْ حدائقُهَا فحسبِىَ الودُّ جنّاتٍ ورِضوانَا[٣]

وينتشى الشاعر بهذا العطاء الغمر ، فيكثر حساده وعداته ويطلب منه أن يرحمهم لأنه قد رحمهم وغفر لهم إساءتهم .

أَمَرْتَ شعرِى على الأَشعارِ قاطبةً حتى اتخذْتُ لشعرى فيكَ ديوانَا
وقد تكثَّر حُسادى وأورثَهُمْ نفاقُ لفظىَ فى ناديكَ أحزانَا
فارحمْ عُداتى فإنى قد رَحِمْتُهمْ فما أرى منهمُ فى الشام حرّانَا[٤]

إن شاعراً يقول مثل هذا القول يدلنا على نفسية عظيمة ، وقد أصبح كما ذكرنا أمير الشعراء ، ولقب بشاعر الشام فى هذه الفترة كما دعاه بذلك ابن بطوطة .

قد يكون جميلا لو وقفنا مع هذا الرحالة فى حلب الشهباء لدى وصوله إليها سنة خمس وعشرين وسبعمائة عند ما نقل الزملكانى من دمشق الفيحاء إلى حلب الشهباء فقصده الشعراء من حماة القاهرة ، ذات النواعير المؤيدية ، ودمشق الفيحاء وسواهما من المدن الشامية لمدحه وتهنئته بمنصبه الجديد .

---

(١) الديوان ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
(٢) المعروف أن (غلق) لثغة أو لغية رديئة فى (أغلق) .
(٣) الديوان ص ٥٠٦ . (٤) الديوان ص ٥٠٦ .

ويزور ابن نباتة صديقه القديم الذى أمر شعره على الشعراء قاطبة ، واتخذ هذا الشاعر من شعره ديواناً فى مدائحه . وينشده قصيدة حافلة تتجاوز الخمسين بيتاً ، لم تذكر — مع الأسف — فى الديوان . ويحسن بنا أن نوردها كاملة . لكى تبقى محفوظة فى طى هذه الدراسة ، لكننا لانملك إلا مختارات ، هى كل ما عثرنا عليه فى تحفة النظار :

أسفتْ لفقدِكَ جلَّقُ الفيحاءُ ... وتباشـــرتْ لقدومك الشهباءُ
وعلى دمشقَ — وقدْ رحلْتَ — كآبةٌ ... وعلى رُبا حلبٍ سنًا وسناءُ
قد أشرقتْ دارٌ سكنتَ فِنَاءَها ... حتى غدتْ ولنورِها لألاءُ
يا سائرًا سُقِيَ المكارمَ والعُلا ... ممنْ يُبَخلُ عنـــدَهُ الكرماءُ
هذا كمالُ الدينِ لُذْ بجنابِه ... تنعمْ فَثَمَّ الفضلُ والنعماءُ
قاضى القضاةِ أَجلُّ منْ أيامِه ... تغنى بها الأَيتـــامُ والفقراءُ
قاضٍ زكا أَصلًا وفرعًا فاعتلى ... شرُفَتْ به الآباءُ والأَبنـــاءُ
مَنَّ الإلهُ على بنى حلبٍ به ... للهِ وضعُ الفضلِ حيثُ يشاءُ
كَشَفَ المعمَّى فهمُه وبيـــانُهُ ... فكأَنَّمَا ذاكَ الذكاءُ ذُكاءُ
يا حاكمَ الحكَّامِ قدرُك سابقٌ ... عن أَن تَسُرَّكَ رُتبـــةٌ شمّاء
إنَّ المناصبَ دونَ هِمتكَ التى ... فى الفضلِ دونَ محلِّها الجَوزاءُ
لكَ فى العلومِ فَضائلٌ مشهورةٌ ... كالصبحِ شقّ له الظلامَ ضياءُ
« ومناقبٌ شَهِدَ العدوّ بفضلِهَا ... والفضلُ ما شَهِدَتْ بهِ الأَعداءُ »

اقتصرنا من القصيدة على ما أورده ابن بطوطة ، وقد وصف لنا ما حدث

---

(١) ضمن الشاعر بيتاً من قصيدة للشاعر السرى الرفاء الموصلى أحد شعراء سيف الدولة الحمدانى المتوفى ببغداد سنة ٣٦٦ هـ (ديوان السرى الرفاء ص ٩ ، ويتيمة الدهر ج ٢ ص ١٦٤ ، والتمثيل والمحاضرة ص ١١٢) .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣ .

فى مجلس الزملكانى عند ما أنشده هذه القصيدة ، فذكر لنا أن الشعراء الذين كانوا بحضرته قد نقدوه وأخذوا عليه ابتداءه بلفظ (أسفت)[١].

وليس فى هذا المطلع ما يصح أن يعتبر مأخذاً ، وكأنما وجدوا فى هذا التقابل بين لفظتى أسفتَ وتباشرت عيباً وهى صفة مستحبة لدى شعراء ذلك العصر ، وقد أعجب ابن حجة بهذه الخصلة فى شعر شاعر الشام .

لم تطل العلاقة طويلا بينه وبين الزملكانى . فقد استدعاه الناصر إلى القاهرة ليوليه قضاء دمشق فرض وهو ببلبيس وتوفى هناك. وقد رثاه ابن نباتة بقصيدة يروى فيها من جديد قصة حياته معه وتكاد تلخص هذه المرثية خلال الممدوح وشمائله : فهو بحر العلوم وملك الأقلام ، ويذكر أنه قد غاب بموته علم التفسير ووجم علم النحو ، وانطوى مبسم العلوم ، وأغضت مقلة البحث والجدل ، وعفت مدارس العقل والنقل ولم يبق من كل ذلك غير ذكرى القاضى الراحل ، ويختم القصيدة بقوله :

أَتُرَى هلْ علمْتَ يا بن علىٍّ ... أن دَمْعِى من الأَسَى مُتَوالى
أَنْتَ فى جنَّةِ النعيمِ مقيمٌ ... وفؤادى عليكَ بالنارِ صالى
أَنْتَ جارٌ للشافعىِّ وقلبى ... مالكىُّ الأَهواءِ والأَهوال[٢]

٤

مع نجم الدين بن صصرى

كان ابن صصرى[٣] من أوائل الذين مدحهم ابن نباتة فى هذه المرحلة، وقد ترجم له فى سجع المطوق وهو من أوائل من اتصل بهم بعد وصوله إلى

---

(١) المصدر السابق . (٢) الديوان ص ٤٠٦ .

(٣) نجم الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن محفوظ بن صصرى التغلبى الشافعى . ولد سنة ٦٢٥ هـ ، وتولى قضاء الشام سنة ٧٠٢ هـ بعد ابن جماعة حين طلب لمصر خلفا لابن دقيق العيد ، وقد وهم صاحب الدرر فى ذكر تاريخ وفاته ، فاعتمدنا على ماجاء فى تاريخ ابن =

بلاد الشام ، ويبدو أنهما كانا يتبادلان الرسائل الأدبية ، ويتطارحان القصائد الشعرية ، حتى إنه كان يقترح عليه الوزن والروى لمدحه بها . وقد حدث مثل هذا الأمر فى قصيدته التى مدحه بها ومطلعها :

وهاربٍ منْ رِضوانْ أوقَعَنى فى النيرانْ
والحسنُ شىءٌ فتانْ وللشجـــونِ أفنـــانْ
جلَّ صنعُ الرحمَنْ خالقِ قدِّ الأَغصانْ[1]

خصه الشاعر بست قصائد فى ديوانه ، مدحه بأربع منها ، وعزّاه بواحدة خلال وفاة بعض حرمه ، ورثاه بأخرى حين وفاته . أما قصائد المدح فلم يشر إليها البشتكى جامع ديوانه إشارة واضحة ، تدل على أنها قيلت فيه ، فكان يقول (قاضوية نجمية) أو (قاضى القضاة نجم الدين) أو غير ذلك . وقد يصحف اسم الممدوح فيقول مثلا : نجم الدين بن خضر ، وتكون القصيدة — فى حقيقة الأمر — قد قيلت فى نجم الدين بن صصرى المذكور ، كما يثبت لنا ذلك واقع القصيدة بعد التحقيق ، وكما سنشير إلى ذلك فى خلال هذا البحث .

طالعت مدائحه ، وانتقيت أقدمها ، واعتمدت فى انتقائى على وصف حالة الشاعر أول قدومه إلى بلاد الشام ، وكان إذ ذاك فى ضيق شديد . لن أقف عند صفات الممدوح ، فإنها لا تختلف عن سائر قاضوياته . وإنما أقف عند وصف حاله المريرة :

لَجَأْتُ إليـــهِ والحياةُ مريرةٌ فعـــرَّفَنى إحسانُه حلوَ طعمِهَا
وكنتُ على قصدى من الناسِ خائفًا فألفيتُـــهُ منْ راحتيهِ بيمِّهَا[2]

= الوردى والبداية والنهاية وكانت وفاته على التحقيق سنة ٧٢٣ هـ . الدرر الكامنة جـ ١ ص٢٦١ ، ٢٦٢ وتاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢٦٤ ، و جـ ٢ ص ٢٧٣ ، والبداية والنهاية جـ ٤ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(١) الديوان ص ٥٠٨ .

(٢) الديوان ص ٤٤٦ .

يظهر لى أنه قال هذه القصيدة قبل أن تتوطد علاقته بالمؤيد ، أى عندما كان يعيش متنقلا فى أرجاء الشام قبل أن ينتهى به المطاف إلى البلاط المؤيدى .

لو تصفحنا غيرها من المدائح الصصرية لرأينا نفسية الشاعر قد تبدلت عن ذى قبل ، ولعل هذه كانت أيام الاستقرار الذى أشير إليه فى حياته خلال هذه المرحلة ، كما فى هذه الميمية التى يقول فيها :

تفرّقَ المجدُ فى الأحياءِ من قِدم ... والمجدُ فى تغلبَ العلياءِ ملتئمُ
الطاعنينَ وحرُّ الحربِ ملتهبٌ ... والمُطعِمِينَ وحرُّ الجدبِ ملتهمُ
والشائدينَ على كيوانَ[1] بيتَ عُلًا ... تسعى النجومُ بمغناهُ وتستلمُ
من كلِّ أَروعَ سامٍ طرفُ سُؤْدِدِهِ ... أَغرَّ قد ناولتْهُ الرايةَ البُهمُ[2]
مَضَوا وأَحمدُ زاهى المجد مقتبلٌ ... كالروضِ أَقبلَ لمّا ولَّتِ الدِيَمُ[3]

مضى الشاعر كعادته يمدح نجم الدين ، ويشيد بنسبه تغلب ، ويتحدث عن مجدهم وعزهم ، ولكنه يلفت نظرنا خلال حديثه عن كرمهم إلى الجدب الذى كان يغشى الناس ، وقد أشرنا إلى ذلك بالتفصيل خلال دراستنا عصره ، والشاعر يثبت لنا هنا ما قدمناه من قبل من قول .

لا بأس أن نقف عند إحدى مدائحه الصصرية ، وقد نسبها جامع الديوان البشتكى خطأ إلى شخص آخر ، فذكر أنها قيلت فى « نجم الدين بن خضر»[4] ، ولا نعرف بين أعلام المعروفين فى المائة الثامنة من يعرف بهذا الاسم ، لكننا نعرف « تاج الدين بن الزين خضر» وقد خصه الشاعر بمدائح كثيرة ، وسوف نعرض له فى مكانه من هذه الدراسة .

ثبت لدينا بعد التحقيق أن اسم الممدوح قد صحف فى لفظة (خضر) ، وهى بالأصح (صصرى) ، ولعل هذا خطأ كتابى ، وكثيراً ما يحدث هذا

---

(١) كيوان : أى زحل ، وهو ممنوع من الصرف .
(٢) البهم : جمع بهمة ، وهو الشجاع الذى يستبهم مأتاه على أقرانه .
(٣) الديوان ص ٤٤٠ .
(٤) الديوان ص ٤٣١ .

التصحيف فى المخطوطات العربية القديمة ، ولعل المطالع لم يكتف بما أوردته ، لا بل إنه يستزيدنا من الدلالة والبرهان . وفعلا عرّض الشاعر باسم الممدوح نجم الدين وهو أحمد قائلا :

زمانٌ على حكمى تولّتْ هباتُه ... ولكنّها ولّتْ فزالتْ على رغمى
وأمّلتُ منْ إنعامِ (أحمدَ) مسليًا ... فناجيتُ وجَه النجح من صحة الوهم
وراحَ رجائى يضربُ الفألَ موقنًا ... وقامتْ قوافى الشعرِ تَنظرُ فى النجمِ [1]

نكتفى بهذا القدر من التحدث عن مدائحه ، أما القصيدتان الأخريان اللتان قالهما فى تعزيته ورثائه ، فليس فيهما ما يستحق الوقوف عنده ، مما نحن فيه من دراسة حياة الأديب .

٥

مع جلال الدين القزوينى

عرف ابن نباتة جلال الدين [2] فى المرحلة المذكورة ، حينما كان يشغل منصب خطيب جامع دمشق ومنصب القضاء فيها . أما ما بعد هذه الفترة فإننا لانعثر له على مدائح للشاعر فيه ، لأنه انتقل إلى مصر بعد أن استدعاه الناصر

---

(١) الديوان ص ٤٣١ .

(٢) جلال الدين أبو المعالى محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أبى دلف العجلى القزوينى . ولد سنة ٦٦٦ هـ وقدم هو وأخوه أيام هجوم التتار من بلادهم إلى دمشق ، ولما ولى أخوه قضاء دمشق ناب عنه ، ثم ناب عن القاضى نجم الدين بن صصرى ، وقد حدثت جفوة بينهما لأنه أنكر عليه أشياء لم يأذن له بإقرارها عام ٧٠٥ هـ ، وتولى بعد ذلك الخطابة بجامع دمشق ، ولقى من نائبها كراى أذى كبيراً بسبب وقوفه مع العوام بسوق الخيل محتجين على الضرائب التى فرضها عليهم . طلبه الناصر لمصر وعرض عليه قضاء الشام سنة ٧٢٤ هـ ، ثم عين لقضاء الديار المصرية بعد عزل ابن جماعة سنة ٧٢٧ هـ. بقى فى القاهرة حتى أعيد إلى دمشق معزولا ، وما لبث أن توفى بالفالج سنة ٧٣٩ هـ. الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣ ، ٤ ، ٥ ، وتاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٣١٧ ، والبداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٨٥ ، والإيضاح جـ ١ ص ٧٠ .

محمد ليوليه قضاءها سنة سبع وعشرين وسبعمائة بعد صرف ابن جماعة عنه .

أما القصائد التى خصه الشاعر فيها بمديحه فيبلغ عددها ست مدح ومرثية واحدة قيلت فى المرحلة التالية بعد عودته من مصر معزولا ووفاته بدمشق .

لعل أقدم قصيدة قالها فيه تلك التى مطلعها :

يا بروقًا على ربا يبرينِ[١] أىّ بيضٍ أغمدتِ بينَ جفونى ؟

ما أحلى هذا المطلع الشامى الطابع حين يذكر البروق التى تلمع فى آفاق ربوات « يبرين » ، وهى قرية سورية بضواحى حلب . وقد كان فى الأمس يتحدث عن سبك الأهرام ، وها هو ذا اليوم يتحدث عن يبرين الشام .

يحسن بنا أن نستمع إلى الشاعر يتحدث عن القزوينى ، بحر الفقه ، وهو يخطب الناس بجامع دمشق :

بحرُ فقهٍ وإنْ تشأْ فابن بحر فى ضروب البيان والتبيينِ
وخطيبٌ يكفى الخطوبَ بلفظٍ يستميلُ الصخور بالتليينِ
ساجعٌ يورقُ المنابرَ ميسًا فتلذ الأسجاع فوقَ الغصونِ
وإمامُ المحرابِ يشهد علمٌ حازَهُ أنَّهُ إمامُ الفنونِ
قسمًا بـ (الضحا)[٢] لديهِ من البشْـ ـرِ وبـ (الليل)[٣] مِنْ يراعٍ أمينِ
إنَّ نظمَ المديح فرضٌ علينا كل يومٍ لعزمِهِ المسنونِ[٤]

نقف عند قصيدة فى مديحه ، وهى التى قالها عند ما تولى القزوينى قضاء الشام سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، وقد أشار إلى هذه الحادثة فى معرض تهنئته قائلا :

للهِ صبحٌ تجلَّى للشريعةِ عنْ ذاك الجلال لقدْ جلَّتْ مآثرُهُ

(١) يبرين : قرية من قرى حلب من نواحى عزاز . (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢٧) .
(٢) أى سورة الضحى .
(٣) أى سورة الليل .
(٤) الديوان ص ٤٩٥ .

أفدى البريدَ وللتقليدِ فى يــدِهِ ... مخلّقٌ تملأُ الدنيا بشائرُهُ
يكادُ يلمعُ مطوىٌّ السطور بهِ ... حتى يَنُمَّ على فحواهُ ظاهرُهُ
مسرّةٌ كان طَرْفُ الشرعِ يرقبُهَا ... ومطلبٌ كانت العَليا تحاورُهُ
قاضي القضاةِ جلالَ الدين قدْ وضَحَتْ ... سبلُ القريضِ وصاغَ القولَ ماهرُهُ
وليِّتَ بالعلمِ لا بالحظِّ مرتبةً ... فاحكمْ بعلمِك فيما أنتَ ناظرُهُ
وانظرْ لحال غريب الدار مفتقرٍ ... طالَ الزمانُ وما سُدّتْ مفاقرُهُ(١)
بمتُــه دلفِىٌّ الأَصل منتسباً ... تـأْبى معاليهِ أنْ تَخْفَى عناصرُهُ
لِئنْ تفرّدَ بالعلياءِ سؤددُهُ ... لقد تفرَّدَ بالآداب شاعرُهُ(٢)

لعل الشاعر أراد بهذه التهنئة أن يتولى منصباً ، ولعله وجد الفرصة مناسبة ليهتبلها ، وقد تجلى لنا فى هذه الأبيات المختلفة نظرته للوظائف فى الدواوين والقضاء لأنها تتبع الحظ ، ولكن حظه كان سيئاً ، فلم يحظ بما حظى به غيره ، وقد لفت نظرنا إلى أن ممدوحه قد حصل على هذه الرتبة بالعلم لا بالحظ .

ولا يكاد ينتهى من ختام هذه القصيدة حتى نراه يقرن نفسه بممدوحه ، ويذكر له أنه تفرد بالمجد والعلياء ، وأما هو فقد تفرد بشىء غير هذا وذاك ، تفرد بالآداب بين الأدباء والشعراء تؤكد هذه الصفة ما رأيناه أكثر من مرة ، وهو أنه إمام القريض دون منازع ، تفرد وحده بالآداب دون شريك ، ولا غرابة فى ذلك ما دام أبناء العصر يعترفون له بالتفوق فى الشعر والنثر .

أما سائر المدائح الأخرى فيجدر بنا أن نقف عند اثنتين منها ، وقد جهل البشتكى جامع الديوان أنها قيلت فيه ، تأكدت من نسبتها إليه بعد الإمعان فى قراءتهما وتحقيقهما ، وقد ذكر فى إحداهما أنها قيلت للتهنئة بالحج دون الإشارة إلى صاحب الحجة الذى قيلت فيه ، وقد قال الشاعر فيها :

وكادتْ تُبارينا دمشقُ بشجوهَا ... إليكَ وقد تُشْجِى الرُّبا والمعالمُ

---

(١) مفاقره : أى وجوه فقره ، والمفاقر لا واحد لها من لفظها ، وقيل هى جمع فقر على غير القياس ، قيل هى جمع مفقرة بمعنى الفقر .

(٢) الديوان ص ١٩٨ ، ١٩٩

لئنْ أوحشتْها منكَ ربوةُ سؤدُدٍ لقدْ أوحشتْهَا من نُداكَ المقاسمُ
فوافيْتَهَا والعيشُ مُقْتَبلُ الهَنَا وعزمُكَ مبرورٌ وسرحُكَ[1] سالمُ
إليكَ جلالَ الدين أصبَحتِ العُلا وسلَّمَ أعرابُ الوَرَى والأعاجمُ[2]

تعبق من هذه التهنئة نفحة شامية ، فها هى ذى دمشق تبارى الناس بشجوها وشوقها إليه وتلك ربوتها المشهورة تطل عليه ، لكنه يورى بها قائلا : إنها ربوة سؤدد ومجد .

ولعل البيت الأخير خير إشارة إلى صاحب هذه التهنئة .

كما ذكر أيضاً فى قصيدة أخرى أنه قالها ولم ينشدها ، ولم يذكر بمن قيلت ، وقد تبين لنا أيضاً أنها قيلت فى القزوينى ، ودليلنا على ذلك الإشارة إلى أصل الممدوح ، وهو أبودلف :

بنى دلفٍ طِبتُم وطابَ قديمُكم فأكْرِمْ بكمْ فرعًا وأكرِمْ بكمْ أصلا[3]

ننتهى من تحقيق هاتين القصيدتين لنعرض وجهاً آخر من وجوه العلاقة بين الشاعر والممدوح. روى ابن نباتة فى سجع المطوق بعد أن ترجم له ، وذكر ما قاله القزوينى فى مؤلفه المشهور « مجمع الفوائد» أنه أشار عليه أن يزيد على قول علم الدين بن القماح فى أبياته المشهورة :

اصبرْ على حلو القضاءِ ومرِّهِ واعلمْ بـ « أن الله بالغُ أمرهِ[4] [5] »

ويذكر لنا أيضاً أنه اقترح عليه معارضة القاضى الفاضل على طريقته فى وصف يوم شات ، فكتب إليه ذلك ، وبعث به إليه[6] .

---

(١) السرح : المال السائم ، أو المال يسام فى المرعى من الأنعام .
(٢) الديوان ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .
(٣) الديوان ص ٥٥٦ .
(٤) اقتبس الشاعر قوله تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره » سورة الطلاق ٦٥ / ٣ .
(٥) سجع المطوق (مخطوط) ورقة ٤٢ .
(٦) المصدر السابق .

أصاب ما بينهما من علاقة بعض الفتور . أدى بها إلى الانقطاع بعد ذلك، لانتقال القزوينى إلى القاهرة . فلم نعثر له على قصيدة قيلت فى هذه الفترة ، عدا مرثية واحدة . قالها فيه بعد عودته إلى دمشق ووفاته فيها ، إذ يقول :

يا جلالًا . عن الزمان تقضَّى   عزَّ ربٌّ قَضَى وجلَّ جلالُهُ
ما اقْتَضَى حظُّنا بقاءك فينا   واحدًا تشملُ الأَنامَ ظلالُهْ[1]

ثم ينتقل ليحدثنا كعادته عن الوحدة السياسية بين الإقليمين . ووحدتهما فى المصائب والأحزان . كما فى قوله :

ونَعَتْ مصرُ والشآمُ إمامًا   طرَّزتْ مجدَ ذا وذاكَ خِلالُهْ
لو بقدر الأَسى بكيتُ لسالتْ   مهجةٌ كمْ وَفَتْ لها أَفضالُهْ[2]

نكتفى بهذا القدر من الحديث عن القزوينى الذى عرفه الشاعر فى بلاد الشام مع غيره من قضاة هذا العصر وعلمائه وأدبائه فى المرحلة المذكورة .

كما يجدر بى أن أشير إلى طائفة أخرى عرفها الشاعر . لكنى أكتفى هنا بذكر أسمائهم ، لأن بعضهم لم يقل فيهم شعراً البتة ، وإنما عرض لذكرهم فى كتابه سجع المطوق بعد أن زكوا كتابه الفريد « مجمع الفوائد » ، ولأن بعضهم الآخر لم يقل فيهم غير قصيدة واحدة أو قصيدتين أو مقطوعة شعرية صغيرة . ووفاء للبحث نذكر أسماءهم، وهم: علاء الدين بن غانم، وبهاء الدين ابن غانم ، وبدر الدين بن العطار . وفخر الدين بن المعلم المصرى ، وأمين الدين بن النحاس ، وشرف الدين بن البردى ، وجمال الدين بن حماد الحموى .

---

(١) الديوان ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٢) الديوان ص ٤٠٤ – ٤٠٦ .

المرحلة الرابعة

٧٣٢هـ — ٧٤٢ هـ

تبدأ مرحلة جديدة بموت الملك المؤيد ، ويخلفه ابنه الملك الأفضل ، ويجرى على ابن نباتة راتبه الذى كان يناله كل عام . لكن الأمر لم يكن على ما كان يهوى ، فترك حماة بعد أن لمس من الملك الجديد زهداً فى الحياة وإعراضاً عن الشعر والشعراء . وهكذا ينتهى دور الاستقرار والمجد، ويبدأ بعده دور التنقل سعياً وراء الرزق فى أنحاء بلاد الشام . وهكذا يتغير وضع ابن نباتة بعد هذا المجد الذى أحرزه فى عهد الملك الراحل ، وقد تجلى لنا فى الشهرة الواسعة التى عرف بها فى العالم الإسلامى قاطبة حتى كان ابن جزىّ يدعوه بشاعر المشرق كما رأينا ذلك .

مسكين هذا الأديب الكبير بدأ يهبط من أوج عظمته ، فراح يسعى فى مناكب الأرض يفتش عن القوت الزهيد ليكفى أسرته مؤونة العيش . كان فى الأمس يؤلف أشعاره، فتلقى الرعاية من مليكه والإثابة عليها. أما اليوم فما أبعد البون بين أمسه الزاهر وحاضره العابس !

نراه تارة فى بلاط الأفضل ، وأخرى فى القدس الشريف ، يشغل وظيفة فى كنيسة القيامة ، لا تتناسب مع مكانة شاعر المشرق . فمن حق الشاعر علينا أن نتنقل معه بين حماة والقدس ودمشق . ونلتقى مع الملك الأفضل والوزير أمين الدين وغيرهما ممن انتجع مرادهم ، ونال عطاءهم .

١

فى بلاط الملك الأفضل

سعت أم الأفضل بعد وفاة الملك المؤيد إلى دمشق ، وطلبت من تنكز أن يصدر السلطان أمراً بتولية ابنها مكان أبيه . وقد قدم البريد بالموافقة ، وطلب

إليه أن يجهزه لمقابلة السلطان فى القاهرة لتقديم فروض الولاء . وتوجه إليها . فأكرم السلطان وفادته ، وخلع عليه التشاريف بنظير ما كان لأبيه من علو المكانة[١]، وعاد إلى مقر ملكه .

عرف الأفضل كأبيه فى أول عهده بالملك بتكريمه الشعراء واستحضاره للأمثال والأشعار . فمن الطبيعى أن يكون ابن نباتة متمتعاً بمكانته الأولى ، وهو شاعر البلاط الأيوبى دون منازع . ولم يكن الشاعر حديث عهد بمدح الملك الأفضل ، لأنه قد تحقق لدينا أنه كان يمدحه ، وهو أمير ثم ولى للعهد ، فلم يكد يوارى ثرى الملك المؤيد حتى نرى الشاعر يذكر ناصر الدين (وهو لقبه الأول) خلال رثائه لأبيه قائلا فى القصيدة نفسها وكأنما كان خائفاً على مصير البيت الأيوبى :

يا ناصرَ الدين أنتَ الملكُ قد قرأَتْ علائمَ الملك فيهِ عينُ رائيـهِ
ومِنْ أَبيكَ تعلمْتَ الثباتَ فما تحتاجُ تذكرُ أمرًا أَنتَ تَدريهِ
لا تخشَ بيتَكَ أَنْ يلوى الزمانُ بهِ «فإنَّ للبيتِ رَبًّا سوفَ يحميهِ»[٢]

إنها وصية إنسان نصوح ، عرف أسرار البلاط ، وعرف الأعداء والطامعين الذين رفعوا رؤوسهم بعد موت الملك المؤيد ، وما لبث أن ختم رثاءه ، بهذا البيت الرائع وبكلمة عبد المطلب المأثورة : إن للبيت ربًّا سوف يمنعه .

غيرّ الناصر لقبه « المنصور » وسمى نفسه « الأفضل » تيمناً باسم جده على وبدأ الشعراء يفدون عليه لتهنئته بالملك ، وكثر الوافدون من شتى أرجاء الشام . ومن أحق من هؤلاء بتهنئة من شاعر المشرق ابن نباتة الذى وقف بينهم . فأنشد قصيدته الرائعة ، وكان — فى حقيقة الأمر — يندب فيها مليكه الراحل :

هناءٌ محا ذاكَ العزاءَ المقدَّما فما عَبَسَ المحزون حتى تبسَّمَا

---

(١) السلوك ج ٢ ص ٣٤٤ ، والدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٨٩ .
(٢) الديوان ص ٥٧٢ .

ثغورُ ابتسام فى ثغور مدامعٍ   شبيهان لا يمتازُ ذو السبق منهُمَا
نردُّ مجارى الدمعِ والبِشْرُ واضحٌ   كوابلِ غيثٍ فى ضُحا الشمس قد هَمَى[١]

أعجب ابن حجة صاحب الخزانة بهذه القصيدة . وجعلها من عجائب الدهر[٢] . لأنه « جمع فيها بين نقيضى المدح والرثاء فى كل بيت » ، وقد أورد شواهد منها . وعلق على ذلك قائلا : « سبحان المانح . والله من لا يتعلم الأدب من هنا ، فهو من المحجوبين عن إدراكه » ؛ وكأنما أراد الشاعر من هذا التناقض أن يروعنا بإظهار مذهبه الرمزى البديع . وكان حذقًا موفقاً . ويأبى عليه وفاؤه إلا أن يدعو لقبر أبى الفداء بالسقيا . وهذه الصفة نراها عامة فى كل مدائح الأفضل .

سقَى الغيثُ عنَّا تربةَ الملك الذى   عهدْنا سجاياه أبَرّ وأكرَمَا
ودامتْ يدُ النعمَى على الملك الذى   تدانتْ له الدنيا وعزَّ بهِ الحِمَى
مليكان هذا قد هوَى لضريحِهِ   برغمى ، وهذا للأَسرَّةِ قد سَمَا[٣]

نقف بعض الوقت عند هذه الأبيات . لنُسقَى مع شاعرنا ثرى الملك الراحل . ونقف كرة أخرى عند البيت الأخير ، لنتأمل مليًّا قوله : « برغمى » . ولعله كان يؤمل من أبى الفداء شيئاً . فهل وعده بأمر ، فأخلف فى نفس شاعره بعد موته الحسرات ؟ أو لعله الوفاء والوفاء وحده ؟

تأثرت ، وأنا أطالع هذه القصيدة . لأنه كان يندب سيده الراحل أكثر مما كان يهنئ الأفضل الملك المتوج ، ولعلها كانت تهنئة فى معرض الرثاء :

إذا الأَفضلُ الملكُ اعتبرْتَ مقامَهُ   وجدتَ زمانَ الملك قد عادَ مثلما
أعادَ معانى البيت حتّى حسبتُه   بوزن الثنا والحمدِ بيتًا منظَّمَا
فإنْ يكُ من أيّوبَ نجمٌ قد انقضَى   فقدْ أطلعتْ أوصافُكَ الغُرُّ أنجمَا
وإنْ تكُ أوقاتُ المؤيّدِ قد خلَتْ   فقد جدّدتْ علياكَ وقتًا وموسمَا

---

(١) الدوان ص ٤٢٩ .   (٢) خزانة الأدب ص ١١ .
(٣) الديوان ٤٢٩ .

عليهِ سلامُ اللهِ ما ذرَّ شــارقٌ[١] ورَحمتُهُ ما شاءَ أنْ يترحّمَا
هو الغيثُ ولىّ بالثناء مشيّعًا وأبقاكَ بحرًا للمواهب مُنعمَا
لكَ اللهُ ما أبهى وأبهرَ طلعةً وأفضلَ أخلاقًا وأشرفَ مُنتمى
بك انبسطَتْ فيكَ التهانى وأنشأَتْ ربيعَ الهنا حتى نَسينَا المحرّ ما[٢]

وقف ابن حجة ، وهو يورد شواهد من القصيدة المذكورة ، عند البيت الأخير ، وقال : « وكانت وفاة الملك المؤيد فى شهر المحرم ، فقال ولم يخرج عما نحن فيه . . . والجمع بين التهنئة والتعزية فى نوع (الافتنان) أصعب مسلكاً من الجمع بين النسيب والحماسة لشدة التناقض بينهما »[٣] .

نلاحظ فى هذه الأبيات الأخيرة أن الشاعر لايكاد يشرع فى مديح الأفضل حتى يعاود الحنين إلى أيام أبى الفداء حبيبه الأول . وسرعان ما ينقلب مديحه رثاء وذكرى للملك الراحل . هكذا يمضى الشاعر بين ماض وحاضر . ولايكاد يدنو من نهاية القصيدة حتى يأخذ بتذكيره بماضيه لدى أبيه ومدائحه فيه ، ولا نعلم لم يذكره بكل ذلك ؟ وهل نسى الأفضل شاعر أبيه ومطوقه الساجع ؟ وإلا بم نفسر هذا الإلحاح الشديد ؟ .

أيا ملكًا قد أنجدَ الناسَ عزمُهُ فأنجدَ مدحُ الناسِ فيهِ وأتهما
سبقتُ لكَ المدّاحَ قِدْمًا وبادرتْ يدا كَلِمى فاستلزمتْ منكَ ملزمَا
ليالىَ أنشى فى أبيكَ مدائحًا وفيكَ فأروى مسنَد الفضل عنكمَا
وأغدو بأنواعِ الجميل مطوقًا فأسجعُ فى أوصافِهِ مترنِّمَا
وأستوضحُ العلياء فيكَ فِراسةً بملكِكَ لا أعطى عليهَا منجِّمَا[٤]

بدأت العلاقة بين الأفضل وابن نباتة على أتم ما يكون . وكانت — فى

(١) ذر : طلع ، والشارق : الشمس حين تشرق ، وقد يطلق على غير الشمس . وقولنا : ماذر شارق ، أى ما طلع .
(٢) الديوان ص ٤٣٠ .
(٣) خزانة الأدب ص ٧٧ .
(٤) الديوان ص ٤٣٠ .

الحقيقة ـ استمراراً لماضى الشاعر وحاضره ، حتى إن النعمى كانت تصل إليه، دون أن يسعى فى طلبها :

يا مليكًا سقَى نداهُ نباتًا . زاكيًا زرعُ حمدِهِ فى الزروعِ
وَصَلَتْنى النعْمَى ولمْ تَسْرِ عِيسِى[1] بفلاةٍ ولم تُشَدَّ نُسوعى[2]
كرمًا منك سوف تتلو التواريـ خُ ثناهُ على رؤوسِ الجميعِ[3]

استمرت حياة الشاعر فى بدء حكم الأفضل على خير ما يرام ، وما زالت شهرة الشاعر صاعدة فى طريق المجد والخلود . وكان الناس يدلفون إليه من كل حدب وصوب ، يطلبون منه برّ الإجازة لأنه أمير الشعراء وشاعر المشرق . بدأ الشيب يتقدم نحوه بخطاه ، وكأنما كان موت أبى الفداء نهاية شباب نفسه وإيذاناً بانتهاء سعادته ، لأن الأفضل ، وإن أجرى عليه رزقه ، إلا أنه لم يكن ليشعر بالطمأنينة التى شعر بها فى حياة أبيه . فلم يكن شاعره ، بل كان صفيه وخليله . وأنى له مثل ذلك فى حياة هذا المليك الشاب ؟ ها هو ذا المشيب قد وخط فوديه ، فأخذ يتحدث عنه فى قصائده التى نظمها فى هذه المرحلة . فلنستمع إليه ينشد الأفضل ، وهو يتحسر على أيام شبيبته :

سقيًا لأوقات الشبيبةِ إنَّها أوفَى لمطَّلب السرور وأوفقُ
ما سرّنى أنَّ الكميتَ تحثُّها نحوى السقاةُ وأنَّ فوْدى أبلقُ
عنَّى بكأْسِكَ يا نديمُ فإنَّ لى جفنًا مدامعُه أرَقُّ وأروقُ
زالَ الصِّبا ونـأَى الحبيبُ فعادنى « أرَقٌ على أرقٍ ومِثْلى يـأْرقُ[4] »[5]

---

(١) عيسى : جمع أعيس وعيساء ، وهى الإبل البيض التى يخالط بياضها سواد خفيف أو شقرة ، وقيل هى كرائم الأبل .

(٢) نسوع : جمع نسع ، وهو سير أو حبل عريض تشدّ به الرحال .

(٣) الديوان ص ٢٩٧ .

(٤) اقتبس الشاعر الشطر الأول من مطلع قصيدة للمتنبى ، وتمامه قوله : « وجوى يزيد وعبرة تترقرق » (ديوان المتنبى ج ٢ ص ٣٣٢) .

(٥) الديوان ص ٣٣٩ .

أترى هل هذا الحبيب هو الملك المؤيد الذى شاطره أيام الشبيبة وأوقاتها ؟ إنه لا يستسيغ الكميت التى تحثها نحوه السقاة ، ويطلب من نديمه أن يبعد عنه كؤوسها ، فى مدامعه ما يغنيه عنها ، بل هى أرق منها وأروق . ماذا يفعل بها بعد أن ولى الحبيب وولت معه أيام الشباب ؟ لكنه لايلبث بعد هذا حتى ينتقل يمدح الأفضل :

نَشَأَ النوالُ الأَفضلىُّ فلم نَسَلْ ... فى الأُفق هلْ نشأَ الغمامُ المغْدقُ؟
إن كانَ فى الكرماءِ رسْلُ سماحة ... فمحمدٌ منها الأَخيرُ الأَسبقُ
يا أَيها الملكُ المكمَّلُ فضلُهُ ... وُقِّيتَ من حَدَقٍ إليكَ تُحدِّقُ
أَذكَرْتَنَا زمنَ المؤيّدِ لا غـدتْ ... مثوَاهُ باكيةُ الغمام تَشهَّقُ
حتى تجرَّ بهِ ذيولَ حديقةٍ ... أَكمامُهَا بيدِ النسيمِ تَفتَّقُ
مِنْ عُشِّ بيتِك قدْ درجْتُ وطارَبى ... فى الخافقين جناحُ ذكر يَخْفُقُ
وبكمْ علمتُ من القريضِ صناعةً ... ماكنتُ ـ لولاكمْ ـ بها أَتعلَّقُ[1]

تصور هذه الأبيات حياة ابن نباتة فى الأيام الأولى من ملك الأفضل ويتحدث لنا فيها عن رسول الكرماء محمد ، ويتذكر أيام المؤيد كعادته ، ويدعو له بالسقيا ، ثم ليحدثنا عن البيت الأيوبى الذى رفع شأنه ، وأشاع بالخافقين ذكره ، ولولا هذا البيت الأيوبى لبقى مغموراً ، ولكنه أصبح بفضلهم ذائع الصيت سائر الذكر ما بين الشرق والغرب ، ويؤيد هذا ما ذهبت إليه من أنه شاعر المشرق فى عصره ، ولم نسمع من قبل بمثل هذا اللقب لشاعر من الشعراء .

---

(١) الديوان ص ٣٣٩ و ٣٤٠ .

٢

مع الملك الزاهد الأفضل

تزهد فجاءة الملك الأفضل[١]، ولا نعرف سبب هذا الزهد ، وهو في ريعان الشباب ، ولعله من الغريب جداً أن يسلك هذا السبيل ، وقد عرفنا عنه في أيام صباه ، أنه كان مولعاً بالصيد ، وقد صحبه شاعره في كثير من الأحيان ، وخلد في أرجوزته المشهورة « مصايد الشوارد » أجمل رحلة صيد يقوم بها ملك .

نعجب مع الشاعر بهذا الزهد كل العجب ، ولعل الثقافة الدينية التي أخذه بها أبوه منذ صغره كانت من العوامل التي أدت إلى ذلك . يضاف إليها انتشار موجة التصوف في مصر والشام ، وسبق لنا أن استعرضنا المذاهب الصوفية وعددنا فرقها في العالم الإسلامي . ولعل طابع التدين الذي عرفت به مدينة حماة ، وكثرة المتصوفة فيها كانا من العوامل التي أدت بالملك الشاب إلى الانصراف لحياة الزهد والتقشف .

مهما يكن من أمر ، ومهما كانت الدواعي ، فقد بدأ الشاعر يعاني انصراف مليكه الزاهد عنه . وانتشر أمره بين الناس ، فصوره لنا خير تصوير :

ما أرى الدهرُ غيَّرنا زُهْدَ الأفـ ... ضل والحالُ مُمكنُ المطلوب
مَلِكٌ في حِمَى الشبيبةِ والملـ ... ـك لهُ مِنْ دنياهُ زادُ الغريب
دبّرَ المُلكَ بالتُّقَى فكساهُ اللَّـ ... ـهُ فيه ثوبَ المرجَّى المهيب
بينَ سَجَّادةٍ وبين كتابٍ ... وسواهُ ما بينَ كأسٍ وكوب
ينشرُ العدلَ أو يبثُّ العطايا ... فهوَ زاكي الترغيب والترهيب

---

(١) تاريخ ابن الوردي جـ ٢ ص ٢٣٣ .

ولهُ فوقَ أدهمِ الليل تسرى دعواتٌ خفيفةُ المركوب
جلَّ مَنْ صيّرَ التقَى فيه خُلْقًا قبلَ خَلْقِ التدريجِ والتدريبِ[١]

أشعر من خلال هذه الأبيات أن الشاعر يعجب من زهد الأفضل ، وهو فى غلواء الشبيبة ، وفى حمى الملك . وليس له من دنياه غير زاد يسير ، وقد زاده الله هيبة ، فدبر مقاليد الملك . وقام على شئون الناس فى نهاره . وعكف على صلواته يتهجد فى الليل . يدعو ربه بقلب خاشع . فطر على الإيمان والتقوى . لعل نفوسنا تود الاستزادة من وصف ليل المليك الزاهد بعد أن أغنى الناس وهجع الورى :

الملكُ العابدُ نامَ الوَرَى بعدلِهِ وهْو كثيرُ السُّهَادْ
ذو الجودِ فى عسرٍ ويسرٍ ومَنْ مثلُ ذوى التجريبِ فى كلِّ نادْ
والهيبَةُ العظمَى التى أَصلحتْ بذكرِهَا السائرِ أهلَ الفسادْ
مَنِ اتقى اللهَ اتقتْ بأسَهُ كواسُرُ[٢] الأُفقِ وغُلبُ[٣] الوهادْ
بينَ كتابٍ ومصلًّى إذا أمسى سواهُ بينَ كأْسٍ وشادْ
يا ملكًا ، أصبح فى الدين والـ دنيا سعيدَ الجدِّ والاجتهادْ
عش كسليمان على ملكه تعرض هذى «الصافنات الجياد[٤][٥]»

تصور لنا هذه الأبيات إيمانه وعدله وبأسه ، وقد أنطقه زهد مليكه حكمة زهده فى تقوى الله . ويخاطبه بعد هذا الوصف الرائع ، فيدعو له أن يعيش فى

---

(١) الديوان ص ٢٤ .

(٢) كواسر : جمع كاسر وهو العقاب ، أى منقض يكسر جناحيه أو يكسر ما يصيده كسراً ، والكواسر أيضاً تطلق على الطيور عموماً .

(٣) غلب : جمع أغلب ، وأسد أغلب أى غليظ الرقبة .

(٤) الصافنات : جمع الصافن ، أى الجواد الصافن ، وصفن الفرس قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة ، اقتبس الشاعر قوله تعالى : « إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد » سورة ص ٣٨ / ٣١ .

(٥) الديوان ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

ملكه ما عاش سليمان الحكيم . لم يقطع الملك نعماه عنه على الرغم مما هو فيه من زهد، بل واصله بالعطاء الجزل ، لكنه لم يكن يسمح له بالمثول بين يديه فى معظم الأحيان . استمرت حياة الشاعر فى مطلع هذه المرحلة ، وسارت سيرتها الأولى. فلا نستغرب ، إن رأيناه يضع نفسه فوق الحكيمين المتنبى وأبى العلاء بعد أن فضل نفسه فى المرحلة الفائتة على الحطيئة وجرير وأبى تمام :

أقامَ محمدٌ للفضلِ شرعًا مَحَا ما كانَ مِنْ شكٍّ ومَيْنِ
ورادَفَ حُسنُ خَلْقٍ حُسْنَ خُلْقٍ فلمْ يقنعْ بإحدى الحُسنينِ[1]
كذا فليبقَ فى أفقِ المعالى ووالدَهُ بقاء الفرقدينِ
أَصوغُ لهُ مدائحَ لم يصُغها على سيف العلا نجل الحسين
وأُطلق فيهِ ألفاظاً تسامتْ على ألفاظِ رَهْنِ المحبسينِ[2]

لم ينس ابن نباتة ذكر المؤيد فى معرض مديحه الأفضل ، وقد انتهز هذه المناسبة ، ففضل شعره على غيره من الشعراء بما فيهم نجل الحسين أحمد المتنبى ورهن المحبسين المعرى .

تمضى هذه الفترة الأولى من زهده ، والشاعر يرفل فيها بأجمل حلله . ولم يكد ينتهى زهده ، ويبدأ فترة الاستبداد ، حتى تتعقد الأمور ، وتتباين الأحوال . وهكذا بدأ الشاعر يتردى فى مهاوى الفقر والشقاء . ترك الأفضل — كما قلنا — زهده لأنه أثار من حوله أعداءه وأقرباءه الطامعين ، وقد تغير السلطان الناصر محمد عليه أيضاً ، فذكر صاحب الدرر : « أنه لم يزل مروّعاً فى مملكته ، تارة من جهة السلطان ، وتارة من جهة نائب الشام بسبب أقاربه ، حيث يشكون عليه ، وتارة من جهة العربان حيث يأخذون إقطاعاته » نتساءل : لم تغير السلطان عليه ؟ ولم يكيد له نائب الشام ؟ ولم يشكوه أقاربه الأيوبيون ؟ ولم بدأت العربان تهاجم أطراف مملكته وتأخذ منها إقطاعات ؟ :

---

(١) إحدى الحسنيين : أى إحدى الخصلتين .
(٢) الديوان ص ٤٩٠ ، ٤٩١ .

ذلك كله سببه زهده ، كما نعتقد . ولعل استبداده الذى أخذ به الناس — فيما بعد — كان نتيجة حتمية لما يحدث اليوم فى مملكة حماة .

رأى الشاعر أن من واجبه تنبيه سيده ، وعليه أن يسمعه تشنيع أعدائه عليه ، ويرد بدوره عليهم ما شنعوه . وأن الله رد ما أرادوه من كيد له :

كمْ لهُ عزمةٌ إلى أرضِ مصرٍ   بشَّرتْ عام وفدِها بخَصيبِ[1]
كم أشاعَ الأَعداءُ أمرًا فردَّ الـ   لّهُ ما شنَّعوا بلطفٍ عجيبِ[2]

ماذا أشاع عليه أعداؤه إذاً ؟ والجواب على ذلك أنه يعود إلى زهده واستبداده . تسوء الأمور فى المملكة ويحاول أعداؤه أن يوقعوا بينهما . وتقع الواقعة ، ويجفو الأفضل شاعر البيت الأيوبى ، ويفلح أعداؤه من ذوى الحن ، فيوغرون صدره ، ويحتلون مكان شاعره . وهكذا ولأول مرة يذر الجفاء قرنه بين الشاعر والبيت الأيوبى .. فلنسمعه يحدثنا عن الدهر :

كمْ يقصدُ الدهرُ إغضابى بقادحةٍ[3]
فى الحالِ لكنَّها فى الصبرِ ما قدحتْ[4]
إن عابَ رونَقَ ألفاظى ذوو إحَنٍ[5]
ففى السماءِ بدورٌ طالما نُبحتْ
دعِ الليالى إنى قد غفرتُ لها
بالأفضلِ الملكِ ما كانتْ قد اجترحتْ[6][7]

لكنه يصفح عما فعلته الليالى لأنه يريد ألا ينسى ماضيه ولأنه يريد أن يعيش على ذكرى ماضى المؤيد . ولعل الشاعر بدأ يسأم الحياة بعد موته . ولعله بدأ يشعر بآلام الغربة لأن الغريب معذب أبداً . ونراه لأول مرة يحن إلى

---

(١) التورية باسم ممدوحه الصاحب فخر الدين بن خصيب ، وباسم أمير مصر وصاحب خراجها الخصيب بن عبد الحميد العجمى المرادى ، وهو الذى قصده أبو نواس وخصه بخير مدائحه .

(٢) الديوان ص ٢٤ .

(٣) بقادحة : أى بنكبة قادحة : شديدة ، والقادحة فى الأصل الدودة التى تأكل السن والشجر .

(٤) قدحت : يقال قدح الشىء فى صدرى أى أثر .   (٥) إحن : جمع إحنة ، وهى الحقد .

(٦) اجترح الإثم ارتكبه .   (٧) الديوان ص ٩٧ ، ٩٨ .

أرضه الطاهرة التى أنبتت نباته وإلى النيل المبارك الذى سقاه أيام الشبيبة والصبا والذى قال فيه أول شعره، وإلى هذا الشباب الذى أذبلته الأيام ، ويأخذ بوصف حظه العاثر فى الحياة وصفاً يأخذ بمجامع الألباب :

ذكرتُ الشبابَ وأقمارَهُ جوانحَ للمّةِ الدّاجيهْ
وروضًا كأنَّ سِقاةَ المُدامِ تُباري سواقيَه الجاريهْ
تولّى الزمانُ بهذا وذَا فلم يَبقَ ساقٍ ولا ساقيهْ
وطوَّحَ بى الدهرُ فى غربةٍ صُليتُ بنيرانِها الحاميهْ
كأنِّىَ خارجَ خطٍّ استواءِ فمالىَ فى ظلِّهَا زاويهْ
طروسى ناشرةٌ فضلَهَا وبالجوع لى مهجةٌ طاويهْ
أضيعُ وقد ضاعَ من منطقى شذا ما بدا قبلُ فى الباديهْ
عَسَى كرمُ الأفضلِ المرتجَى يوقِّعُ فى قصَّتِى الشاكيهْ (١)

لم ينشد الشاعر مليكه هذه القصيدة التى اقتطفنا منها الأبيات السابقة . إنها حقاً قصته الشاكية بل إنها القصيدة الشاكية . ماذا حدث ياترى ؟ لقد أوقع الأعداء ما كانوا يريدونه منذ زمن طويل ، فقطع راتبه السنوى . وإلا ما هى قصته الشاكية ؟ إنها شكوى مريرة لم نسمعها قط من لسان الشاعر .

استبد الملك فى أحكامه كما يذكر المؤرخون لكننا لا نعرف لم أصبح الشاعر سيئ الحال على هذا الشكل ؟ نستمع إليه ينهى لنا قصيدته الشاكية ، ويهدد الملك بالذهاب إلى غيره :

سمِعْنا محاسنَ قومٍ ولا كمثلِ محاسنِه الباديهْ
مِن القومِ تُمحَى نجومُ السما وآثارُ سؤددهِمْ باقيهْ
رياضُ محامدِهِمْ غضَّةٌ وسحبُ عوارفِهِمْ (٢) هاميهْ (٣)

---

(١) الديوان ص ٥٦٣ .

(٢) عوارف : جمع عارفة ، وهى فاعلة بمعنى مفعولة أى العطية .

(٣) الديوان ص ٥٦٣ ، ٥٦٤ .

لقد سمع بوجود كثير من الناس أصحاب جود ومجد ، ولعل نفسه كانت تراوده وتدفع به إليهم لكنه لايستطيع أن ينفك عن هذا الماضي الأثير الذي قيده بهذا البيت الأيوبي ، ولا يلبث أن يتضرع ثانية لمليكه :

أأزكَى الوَرَى أسرةً برةً   وأسعدَهُم همةً عاليهْ
إليكَ بعثتُ وفودَ الرجا   ووجَّهْتُ هِمَّتِيَ القاصيهْ
وأمَّلتُ برَّكْ دونَ الورى   زمانَ يدِي عنهمُ نائيهْ
دَعانى سواكَ لعينِ النوالِ   «فقلتُ : على عينِكَ الرَّاقيهْ»[1]
وكانَ المؤيَّد ثم انقَضَى   فأيِّدْ مطالبِيَ العانيهْ
وخذْها عقيلةَ مدحٍ على   بنى الشِّعْر رتبتُها عاليهْ
يتيمةَ فكرِ امرئٍ يرتجى   كفالةَ أيَّامِهِ الماضيهْ[2]

تلك هي قصيدته الشاكية حتى نهايتها . طروسه ناشرة فضلها بين الناس . وشهرته سائرة في الخافقين . ومع ذلك يبقى ذا مهجة طاوية . سمع محاسن قوم آخرين دعوه للنوال نفسه ، لكنه على ما هو فيه من حرمان يحفظ الوفاء لأيام ملك قد انقضى . وهو يرجو في هذه القصة الشاكية تلبية مطالبه العانية وكفالة أيامه الماضية . وهل هذا بكثير على امرئ خلد البلاط الأيوبي معظم أيام عمره .

لم يترك الأفضل من مدائحه ، لكنه صار يفتش عن وظيفة تدر عليه بعض الرزق . كان يعود بين الفينة والفينة إلى ربوع ملكه الظالم . ولعله كان يشفق عليه . ويشفق على هذا البيت الأيوبي من أن يترك حماه تعبث به الأيام . كان يكتفي بالنصح . لكن الأمر قد استفحل خطره . وبلغ الأمر بالمليك أنه حبس أحد وجهاء حماة . وهو ابن قرناص بين حائطين . فمات بعد ذلك من قسوة التعذيب .

---

(١) ضمن الشاعر الشطر الثاني من بيت أشرف الأنصاري ، ونقله من الغزل إلى المدح ، وصدره قوله : « فقالت : يعيني هذا المقام » (ديوان شرف الدين الأنصاري ، ص ٥٣٠) .
(٢) الديوان ص ٥٦٤ .

ازدادت حال الشاعر سوءاً على سوء ، وأنشب الجوع فيه أنيابه ، ومرضت جاريته العجفاء شَهْدة ، فأصيبت بالسل ، وأخذت تعانى آلام الجوع والمرض وقد صور ابن نباتة هذه الحال قائلا :

قفْ ببابِ الملِك الأفضلِ يا ... طرمى المائلَ واشرحْ شجنِى
سيِّدى ، بعد نداك المرتجَى ... لا تسلْ عن حالى الممتحنِ
أنا والجاريةُ العجفاءُ[1] فى ... حال جوعٍ مُخْرِسٍ للألسنِ
قد عَرانا مِن طَوانا زمنٌ ... ما عَهِدْنا مثلَه من زمنِ
ولقدْ تشكو فما أفهمُهَا ... ولقدْ أشكو فما تفهمنى
غير أنِّى بالجَوَى أعرفُهَا ... وهى أيضًا بالجَوَى تعرفُنى[2]

هذه الأبيات غنية عن كل قول وبيان ، إذ يصرح فيها الشاعر بما لايدع مجالاً للشك بسوء حاله . يسأله باستجداء أن يرحم حاله وحال جاريته العجفاء .

عاوده الحنين ، وهو على هذه الحال السيئة إلى وطنه الحبيب ، إلى أرض النيل الخالد ، بعد أن طوح به الدهر فى غربة . آن لهذا المبعد أن يؤوب ، ولهذا الأديب الغريب أن يعود ، لأن الغريب معذب أبداً . هاهو ذا يتشوق إلى مصر وأخبارها ، فيتحدث إلى الأنسام ، ويسألها عن أخبارها :

خلِّ يا دمعُ مقلتى فى الدّجى إنَّ ... لها «فى النهار سبحًا طويلا»[3]
وأعدْ يا نسيمُ أخبارَ مصر ... رُبما طارح العليل عليلا
أنتَ لا شكّ من صَبَا أرضِ مصرٍ ... فلهذا أرَى عليكَ قَبولا[4]

---

(١) فى الأصل القحفاء ، وهى مصحفة من العجفاء ، أى المهزولة الضعيفة ، ولعل ذلك من تصحيف الناسخ أو جامع الديوان .
(٢) الديوان ص ٤٩١ .
(٣) اقتبس الشاعر قوله تعالى : « إن لك فى النهار سبحاً طويلا » (سورة المزمل ٧٣/٧) .
(٤) الديوان ص ٥٥١ .

لم نستمع من الشاعر قصيدة فيها مثل هذه النفحة المصرية لأن المؤيد قد أنساه من قبل مصره ونيله . وكأنما لذ للشاعر أن يتغنى بميم مصر وصادها ورائها. أما الميم فنى هذا النسيم ، وأما الصاد فنى هذا الصبا . وأما الراء فنى أرضها وأخبارها . يضاف إلى ذلك تكرار لفظ مصر مرتين فى بيتين متتاليين .

تغيرت الأحوال أكثر من ذى قبل ، وساءت أيامه ولياليه . وكان زهد الأفضل شؤماً عليه ، بينما كان المشيب قد لوح عارضيه . وكان الشوق لمصره يتأجج فى صدره. ومع كل ذلك فلم يهجر نهائيًّا عرين سيده الراحل أبى الفداء حتى تغيرت الأحوال وانقرض ملك الأيوبيين من حماة القاهرة .

عزل الأفضل وموته

يفلح خصوم الأفضل . ويوقعون بينه وبين نائب الشام بعد أن تغيرت سيرته . أشار ابن الوردى إلى ذلك فى تاريخه قائلا : « تغيرت سيرة الأفضل وما كان فيه من التزهد قبل عزله »[1]، وذكر المؤرخ المذكور قصة حبسه ابن قرناص وقطع أشجار بستانه بعد ذلك وذكر أنه لم يفلح بعد ذلك .

عزل الأشرف كجك الملك الأفضل عن ملكه فى حماة ونقله إلى دمشق أميراً ، وأناب مكانه أحد مماليك أبيه « طقزدمّر »[2] ، وزال بذلك ملك الأيوبيين عن مملكة حماة وعادت كغيرها من بلاد الشام نيابة .

لم يتخلَّ الشاعر عن مليكه الزاهد المعزول، ذلك أن ماضيه مرتبط ارتباطاً أدبيًّا بهذا الإرث الأيوبى الباقى بعد زوال مملكة حماة وعودتها نيابة كسائر عواصم الشام . وإنما كان يتوجه إليه وهو فى منفاه فى دمشق مادحاً ، ويدعو نظّام المحامد أن ييمّموا مقامه ومغناه :

أقولُ لنظّامِ المحامدِ يمّموا مقامَ ابن شادٍ فى دمشقَ ومغناهُ
معالِى المقامِ الأفضلىّ مقيمةٌ وأمداحُه سيّارةٌ وعطاياهُ

---

(١) تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٣٣ .

(٢) الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٣٨ ، وتاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٣٣٣ .

لَئِنْ نَزَلتْ عن بلدةٍ يَدُ ملكِه فما نَزَلَتْ مِنْ بلدةِ الأُفق عُلْياه[١]

وقد رثى ابن نباتة آخر الملك الأيوبيين فى حماة بقصيدة هى — فى الحقيقة — رثاء للأيوبيين عامة منها إلى رثاء الملك الأفضل :

حَيَا المُزْنِ أسعدنى على فقدِ سادةٍ بدمعٍ كجدواهمْ على الناسِ طافحِ
أبعدَ بنى شادٍ وقد سكنوا الثَّرَى قريضٌ لشادٍ أو سرورٌ لفارحِ
أبعد ملوكِ العلم والبأسِ والنَّدى تُشِبُّ العُلا نارَ القِرَى والقرائحِ
تلا فقدَ إسماعيلَ فقدُ محمدٍ فيا للأَسَى من فادحٍ بعدَ فادحِ
وزالا فما إنسانُ عينى[٢] بممسكٍ بكاءً ولا إنسانُ قولٍ بكادحِ[٣]
كأَنْ لمْ يقمْ بالمكرماتِ مطوّقٌ لدى البابِ يشدو بالثَّنَا شدو صادح

ولاينسى الشاعر تصوير النعش العائد ، ولعله كان فى هذه الفترة بحماة :

بروحى ديارُ الفضلِ صوَّحَ روضُها[٤] كأَنْ لمْ يُجبْ فيها المنى صوت صائح
بروحى غريبُ الدارِ والنعشُ عائدٌ إلى أرضِه الثكلى غريبَ النوائحِ
بروحى نظيرُ الغصن فى دوحةِ العُلا رماهُ فأَوداهُ الزمانُ ببارح[٥]

ولعل الشاعر وهو يصور لنا النعش العائد يتذكر قصته ، وقد فصلها لنا ابن الوردى فذكر أنه لما مرضت زوج الأفضل وهو فى دمشق وأشرفت على الهلاك ، عمل لها تابوتاً لحملها به إلى حماة ودفنها عند أقاربها . لكن المنية عاجلته قبلها ، فماتت هى فى النهار نفسه حزناً عليه ، فوضعته أمه فى التابوت نفسه الذى عمله لها ، وتوجهت به إلى حماة ، ودفنته هناك فى تربة أبيه .

---

(١) الديوان ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ .
(٢) إنسان العين : سوادها ناظرها ، وإنسان السيف والسهم : حدهما .
(٣) كدح الجلد : خدشه .
(٤) صوح الروض : تم يبسه وجفافه .
(٥) الديوان ص ٩٩ .

وأشار الشاعر فى معرض تورياته إلى هذه القصة الطريفة فأنشد قائلا :

تغرّب عن مغنى حماةَ مليكُها　　وأودى بهِ منْ بعدِ ذاكَ مماتُه
وما ماتَ حتى ماتَ بعضُ نسائِه　　بهمٍّ وكادتْ أنْ تموتَ حماتُه[١]

هكذا زال آخر ملك باق للأيوبيين فى عهد حكم سلاطين المماليك ، وقد نقل جثمان الملك المعزول إلى حماة ، فخرج طقزدمر لاستقبال الملك الراحل ، وحلف بعد أن شيعه أنه ما تولى الملك بعده إلا رجاء أن يرده إلى الأفضل فيما بعد مكافأة لإحسان أبيه المؤيد أبى الفداء[٢] .

٣

مع الوزير أمين الدين القبطى

تبدأ صلة ابن نباتة بالوزير أمين الدين عبد الله عندما ولى نظر الدواوين بدمشق بعد عام واحد[٣] من ملك الأفضل بحماة ، ونعتقد أن هذه العلاقة توطدت بعد أن تزهد الأفضل ، وساءت العلاقة بينهما . ولعل الوزير الأمينى هو الذى أشار إليه ابن نباتة فى إحدى مدحه بأنه دعاه للنوال عينه الذى يجريه عليه الأفضل جرياً على سنة أبيه .

نقرر فى هذا المجال أن العلاقة ازدادت متانة بين الوزير والشاعر ، وأنها كانت أوثق من علاقته بالأفضل وأجدى عليه نفعاً . ترك الشاعر حماة كما ذكرنا ، والتحق بالوزير الذى كان يصحبه معه فى حله وترحاله . ولقد

---

(١) تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٣٣٣ ، والدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٨٨ والديوان ص ٨١ .

(٢) تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٣٣٣ ، والدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٨٨ .

(٣) أمين الدين عبد الله بن تاج الرئاسة القبطى الوزير ابن أخت السديد الشاعر . أسلم على يد بيبرس الجاشنكير ، وتولى الوزارة ثلاث مرات فى القاهرة ، وطلب بعد ذلك إعفاءه ، لكنه ما لبث أن تولى نظر الدواوين بدمشق سنة ٧٣٣ هـ ، وقد مات خنقاً بعد نكبة تنكز سنة ٧٤١ هـ . الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، وتاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٣٢٩ .

بلغت المحبة بينهما درجة كبيرة ، حتى إنه يروى لنا أن الوزير حزن كثيراً حينما سمع بموت ابنه عبد الرحيم ، وأراد أن يخفف عنه لوعة حزنه ، فاقترح عليه أن يصحبه للقدس الشريف ، وقد صحبه فعلا ، فوصف لنا خلال هذه الرحلة شدة حزنه على فلذة كبده ، وذكر أن للوزير فضلا كبيراً عليه لتخفيف آلامه .

أورد ابن حجة هذه الرسالة فى كتابه « ثمرات الأوراق» وذكر لنا أن اسمها « حظيرة الأنس إلى حضرة القدس » وقد سجل لنا فى هذه الرحلة الوزيرية زمنها ، فذكر أنها كانت سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، وتحدث لنا فيها بالتفصيل عن كل ما يراه المسافر بين دمشق والقدس . ويهمنا من هذه الرسالة ما يصور بدقة حياته فى هذه الفترة ، فنقتطف لبيان ذلك بعض المقاطع من هذه الرسالة الهامة : « فلما عزم بدمشق المحروسة على زيارة القدس الشريف أطلع رأيه الشريف على ما فى خاطره ، وأمرنى بالمسير فى ظل ركابه ، فسرّ على الحقيقة سائرى ، وكاشف ولاينكر الكشف لمن كثرت زواياه فى البلاد ، ونظر لحالى ولاينكر النظر فى الأحوال لسيد الوزراء والزهاد ، وكان له فى استصحابى مقصد ، تقبل الله عمله الصالح ومتجره الرابح ، وذلك أنى كنت لابساً ثياب الحزن على ولدى ، مقيماً بين المقابر إقامة تفتّ حبة قلبى على قطعة كبدى ، ساقياً روض الحزن بغمائم الجفون ، باكياً على ديمار وجه عاجلته الأيام بصروف المنون . أطلب قلبى فى التراب وأنشده ، وأطارح صوت الصدى فينشدنى وأنشده :

يا لهفَ قلبى على عبدِ الرّحيمِ ويا ... شوقى إليه ويا شَجْوى ويا دائى
فى شهرِ كانونَ وافاهُ الحمامُ لقدْ ... أحرقتَ بالنارِ يا كانونُ[1] أحشائى»[2]

توطدت الصداقة بين الوزير والشاعر بعد هذه الرحلة القدسية ، ولعله كان يرجو أن يكون كعبة شعره المقصودة بعد أن افتقد الملك المؤيد ، ويئس من

---

(١) الكانون : هو المصطلى ، وقد روّى الشاعر بهذه الكلمة .
(٢) الديوان ص ١٨ ، وثمرات الأوراق ص ١٣٩ .

جدوى ابنه الأفضل . ولم تمض فترة حتى قرره الوزير الأمينى أن يكون كل سنة ناظر القمامة بالقدس أيام زيارة النصارى . فكان يتوجه إليها ، ويباشر عمله ، ويعود بعدها إلى دمشق[١] . يتحدث الشاعر عن هذه الوظيفة ، وقد قامت بسببها قيامة قوم ولاتفارقه روحه المصرية المرحة ، وهو يصف لنا مشاهد القدس :

مشاهدَ القُدسِ حيّا ... حِمَاكِ صوبُ الغمامهْ
حتى أرانىَ من مصـ ... ـرٍ قد فتحتُ «قُمامهْ»[٢]
قامتْ قيامةُ قومٍ ... رأَوا لقدرى علامهْ
وظيفةٌ قيلَ ما ذى ؟ ... فقلتُ قولَ السلامهْ :
«قيامةٌ»[٣] عندَ قومٍ ... وعندَ قومٍ قيامهْ[٤]

باشر الشاعر عمله . فكان يتردد كل عام إلى القدس ، ليجمع متحصل كنيسة القيامة من زوارها النصارى . وكان الوزير الأمينى يبعث إليه أضحية . وهو هناك بمناسبة عيد الأضحى أو غيره :

أمولانا الوزيرَ ، تهنَّ عيـدًا ... سعيدًا وابق ذا عـزٍّ وعزمٍ

---

(١) المنهل الصافى (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤ .

(٢) قمامة : ذكر ياقوت أنها أحسن كنيسة بالبيت المقدس (معجم البلدان ج ٤ ص ٣٩٦) ، وذكر صاحب القاموس المحيط أن قمامة امرأة نصرانية بنت ديراً بالقدس فسمى باسمها ، والمعروف أن اسمها هو هيلانة وهى أم قسطنطين الملك ، ولعل صاحب تاج العروس شارح القاموس المحيط أدرك هذا التناقض فى ذكر بانية كنيسة القيامة فقال : « والصحيح أنه سمى باسم مايلقى من قمامة البيت ، وذلك أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لما فتح بيت المقدس رأى المسجد الأقصى مهجوراً فأمر بكنسه وتنظيفه وإخراج قمامته وطرحها فى هذا الدير فسمى به لذلك . . . وقد رأيت هذا الدير الذى ببيت المقدس ، وقد يعظمه النصارى على اختلاف مللهم كثيراً ماعدا طائفة الإفرنج » (تاج العروس ج ٩ ص ٣٣) .

(٣) القيامة : يوم النشور ! إذ يقوم فيه الخلق بين يدى الحى القيوم ، قيل أصله مصدر قام الخلق من قبورهم قيامة ، وقيل هو تعريب (قيمثه) وهو فى السريانية بهذا المعنى ، ويوم القيامة هو يوم الجمعة ومنه قول كعب : « أتكلم رجلا يوم القيامة ؟ » .

(٤) الديوان ص ٤٧٢ .

ولا زالتْ هباتُك بالضحايا وبالأشغــالِ قائمةً برســمى
تبلغُنِى «قمامة» كلَّ يومٍ وتجعلُ فيهِ بيتِىَ «بيتَ لحمٍ»(١)

ظن الشاعر أن الدهر قد أمّنه من جديد ، فشرع ينظم فيه المدائح ، وهاهى ذى أولى مِـدَحِـهِ ، فلنسمعه يتحدث عن الصاحب الوزير :

وزيرٌ لهُ فى طالبِ الفضل راحةٌ ولكنَّها قد أتعبتْها الفواضلُ(٢)
لقد قامَ عبدُ اللهِ يدعو إلى النَّدى فأهوتْ شعوبٌ للرجا وقبائلُ
تردَّدَ فى أفقِ الوزارة شخصُهُ كما ردّدتْ شهبَ السماءِ المنازلُ
سلوا عنه مصرًا والشآمَ ففيهما شواهدُ مِنْ آثارِهِ ودلائلُ
ألم يُرْضِ أرضَ الواديَيْنِ بحُفَّلٍ(٣) من السحبِ إلَّا أنهن أنامــلُ
كلا وادِيَيْهَــا عاشقٌ لنزولِهِ على أنَّهُ فى بلدةِ الأفقِ نازلُ(٤)

تعبر هذه الأبيات خير تعبير عن الوحدة بين الواديين مصر والشآم ، لايفرق بينهما ، وهما يُسقيان بحفّل من السحب، تهطل بالخير العميم عليهما ، وتجرر أذيالها على غيرهما من الأقطار العربية الأخرى. لقد كان ابن نباتة رسولا من رسلها ، فهو لا يترك مناسبة دون أن يشيد بها أو يشير إليها فى معرض مدحه أعيان الناس فى مصر والشام .

لم يطل عهد الشاعر بالصاحب الأمين ، إذ يقبض على نائب الشام تنكز ، ويخنق فى الإسكندرية بأمر السلطان الناصر محمد ، وعوقب أمين الملك عبد الله ، واستصفى ماله ، وأمسك هو وولده تاج الدين ناظر الدولة . وكريم الدين مستوفى الصحبة ، وبسط عليهم العذاب فماتوا جميعاً خنقاً(٥).

(١) الديوان ص ٤٦٥ .
(٢) الفواضل : جمع الفاضلة ، وهى الهبة والنعمة .
(٣) حفّل : جمع حافل . يقال : ضرع حافل أى ممتلئ لبناً ، وحفلت السماء اشتد مطرها .
(٤) الديوان ص ٣٩٦ .
(٥) الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، وتاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٣٢٩ .

لم نعثر على رثاء الشاعر لصاحبه الوزير الأمينى عبد الله ، ولعل الخوف منعه من بكائه بعد موته ، ونظن أنه عزل عن هذه الوظيفة التى لم تكن تعجب كثيراً صاحبها ، ولكنها خير له من الفقر .

٤

مع محيي الدين بن فضل الله

لم يكن محيي الدين[١] أول هذه الأسرة العدوية العمرية التى مدحها الشاعر . وسبق لنا أن ذكرنا علاقته وهو بمصر بأخويه بدر الدين وشرف الدين . ولقد تعمدنا الوقوف عند هذا الرئيس الكبير الذى كتب السر بالشام أولا ، وبالديار المصرية ثانياً خلفاً لعلاء الدين بن الأثير لأنه كان والد الأخوين المشهورين شهاب الدين بن فضل الله كاتب السر بدمشق ، وعلاء الدين بن فضل الله كاتب السر بالقاهرة خلفاً لأبيه . وهما أشهر الممدوحين الذين عرفهم فى أحلك مراحل حياته ، وكانا له خير عون ونصير فى مصر والشام .

قضى محيي الدين الشطر الأعظم من حياته متنقلا فى كتابة السر بين دمشق والقاهرة . وقد استدعاه الناصر محمد أخيراً بعد أن فلج ابن الأثير ، فناب منابه ، وقد عظمت منزلته لدى السلطان ، فأمر أن يُكتب له توقيع يستمر بموجبه هو وأولاده على صحابة ديوان الإنشاء بالممالك الإسلامية كلها ، وأن يكون جميع المباشرين لها نوابه .

---

(١) محيي الدين أبو المعالى يحيى بن فضل الله بن عمر العدوى . ولد بالكرك سنة ٦٤٥ هـ ، وكتب الإنشاء بدمشق سنة ٦٦١ هـ . واستحضره المنصور لاجين لما ضعف أخوه شرف الدين سنة ٦٩٧ هـ وعاد بعدها لدمشق . عطل من العمل عند ما نقل أخوه شرف الدين من القاهرة إلى كتابة السر بدمشق بعد أن تولى مكانه علاء الدين ابن الأثير إلى أن أفرج عنه ، فاستدعى إلى القاهرة سنة ٧٢٩ هـ وعظمت منزلته لدى الناصر محمد ، فبقى فى منصبه حتى وفاته سنة ٧٣٨ هـ ، وكان عوناً له بعد أن أطعن فى السن ابناه شرف الدين وعلاء الدين . الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٤٤٤ ، والبداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٨٣ ، وبدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٥ ، وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٢ ، وتاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢٩٠ .

عرف ابن نباتة حتماً ممدوحه محيي الدين هذا خلال عهد أبي الفداء، لكننا لم نعثر له على مدائح قيلت فيه آنذاك ، ولعل الشاعر كان في أوج مجده ، ورأى أن يقصر مدحه على ملكه المؤيد وإخوانه الذين يتجهون إليه بأفئدتهم بعد أن أصبح شاعر المشرق بلا منازع . لكن مجده بدأ يأفل بعد موت مؤيده ، وعاد يشكو في شعره خلال هذه المرحلة في عهد ابنه الأفضل الذي هجره وجفاه ، فانبرى يمدح من يعرف ومن لايعرف ليحصل على قوته الزهيد . ولعل محيي الدين كان أحد هؤلاء الممدوحين الذين مدحهم دون أن يلقاهم ، وذلك أن يبعث قصائده لهم ، وينتظر منهم الإثابة على ذلك ، أو ينتهز فرصة حضورهم إلى دمشق ، فيذهب إليهم ، ويقدم لهم هذه المدائح . عثرنا على قصيدتين في الديوان قالهما ابن نباتة فيه ، وقد ثبت لنا أنهما تجأران بالشكوى المريرة ، وهي صفة غالبة على قصائده في هذه المرحلة الأفضلية . يضاف إلى ذلك إشارته إلى الملك والسلطان ، وقد طبعت بعض معانى هذه القصيدة بطابع مصر والنيل ، إذ يؤكد لنا هذا الأمر أن الشاعر قال هاتين القصيدتين عندما كان محيي الدين كاتب سر السلطان في القاهرة خلال المرحلة المذكورة التي نتحدث فيها عن علاقة الشاعر بأعيان عصره .

أما القصيدة الأولى فقد وصف فيها شيبه . وهذا دلالة أخرى على أنه قالها في هذه المرحلة التي كثر فيها حديثه عن شيبه :

أَأَعشقُها والخدُّ يُشبهُ خدَّها　　　أَأَعشقُهَا والشيبُ ملتمعُ اللمْحِ ؟

وفيها يقول :

وقائلةٍ ما بالُ عزمكَ صابراً　　　على القدحِ في الدنيا على أثرِ القدحِ

فقلتُ رأيتُ السمْرَ أقومَ ما ترى　　　إذا صُبِرَتْ عند الثقافِ من اللفحِ

فقالتْ : دعِ التقليلَ عنكَ وقمْ إلى　　　نوافجِ[1] فضلِ الله في زمنِ الفَرْحِ

---

(١) نوافج : جمع نافجة ، وهي سحابة كثيرة المطر ، ويقال للإبل التي يرثها الرجل فتكثر بها إبله نافجة ، وكانت العرب تقول في الجاهلية للرجل إذا ولدت له بنت : « هنيئاً لك النافجة » أي المعظمة لمالك .

وبادرْ لمحيي الدينِ تلقَ شمائلًا مُدرَّبةً لم تدرِ ماهيئةُ الشّحّ[١]

تنطق هذه الأبيات بالشكوى . وهذا دليل آخر أيضاً على أنها قيلت فى المرحلة المذكورة ، يضاف إليها حديثه عن الملوك :

وكم جرّبتْ منكَ الملوكُ ميامنًا[٢] ونصحًا على فقدِ الميامِن والنصحِ[٣]

وأما القصيدة الثانية فهى أنطق بالشكوى وأكثر دلالة على أنها قيلت والممدوح فى مصر :

حامى حِمَى الملكِ والأقلامُ مشرعةٌ على المنى والمنايا حولَ واديهِ
لو أُلقيَتْ كعصَا مُوسَى على حجرٍ تفجّر الماءُ من أقصى نواحيهِ
جاءتْ بيحيى معاليهِ مبشرةً فصَدَّقتْ يدُهُ بُشْرَى معاليـــهِ
ذاكَ الذى يَسْتَمِدُّ النيلُ أنعمَهُ فما الأصابعُ إلَّا من أياديهِ
حَوَتْ كِنانةُ سهمًا من براعتِهِ لاتعرفُ اليُمْنَ إلَّاحينَ تحويهِ[٤]

يتحدث الشاعر عن محيي الدين، ويصفه لنا أنه حامى حمى ملكه بأقلامه المشرعة التى تبعث الخوف والرجاء ، ولو ألقيت على صخرة لتفجر الماء من أقصى نواحيها . ثم يتحدث عن المعالى التى جاءت بيحيى ، وكيف أن كرمه كان مصداقاً لما بشّرت به ، ويصف لنا كثرة عطائه وأن النيل يستمد منه الجود ، وما زيادة النيل أمام عطائه إلا أصابع معدودات من يده التى تفيض بالأيادى والنعم والبركات . وينتقل بعد هذا الوصف ليحدثنا عن سوء حاله ، ويعرض له من خلال ذلك ما يصبو إليه من وظيفة فى الديوان أو التوقيع :

إنْ لمْ تراعِ برأيِ منكَ مقصدَه يا بنَ السُّراةِ فقلْ لى : مَنْ تُراعيهِ ؟
فى نظرةٍ منكَ تأميلى ومفترجى ولفظةٍ منكَ تنويلى وتنويهى
أقول والدمعُ قد سارتْ ركائبُه إلى حِماك وقد طاتْ أمانيهِ :

---

(١) الديوان ص ١٠١ .

(٢) ميامن : جمع ميمنة ، وهى اليمن ، وقوله تعالى : « أولئك أصحاب الميمنة » أى أصحاب اليمن على أنفسهم .

(٣) الديوان ص ١٠٢ . (٤) الديوان ص ٥٦٤ ، ٥٦٥

هذا نُباتيٌّ لفظٍ يَشْتكى عطشًا لعلَّ أفقَكَ بالأنواءِ يسقيهِ
نعمْ وهذا مقالٌ دائرٌ فعسى يا منْ له قلمُ الإنشاءِ تُنشيهِ[1]

إنه بحق بحاجة إلى وظيفة لسوء حاله . ولأن شعره النباتى أخذ يذبل بعد أن امتنعت أنواء أبى الفداء عن الانسكاب والتهطال . ولا يلبث بعد ذلك أن يدعو ممدوحه دعوة ضارع ، لأن نظرة منه وكلمة من لسانه تنيله ما يشاء ، وفى البدء كانت الكلمة .

المرحلة الخامسة

٧٤٣هـ — ٧٦١هـ

١

فى ديوان التوقيع

لو صح أن ندعو كل مرحلة بما عرف فيها من أحداث أو ما عرض للشاعر من أمور لصح أن نسمى هذه المرحلة باسم مرحلة التوقيع . لقد سعى لينالها لكن سعيه باء بادئ الأمر بالإخفاق ؛ حتى قيض الله له أحد أعيان عصره ، وهو شهاب الدين بن فضل الله . فأسعفه ، وأدخله الديوان ليكتب التوقيع الذى حلم به منذ أمد طويل . يؤيد قولى هذا ما ذكره الصفدى : « وكان القاضى شهاب الدين بن فضل الله قد دخل به إلى الديوان بدمشق فى أوائل سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، وكان قد أقام مدة ، يتردد على الديوان ، ويكتب . ولم يكتب له توقيع ، فكان يتقاضى القاضى شهاب الدين فى ذلك كل قليل بمقاطيع مطبوعة ، وأبيات منها المحاسن مجموعة . من ذلك قوله : وكتبت له توقيعاً هذه نسخته : رسم بالأمر العالى لازال يزيد البلغاء جمالا ؛ ويفيد الفصحاء باختياره كفوا يخجل القمر كمالا ، أن يرتب المجلس السامى القضائى الجمالى فى كذا إنجازاً لوعد استحقاقه الذى أوجب له الصون والصولة ؛ وإبرازاً لما فى ضمير الزمان له من أن يرى له فى الجو جولة ؛ وإيجازاً لما أسهب نوهجه فى

(١) الديوان ص ٥٦٦ .

الحرمان والحنو الشهابى يرفرف حوله . وإحرازاً لأدبه الذى ما طلى بقلمه فم ديوان . ولا حلى بكلمه جيد دولة . لأنه الفاضل الذى يروض الطروس . ويصيب بسهام أقلامه الأغراض على أنها ما تنفذ فى القرطاس . ويترجل البرق لارتجاله الذى يقول المتروى : ما فى وقوفك ساعة من باس ، ويهز الأعطاف بإنشائه الذى كأنه زمن الصبا . والدهر سمح . والحبيب موات . ويبطر الأفهام عمام كلامه الحلو فيتحقق الناس أنه القطر النباتى ، ويذكر الزمن الفاضلى بآدابه التى أظلمت على ابن سناء الملك . وما عاش له ابن مماتى ، فليباشر ذلك مباشرة تصدق الأمل فى فضائله . وتحقق الظن فى كماله الذى تنزه الطرف فى خمائل خمائله . ويشهد أواخر أدبه لقديم بيته وأوائله . ولينمق الطروس بسطوره ، فإن حروفه آنق من تخاريج العذار . ومداده أليق من خيلان ليل فى خدود نهار . وألفاظه تروق لفظاً كما تروق الثغور العذاب عند التبسم والافتراز ، ومعانيه يشف نورها كما شف لجين الكأس عن ذهب العقار . فقد صادفت سحائب كلمه روابى يزكو غراس نباتها . ومواقع إنشائه أكباداً تتلظى ظمأ إلى برد فطرتها ، وجياد بلاغته مضماراً لايضيق مداه عن فسيح من تعاليق ما رآها الجاحظ فى حيوانه . وكم له من جملة دواوين . ولكنه جمال ديوانه . وليكتم ما يكتب فى قلبه . ويدفن ميت الأسرار فى ضريح جانحتيه إلى لقاء ربه . فإنها صناعة الكتمان رأس مالها . والترفع والانجماع عن الناس سر جمالها . والوصايا كثيرة . وتقوى الله تعالى ملاك ما يؤمر به . وتناط الوصايا الحسان بسببه . فلينسج منها على خير منوال . وليجر فيها على خير أسلوب . فإن من عدمها ماله من نوال . والخط الكريم أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى»[1] .

أوردت هذا التوقيع النباتى النادر بنصه الكامل لنطلع على أسلوبه . ونوضح من خلاله أمر دخوله ديوان التوقيع بدمشق بمساعدة صديقه شهاب الدين رئيس ديوان الإنشاء . يفهم من هذا النص أن ابن نباتة واظب على الديوان ، وكتب فيه التوقيع دون أن يصدر مرسوم بتعيينه ، ولقد تعذر إيصال معلومه النزر إليه ، فأنشد صاحبه الصفدى ، وكان كثيراً ما يجتمع إليه

---

(١) الوافى بالوفيات ص ٣٢٧ .

ويجلس معه عند شباك الكاملية فى الجامع الأموى :

كُنَّا من الشعر قدْ هَرَبْنَا لرتبةٍ تَقْتَضِى الإعادهْ
فما دخلْنا فى بابِ جاهٍ ولا خرجْنا عن الشحادهْ[1]

يفهم من النص السابق أيضاً أنه أرسل بصورة هذا التوقيع إلى شهاب الدين كى يوقعه له ، فتم له ما أراد ، وصدر قرار تعيينه سنة ٧٤٣هـ .

عزل شهاب الدين عن رياسة ديوان الإنشاء بأخيه بدر الدين الذى حلّ محله . أما ابن نباتة فقد استمر فى عمله بعد عزل صديقه ، لكنه لم يلبث إلا قليلا حتى عزل مثله بعد سنتين ، وقد أشار المقريزى فى سلوكه . فذكر أنه « كتب — فى شهر رمضان سنة ٧٤٥ هـ — بنقل ناصر الدين محمد من طرابلس إلى دمشق . واستقراره فى وظيفة الشد رفيقاً لابن مراحل ، وضبطا الجهات ضبطاً كبيراً ، وقطعا من موقعى دمشق نحو العشرين . قد استجدوا . منهم ابن الزملكانى . وابن غانم . وابن الشهاب محمود وأولاده . وجمال الدين بن نباتة المصرى »[2] .

يؤكد لنا أيضاً صرفه عن التوقيع فى ديوان الإنشاء فى دمشق قول الشاعر نفسه فى إحدى مقطعاته :

أيا بنَ نباتَة جـارَ الزمانُ وزِلْتَ وزالتْ قوى همّتِكْ
وقدْ كنتَ ذا خدمةٍ وانقضتْ فلا أوحَشَ اللهُ من خدمتِكْ[3]

يظهر أن جمال الدين عاد للتوقيع ثانية بعد عزله . وقد تأكد لى ذلك من خلال نص عثرت عليه فى تاريخ ابن الوردى عند حديثه عن السلطان أبى الحسن المرينى صاحب المغرب الذى كتب بخط يده ثلاثة مصاحف . ووقفها على الحرمين الشريفين وعلى حرم القدس . وجهز معها عشرة آلاف . واشترى بها أملاكاً بالشام ، ووقفت على القراء والخزنة للمصاحف المذكورة سنة ٧٤٨ هـ .

---

(١) الوافى بالوفيات ص ٣٢٧ . (٢) السلوك ج ٢ ص ٦٧١ .
(٣) الديوان ص ٨٠ .

يذكر ابن الوردى مانصه : « ووقفت على نسخة التوقيع بمسامحة الأوقاف المذكورة بمؤن وكلف وأحكار أنشأه صاحبنا الشيخ جمال الدين بن نباتة المصرى أحد الموقعين الآن بدمشق »[1] .

وقد افتتح هذا التوقيع بقوله : « الحمد لله الذى أرهف العزائم بالموحدين غرباً ، وأطلعهم بهممهم حتى فى مطالع الغرب شهباً ، وعرف بين قلوب المؤمنين حتى كان البعد قرباً ، وكان القلبان قلباً ، وأيد بولائه هذا البيت الناصرى ملوك الأرض وعبيد الحق سلماً وحرباً ، وعضد ببقائه كل ملك إذا نزل البر أنبته يوم الكفاح أسلا ويوم السماح عشباً ، وإذا ركب البحر لنهب الأعداء كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ، وإذا بعث هداياه المتنوعة كانت عراباً تصبح عرباً ، ورياضاً تسحب سحباً ، وإذا وقف أوقاف البر سمعت الآفاق من خط يده قرآناً عجباً ، واهتزت بذكراه عُجْباً .

ومنها : وذو الولاء قريب وإن نأت داره ، ودان بالمحبة وإن شطّ شط بحره ومزاره ، وهو بأخباره النيرة محبوب كالجنة قبل أن ترى ، موصوف كوصف المشاهد وإن حالت عن الاكتمال بطلعته أميال السرى ، ولما كان السلطان أبو الحسن ، سر الله ببقائه الإسلام والمسلمين ، وسره بما كتب من اسمه فى أصحاب اليمين ، وما أدراك ما أصحاب اليمين ، هو الذى مدّ اليمين بالسيف والقلم ، فكتب فى أصحابها ، وسطّر الخيمات الشريفة فنصر الله حزبه بما سطّر من أحزابها ، ومدّ الرمال أرشية ، فاشتقت من قلوب الأعداء قليباً والأقلام أروية ، فشفت ضعف البصائر ، وحسبك بالذكر الحكيم طبيباً .

ومنها : ثم وصلت خيمات شريفة ، كتبها بقلمه المجيد المجدى ، وخط سطورها بالعربى ، وطالما خط فى صفوف الأعداء بالهندى .

ومنها : وأمر بترتيب خزنة وقراء على مطالع أفقها ، ووقف أوقافها تجرى أقلام الحسنات فى إطلاقها وطلقها ، وحبس أملاكاً شامية ، تحدث بنعم الأملاك التى سرت من مغرب الشمس إلى مشرقها ، ورغب فى المسامحة على

---

(١) تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢٤٨ .

تلك الأملاك من أحكار ومؤونات وأوضاع ديوانية ، وضع بها خط المسامحة فى ديوان الحسنات المسطرات ، فأجيب على البعد داعيه ، وقوبل بالإسعاف والإسعاد وقفه ومساعيه .

وختم التوقيع بقوله : والله تعالى يمتع من وقف هذه الجهات بما سطّر له فى أكرم الصحائف . وينفع الجالس من ولاة الأمور فى تقريرها ويتقبل من الواقف »[١]

اوردت من هذا التوقيع ما اختاره ابن الوردى . وحبذا لو أورده كاملا ، ولكن مالا يدرك كله لايترك جله ، ولعلنا عرفنا طريقة ابن نباتة فى التوقيع ، وأدركنا مدى تمكنه من الأساليب الديوانية . ويدلنا هذا على أنه كان قطباً من أقطاب التوقيع . ولاسيما أنه عرف بطريقته الرمزية فى كتابة النثر التى هى فى الحقيقة تطور جديد للنثر الفنى العربى نحو التصنع والتصنيع .

لكننا نحب أن نشير إلى من كان سعى لإعادته إلى ديوان التوقيع بعد أن فصل عنه منذ ثلاث سنوات أو تزيد . نعتقد أن الذى سعى له فى هذه الفترة بعد عزله هو كاتب السر علاء الدين بن فضل الله أخو شهاب الدين ، وهذه الأسرة إلفه القديم منذ عهد بدر الدين إلى أبيهما محيي الدين . ولا بأس أن نورد الدليل على ما نذهب والبينة على ما ندّعى ، ويتجلى لنا هذا فى إحدى قصائده التى مدح بها علاء الدين حينما زار بلاد الشام بعد سنين الجدب :

أتيتَ الشامَ بعدَ سنينَ جَدْبٍ فكانَ العامُ حين أغثْتَ عامَهْ
وعُدْتَ عزيزَ مصرَ وكلُّ مصرٍ سعيدًا فى الترحّلِ والإقامهْ
وقالوا : سارَ قلبُك يومَ سارتْ ركائبُه فقلتُ : معَ السلامهْ
فنى دارِ البوارِ[٢] الآنَ شخصى وقلبى الآنَ فى دارِ المُقَامهْ
إليكَ أبا الخلائفِ من قريشٍ سؤالٌ سامَه أملى وحـامَهْ

(١) تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٢) البوار هو الهلاك ، دار البوادر أى دار الهلاك ، وأحلّوا دار البوار .

أذكّر جودَكَ الوعدَ المُبدَّى ... وقد أخمدْتَ منْ سغبى ضِرامَهْ
جعلتَ الجسمَ منى «بيتَ لحمٍ» ... وزدْتَ وظائفى أيضًا «قُمامَهْ»
وما أدرى أتوقيعى بمصرٍ ... وإلَّا بالشآم فلن أسامَهْ
إلى التوقيعِ قد طربَ استماعى ... وحارَ دقيقُ فكرِى فى العلامَهْ[١]

تكاد تنطق هذه الأبيات بمطاليب الشاعر من صديقه علاء الدين أقرب شخص للسلطان . وسيصبح هذا الممدوح الجديد كعبة الشاعر فى أيامه الأخيرة عندما ينتقل إلى مصر . والجدير بالذكر هنا أن علاء الدين أقره على وظيفته الأولى فى قمامة ، وهى عمل خاص يقوم به كل عام بالإضافة إلى عمله الرسمى فى التوقيع بدمشق . يصرح الشاعر هنا بأنه يطرب لهذه الوظيفة وأنه يتمناها لو كانت فى مصر ولكن إن تعذر الأمر فلن يرفضها ههنا فى دمشق وتم له ما راد .

لكن هذه الوظيفة لن تكفى حاجته ، لأننا نراه يسكن فى بيت كثرت فيه النمل ، وقد أشار إلى ذلك تاج الدين اليمنى قائلا [٢] :

مالى أرَى منزلَ المولى الأديبِ بهِ ... نملٌ يجمّعُ فى أرجائهِ زُمرَا
فقالَ : لا تعجبنْ مِنْ نملِ منزلِنَا ... فالنملُ منْ شأنها أنْ تتبع الشُعَرا

يبقى علينا بعد أن وضحنا حياته فى مرحلة التوقيع أن نعرض كعادتنا لممدوحيه الذين صرف إليهم اهتمامه فى هذا الوقت . وقد مدح لأول مرة فى حياته بعض سلاطين المماليك ، ولعل عمله الرسمى فى ديوان التوقيع يتطلب منه مجاملتهم ومدحهم ، نشير منهم إلى السلطان الكامل شعبان ، والسلطان المظفر حاجى ، والسلطان الناصر حسن .

---

(١) الديوان ص ٤٥١ ، ٤٥٢ .
(٢) أعيان العصر (مخطوط) ج ٣ ق ٢ ورقة ٢٦٨ .

٢

مع السلطان الكامل شعبان

عاصر ابن نباتة ستة عشر سلطاناً من سلاطين المماليك أولهم المنصور سيف الدين قلاوون وقد ولد فى أيامه ، وآخرهم الأشرف شعبان[١] وقد وافته منيته أيام حكمه . والغريب جداً أنه قاطع مدح السلاطين خلال المراحل الأربع الفائتة . أما فى هذه المرحلة وما بعدها فإنه لم يتعرض إلا لثلاثة منهم ، نتحدث عن اثنين فى هذه المرحلة ، ونترك الثالث للمرحلة الأخيرة .

لانعرف على الضبط سبب إحجامه عن مدحهم ، ولعل اضطراب الحياة السياسية فى بعض الأحيان وقصر مدة حكمهم جعلته يزهد فيهم ويصرف نظره عنهم .

قد نتساءل : ولم افتتح مدحه لهم بالكامل شعبان ؟ وجوابنا على ذلك أنه بعد أن افتقد أبا الفداء وابنه الأفضل أراد أن يجرب حظه لدى الطبقة الحاكمة التى كانت غاضبة عليه أو كان غاضباً عليها على ما نرجح . ولعل خوفه على وظيفته فى التوقيع وخشيته من العزل دفعاه لمدحهم بعد هذا الإحجام الطويل الذى استمر عشرات السنين . أشرنا خلال عرضنا للحياة السياسية إلى الكامل شعبان وذكرنا أن ابن نباتة هنأه عندما لبس شعار السلطنة سنة ٧٤٦هـ فأنشد هذين البيتين :

طلعةُ سلطانِنا تبدّتْ بكاملِ السعدِ فى الطلوعِ
واعْجَبْ لهاتيكَ كيفَ أبدتْ هِلال شَعبانَ فى الربيعِ[٢]

ولقد عثرنا فى الديوان على قصيدة بعث بها إلى السلطان الكامل ، وقد

---

(١) أبو المعالى ، زين الدين ، الأشرف شعبان بن حسين ، وقد تولى السلطنة بين سنتى ٧٦٤ هـ و ٧٧٨ هـ .

(٢) الديوان ص ٣٢٠ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ٧٣ ، ١٨٣ .

ثبت لدينا أنه قالها اعترافاً بجميله . ونظن أنه يتعلق بإعادته للتوقيع فى الشام بعد فصله عنه كما أسلفنا . ويقول فيها :

يابنَ الملوكِ الشائدينَ حِمَى الهدَى ... والرافعينَ قبابَه بعوامل[1]
والحاصدينَ عُداتَه بقَواضبٍ[2] ... صارَتْ لطولِ ضِرابِهَا كمَناجلِ
أيديهمُ فى الأرضِ نَبْعُ زُلالِهَا ... وَمَحَطُّ أرجلِهِمْ أمانُ زلازلِ
مَنْ مبلغُ الأهلينَ عنِّى أننى ... فى الشامِ فُزتُ بفوقِ ظَنِّ الآمِلِ
وأخذتُ مِنْ ريبِ الزمانِ أمانَهِ ... وَقَبَضْتُ حقَّ مآربى بالكاملِ
لا جَوْرَ فى دهرٍ وفيهِ ممدّحٌ ... وُشِحَتْ منابتُهُ بنَبْتِ العادلِ[3]

لم يطل حكم الكامل إذ لم يبق فيه غير سنة وشهرين ونصف ، وقد خنق بأمر أخيه المظفر حاجى سنة ٧٤٧ هـ . لم نعثر على قصيدة قالها فى مدح خليفته الكامل . ولم يصلنا غير بيتين من الشعر يذكر ابن نباتة فيهما أنه لم يصله شيء من السلطان المذكور المظفر حاجى . وهما :

يا إمامَ الوَرَى مضى نصفُ عامٍ ... لم أنلْ فيهِ مِنْ وصولكَ ربعُ
سَنَةٌ إنْ غَفَلْتَ عنِّى فيها ... كسرَتْنى . وكيفَ لا ، وهْىَ سبعُ[4]

أما الناصر حسن فله معه شأن آخر . ومعظم مدائحه قيلت خلال المرحلة الأخيرة من حياته . وسيكون الممدوح الرئيسى الذى نفتتح به المرحلة المذكورة . وكيف لا وهو الذى فرّج كربته . وأمر بإعادته إلى وطنه .

---

(١) عوامل : جمع عاملة ، وهى الرماح ، وعامل الرمح وعاملته صدره .
(٢) قواضب : جمع قاضب ، وهى السيوف القطّاعة .
(٣) الديوان ص ٣٩٨ .
(٤) الديوان ص ٣١٨ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ١٨٧ .

٣

مع شهاب الدين بن فضل الله

لسنا حديثي عهد بمدح سروات آل فضل الله، فقد سبق لنا أن عرضنا فى المرحلة الثانية لبدر الدين وشرف الدين ، كما وقفنا فى المرحلة الفائتة عند محيي الدين والد اثنين من كبار ممدوحيه الذين عرفهم فى حياته ، وهما شهاب الدين وعلاء الدين .

أما شهاب الدين[1] فهو أول ممدوحى هذه الفترة الذين عرفهم وأخلص لهم من غير السلاطين . وهو من أعيان كتاب العصر ، وقد كان أحد الذين فضلوا ترك العمل الرسمى فى الديوان بمصر والشام لإبائه . روت بعض الكتب التى ترجمت له أنه قال للسلطان الناصر محمد : « خدمتك علىّ حرام » بسبب خلاف حدث بينهما فاعتقل بمصر ، ثم أطلق سراحه بمساعدة أبيه محيي الدين ، وناب عنه أخوه علاء الدين . توجه شهاب الدين إلى بلاد الشام ، ولم تمض إلا فترة بسيطة بعد كتابته الإنشاء فيها حتى عزل بأخيه بدر الدين الذى حلّ محله ، فعكف بعد ذلك على التأليف وانصرف للأدب .

أسف شهاب الدين — عندما ولى كتابة الإنشاء بدمشق — لحال الشاعر ابن نباتة ، فأدخله ديوان التوقيع ، وقد أخلص له الشاعر فى مدحه ، وحفظ

---

(١) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن عمر العدوى . ولد سنة ٧٠٠ هـ ، وكتب بديوان الإنشاء بدمشق ، ولما ولى أبوه محيي الدين كتابة السر للسلطان الناصر كان يقرأ عليه البريد ، وقد غضب عليه بسبب بعض الأمور ، وتوسط والده بالأمر ، فعين مكانه أخاه علاء الدين ، وقد اعتقل ثم أفرج عنه ، وباشر بعد ذلك كتابة الإنشاء فى دمشق سنة ٧٤١ هـ . ولم يلبث أن عزل سنة ٧٤٣ هـ ، وانصرف بعدها للتأليف . نذكر من مؤلفاته : « فواصل السمر فى فضائل آل عمر » ، وكتابه المشهور : « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » وكتابه « التعريف بالمصطلح الشريف » ، وكتابه « الإنشاء فى صنعة التوقيع » وله شعر جيد ، توفى سنة ٧٤٩ هـ . الدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٣٢ ، والبداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٢٩ ، وحسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٥ ، وتاريخ ابن الوردى جـ ١ ص ٣٥٤ وبدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٥ .

له خالص الود . مدحه بأكثر من خمس عشرة قصيدة ومقطوعة ، ولم يترك مدحه بعد عزله . وقد خلصت من دراسة شعره إلى القول إن صداقة عميقة قامت بينهما ، ليس أساسها العطاء كما هو الحال لدى بعض ممدوحيه ، إنما كانت قائمة على حب محض مجرد من المنافع والأهواء :

علقْتُ بحبلٍ منْ مودتِهِ التى هِيَ الفخرُ لا بيضُ الثراء وصفرُهُ[1]

يقول الشاعر قوله هذا بالرغم من حاجته إلى المال فى هذا الأوان ، وهذا ينقض رأى الأقدمين القائل إنه كثير التشكى وملحف فى السؤال .

أما عن مدائحه فيه فحسب أن نذكر أن الشاعر يشير إلى قدم صداقته بالبيت العدوى العمرى . وقد عرضنا لممدوحيه من آل فضل الله ، وواجبنا الآن أن نوضح هذا المعنى من خلال شعره :

يا آلَ فضلِ اللهِ منْحُكُمُ إلفِى القديمُ وشعبُكم شعبِى
أقلامكمْ للمُلْكِ حافظةٌ ونوالُكم فى المجدِ للنهبِ
وصحبتُمُ مَلْكًا فمَا خُدِعتْ عيناهُ خَدْعَ الآلِ بالصحبِ[2]

فلا غرابة إن رأينا ابن نباتة يتحدث عن هذه الأسرة ، فلا يترك اسم الفاروق[3] أبى حفص[4] عمر[5] جدهم الأول دون أن يتفنن فى التحدث عنه فى كل قصيدة تقال فى آل فضل الله . ويندر أن تخلو قصيدة من إشارة قريبة أو بعيدة إلى هذا النسب ، كما أنه – بالإضافة إلى ذلك – لا يترك الحديث عن آل يحيى عامة وعن الممدوح خاصة . وقد كان قبل مجيئه إلى دمشق أثيراً لدى السلطان الناصر محمد . أشار ابن نباتة إلى هذه المكانة فى معرض حديثه عن قدومه إلى بلاد الشام قائلا :

---

(١) الديوان ص ٢٠٨ .
(٢) الديوان ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) الديوان ص ٣٠٠ .
(٤) الديوان ص ٢١١ .
(٥) الديوان ص ١٤٣ ، ٣٢

قَدِمْتَ قدومَ الغيثِ يَهْمى نوالُه ... ويعبَقُ ريّاه ويبسِمُ ثغرُهُ
وقَبلَكَ لم تُبْصرْ بنو الشام وابلا ... من الغيث تُهديه إلى الشامِ مصرُهُ
وأقبلتَ إقبالَ البدورِ حقيقةً ... على جائرِ الأيامِ أظلم دهرُهُ
وأنتَ الذى فى مصرَ والشامِ أشرقتْ ... معاليهِ فاستولى على النجمِ قدرُهُ
لكَ الصدرُ مِنْ ديوانِ تلكَ وإنما ... لصدرِكَ مِنْ هذا مدَى الدهرِ سرُّهُ (١)

يذكر الشاعر فى هذه الأبيات مكانة ممدوحه فى الشام ومصر ، وكثيراً ما كان يكثر من ذكر الواديين معاً ، كما هو واضح فى مواطن كثيرة من مدائحه ، وقد أوضحنا ذلك أكثر من مرة ، وفيها أيضاً يصور لنا حاله حين لقيه قائلا له :

أنجلَ العُلا ، قابلْتَنِى ساعةَ العلا ... مقابلةً لاقى بها القلبَ جبرُهُ
فحسبُكَ مِنْ قلبى صفاهُ ووُدُّهُ ... وحسبُكَ مِنْ لفظى دعاهُ وشكرُهُ
وحسبُكَ عبدٌ بالجميلِ ملكتَهُ ... على أنَّهُ مُسْتَمْجِدُ القلبِ حُرُّهُ (٢) (٣)

عرف عن شهاب الدين كرمه وإحسانه ، ولقد وفاه الشاعر حقه من الثناء ، فلم يقل فى أحد مدائح ما قاله فى هذا الممدوح خلال هذه الفترة التى كان فيها سيئ الحال بعد أن فقد مليكه الأفضل .

لم ينس الشاعر فضل صاحبه الذى أغاثه وأدخله ديوان التوقيع ، تلك هى أول مرة فى حياته يشغل فيها منصباً هاماً ، وقد أشار إلى ذلك قائلا :

عطفْتَ علىَّ فى زمنٍ حرونٍ ... وجُدْتَ برغمِ أيامٍ شِحاحِ
وقرَّبْتَى جنابُكَ بعدَ بُعْدٍ ... ونهْنَهَ حاسدى بعدَ الجِماحِ (٤)

---

(١) الديوان ص ٢١١ .

(٢) الديوان ص٢١٢ . فى المثل: « فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار » استمجد: استفضل، أى استكثرا من النار كأنهما أخذا من النار ماهو حسبهما فصلحا للاقتداح بهما، ويقال: لأنهما يسرعان الورى . فشبها بمن يكثر من العطاء طلباً للمجد .

(٣) الديوان ص ٢١٢ . (٤) الديوان ص ١٠٤ .

يظهر أن الشاعر قالها فيه بعد عزل ممدوحه عن أمانة السر بديوان الإنشاء ، وقد أشار ابن كثير إلى أن حاله كانت حسنة ، وعاش منصرفاً للتأليف فى داره العظيمة التى بناها بسفح جبل قاسيون فى باب الفراديس .

لم ينس شهاب الدين شاعره بالرغم من الأيام الشحاح بعد عزله ، وقد ذكر حساده الذين لم يرحموه حتى فى أيام فقره . مسكين هذا الشاعر ، بُلِيَ بكثرة الحساد والأعداء ، وهذا طبيعى يحدث لكل عظيم مثله ، ولا سيما أنه انتزع لقب شاعر الشام أولا ، وتعدى الأمر هذه الشهرة فأصبح شاعر المشرق .

أخلص الود له ، فتحدث عن أدبه وعلمه ، وفضله على الجاحظ وعلى القاضى الفاضل وغيرهما من كتاب العصر الذى نحن بصدده ، كما فضله أيضاً على الجاحظ :

وأغرقت ابن بحرٍ فى بيانٍ أطافَ به على لُجَجٍ فِساحِ[1]

وفضله على القاضى الفاضل فى قوله :

رأيتُ ابنَ فضلِ اللهِ فاضلَ دهره إذا اعتُبِرَتْ ألفاظُهُ وسعودُهُ
إذا ابنُ على وابنُ يحيى تساجلا فقُلْ : طارفُ المجدِ الرضىُّ تليدُه[2]

هكذا بدأت العلاقة بينهما ، فأنبتت حبًّا متبادلا ، لأن قرابة الآداب تقصر دونها قرابة الأنساب ، فهى أعمق جذوراً فى النفس الإنسانية وأبقى على مدى الزمن . وعلى الرغم من عزل شهاب الدين ، وتوالى الأيام الشحاح ، فإن العلاقة استمرت متينة ، ولو أن شهاب الدين لم يكن يستطيع أن يغدق عليه بسخاء ، كما كان من ذى قبل .

تطورت هذه العلاقة ، وانقلبت من المدح المعروف إلى مطارحات شعرية حول فن جديد وهو فن الشتويات (الشامية) ، وموعدنا معها عند حديثنا عن علاقة ابن نباتة معه كأديب معاصر .

---

(١) الديوان ص ١٠٣ .
(٢) الديوان ص ١٤٤ .

٤

مع تقى الدين السبكى

نتحدث الآن عن علاقة الشاعر بآل السبكى ومدائحه فيهم ، وقد سبق لنا أن عرضنا مدحه لأسرة آل فضل الله فى مصر والشام . واليوم نعرض لهذا البيت السبكى المعروف ، ونقف عند بعض الذين انتجع مرادهم فى بلاد الشام قبل أن يتوجه إلى مصر فى أواخر هذه المرحلة التى نؤرخها من حياة أديبنا الكبير . أما الذين مدحهم من السبكيين فنشير منهم بصورة خاصة إلى تقى الدين وابنه تاج الدين ، وسنخصهما بالدراسة فى هذه الفترة . كان تقى الدين أمير الشافعية فى زمانه ، وتولى قضاء دمشق ، فقصده الشاعر ، ومدحه فور وصوله من مصر ، وتبين من دراسة شعره أن حياة ابن نباتة كانت سيئة جداً فى هذه الفترة . وهذا يؤيد ما أوردته من قول فى مطلع حديثى عن هذه المرحلة . ويؤكد ما نذهب إليه قوله :

لاقيتُهُ والحالُ أنكدُ ما أرَى ... فأعادنى والحالُ أوفقُ ما أشا[1]

مِنْ بعدِ ما غابتْ بنو أيوبَ عن ... داعٍ تَحارفَ[2] بعدَهمْ وتحرفَشا[3]

واختلَّ ذِهْنًا فهو مِنْ إقتارِهِ ... لا مِنْ غِناهُ - كما يقالُ - تَكبَّشا

أمشى إلى القوتِ الزهيدِ وربّما ... أعلو فلا مَدْحى ولا حالى مَشَى

وأبيتُ أَرْعَى النيّراتِ تخالُنى ... بالسُّرْجِ[4] عن ماضى الكرام مُفَتِّشا

---

(١) أشا : أى أشاء ، وذلك بقصر الممدود لضرورة شعرية .

(٢) تحارف : يقال للمحروم الذى قتر عليه رزقه تحارف ، وحرف لعياله أى تكسّب .

(٣) تحرفش : استخدم الشاعر فعلا مشتقاً من لفظ الحرافيش والحرافشة وهم الرعاع والدهماء ، وهذا اللفظ مولد ، والمعنى أنه اتخذ زيهم أو أصبح فى عدادهم .

(٤) السُّرْج : أى السُّرُج ، وسكنت الراء لضرورة شعرية ، وهى جمع السراج أى المصباح .

حتى مَدَدْتُ إليهِ راحَةَ عائلٍ[١] طاوٍ فعجَّلَنا نَداه وكَرَّشا[٢][٣]

حقاً إن الفقر قد أخلّ ذهنه ، ولعل هذا الروى الشيى دلالة على فساد الفكر وجمود القريحة فى هذه الفترة ، وتصور الأبيات خير تصوير هذا الشاعر الذى كان يفتش عن القوت الزهيد ، ويسهر الليل على ضوء السراج يفتش عن ماضى الكرام لينظم لهم سمط الأماديح .

يذكّر الشاعر ممدوحه بأواصر القربى التى جمعتهما فى بلاد الغربة ، وهما بعيدان عن كنانتهما ، وفى ذلك يقول له :

خذْ مِنْ مَديحى كلَّ باسِمةِ الرُّبا مرّتْ على سَمْعِ الحَسودِ فأجْهَشا
مِنْ نَظْمِ مِصْرىٍّ أقامَ بجلقٍ ما كانَ فى هذا الطرازِ مُجَيَّشا[٤]

تنطق هذه القصيدة بالرغم من هذا الروى الثقيل الخشن ، فتصور حياته بعد أن فقد ملكه العظيم أبا الفداء، وتؤكد أيضاً خشونة عيش الشاعر وأثر الفقر فى شاعريته وفساد ذوقه وذهنه المتوقد، ولكن أليس العكس هو الصحيح ؟ هل تنتج الآلام إلا العبقرية ؟ وهل تنبعث العبقرية إلا من بحر الأحزان والآلام ؟؟ أقام الشاعر يمدح تقى الدين ، ولقد سنحت له الفرصة ، فتحدث لابن نيله عن حال مصرىّ مقيم بجلّق ، ويتذكر وهو يمدحه وطنه الحبيب ، فيتخيل منازل المقياس :

أرِقٌ له بالشام ِ نيلُ مدامعٍ يُجريهِ ذكرُ منازلِ « المِقياسِ »
سَقياً لمصْرَ منازلًا معمـورةً بنجومِ أفقٍ أو ظباءِ كِناسِ
وفِدًى لها مِنْ بلدةٍ كم نَثْرةٍ فيها لأسرابِ الدموعِ أقاسى
وَطَنٌ لهُ سَهِرَتْ وشابتْ لِمَّتى ونعمْ على عينى هواهُ وراسى

---

(١) عائل : مفتقر .
(٢) كرش : يقال كرش تكريشاً أى عمل المكرَّشة ، وهى من طعام البادية .
(٣) الديوان ص ٢٧٥ .
(٤) الديوان ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

مَنْ لى بهِ ؟ والحالُ ليسَ بآسنٍ كدرٍ وعطفُ الدهرِ ليسَ بقاسِ
والعيشُ حَلْى طالما خَطَرَتْ بهِ أعطافُ كلِّ مهفهفٍ ميّاسِ
ثم انقضى ذاكَ الزمانُ وما بقى مِنْ حَلْيهِ عندى سوى الوسواسِ [1]

قرأت هذه الأبيات المختارة من سينيته فأسيت للشاعر ، وتفطر قلبى ألماً على هذا الشعور الفياض الذى يتأجج لذكر المقياس . كنت فى الأمس فى مصر وعرفت المقياس قرب النيل ، وذكرت مع الشاعر ذلك المكان الساحر ، فهاجنى الشوق ، ولما يمض بعد غير أسابيع معدودات ، فكيف بالشاعر إذاً وقد مرت عليه عشرات السنين ؟ ! تقادم العهد . وأصبح هذا البرق الكنانى يلمع فى آفاق الشام على سفح قاسيون وعلى ربا العاصى وفى آفاق الشهباء ، فيتذكر بلده الحبيب ، ويجرى من عينيه نيل مدامعه ، وتتحدر تلك الدموع العسجدية ، دموع الشوق والحنين ، دموع صب أضناه طيف خيال وطنه الحبيب .

يدعو لذلك الزمان الذى ضمه فى أيام شبابه بالسقيا . ويتذكر مصره الحبيبة ، وقد أذرى دموعه النيلية فداء لهذا الشباب الذى قضاه فى رياض الكنانة الغناء بين أشجار النخيل . يرعى نجوم أفقها الصحو ، ويرعى ظباء كناسها هنا وهناك بين الجزيرة والروضة ، والسبك وحلوان .

هذا الوطن الحبيب ، الذى قضى العمر بعيداً عنه ، والذى سهر من أجله الليالى ، والذى أشعل رأسه شيباً لبعاده عن هذا الوطن ، والذى يحبه يود لو عاد إليه . من هو الإنسان الذى سيعيده إليه ؟ وأين الطائر الذى سيحمله على جناحيه ؟ وأين البراق الذى يود لو أقله بين طرفة عين وانتفاضتها ؟؟ إنها أطياف أحلام . لا بل هى أضغاث أحلام . لقد انقضى الزمان . ولم يبق له من العمر إلا أقله . ولم يبق له من وطنه غير وسواس دائم . يفكر فيه آناء الليل وأطراف النهار . كلما عنت على باله طفولته الأولى وشبابه الراحل . لا بل إن دموعه تذكره بماء نيله العذب . إن شوقه الدفين يتقد فى هذه الأبيات ، ومن خير من ابن نيله يستمع إليه ، ومن خير من ابن نيله يسمعه صوت قلبه المشوق لمقياس النيل ؟ ومن غيره

(١) الديوان ص ٢٦٥ .

يحمله نحية مشتاق ملتاع ؟؟ .

يصحو من خمرته النيلية التى أسكرته زمناً طويلا وهو ينظم هذه القصيدة وينادى دمشق قائلا لها .

هُنِّئْتِ حظَّك - يادمشقُ - بحاكمٍ أمنَ الرجاءُ بهِ من الإبلاس[1]
قاضى القضاةِ وإنَّها لمكانةٌ طَهُرَتْ بسؤددِهِ من الأدناسِ
وافى الشآمَ فأشرقَتْ أيدى اللُّها وجرتْ أمورُ العدْلِ بالقسطاسِ[2]

وفّى ابن نباتة هذا الممدوح حقه من الثناء وقد عدّه السيوطى من الأئمة المجتهدين ، وذكر مناقبه بالتفصيل ، وأشار إلى آثاره فى الفقه والدين ، وكان ابن نباتة قد أحسن فى ثنائه ، لأنه أحبه لتقواه وورعه ، ولأنه قد ذكره بمصره ونيله ، وأعاد لباله ذكرى المقياس . ولعلى لاأعدو الحق ، إن قلت : إن اسمه ذكره بالسبك ، وقدماً كنا مع الشاعر ، وقد أفاض فى البكاء عند السبك ، فبكى واستبكى . عاد تقى الدين إلى القاهرة ، وتوفى بجزيرة النيل على شاطئه ، وسمع الشاعر ، وهو ببلاد الشام بنبأ موته ، فرثاه على البعد بقصيدة من غرر شعره ، أوردها السيوطى كاملة فى حسن المحاضرة .

نتبين من خلال تلاوتنا هذه المرثية نجوى الشاعر ، وهو يرثى بألم وحرقة ، ويطوف بخياله الجامح بين الشام ومصر ، فيبكى صاحبه ، ويستهل بكاءه قائلا :

نعاهُ للفضلِ والعلياءِ والنسب ناعيهِ للأرضِ والأفلاكِ والشُّهُب
آهاً لمجتهدٍ قدْ ظلَّ ينـدبُهُ مَنْباتَ مجتهدًا فى الحُزْنِ والحَرَبِ
وأقبلتْ نُوبُ الأيامِ ثائرةً إذْ كانَ عونًا على الأيامِ والنُّوبِ
ففاجأتْنَا يدُ التفريق مسفرةً عن سفرةٍ طالَ فيها شجوُ مرتقِبِ
وجاء مِنْ عندِ مصرٍ مُبتدا خبرٍ لكنْ بهِ السمعُ منصوبٌ على النَّصب

(١) أبلس الرجل فى أمره أى تحيّر ، وأبلس أيضاً يئس وحزن وقل خيره .
(٢) الديوان ص ٢٦٥ .

قالتْ دمشقُ بدمعِ النهرِ : واخبرا «فَزِعْتُ فيه بآمالى إلى الكذبِ[١]»[٢]

وتحدث بعد استهلاله الذى ذكّرنا بصرخة المتنبى من قبل ، فذكر الجامع الرحب فى دمشق ، وكيف أسى عليه ، وذكر الفراغ الذى أحدثه بموته ، وهو الإمام الشافعى الأكبر ، شيخ شيوخ الشافعية فى زمانه :

ذو همةٍ فى العلا والعلمِ قد بلغتْ فوقَ السِّماكِ وما تَنفكُّ فى دَأَبِ
حتى رأى العلمُ شفْعَ الشافعىِّ بهِ وقالَ مِنْ ذَا وذَا أدركتُ مطَّلبى[٣]

يتحدث ابن نباتة بعد ذكر هذه الصفات عن سفر الفقيد من الشام إلى مصر وموته هناك ، ولعل الإيمان بحب الأوطان هو الذى حركه ، فأدركه قبل أن يقضى نحبه :

آهًا لمرتحـلٍ عنـا وأنعمُهُ مثلُ الحقائبِ للمثنينَ والحَقَبِ[٤]
إيمانُ حبٍّ على الأوطانِ حرّكه حتى قَضَى نحبَه يا طولَ مُنتحبِ
يا ثاويًا والثنا والحمدُ ينشرُهُ بقيتَ أنتَ وأفْنَتْنَا يدُ الكُرَبِ
نَمْ فى مُقامِ نعيمٍ غيرِ منقطعٍ ونحنُ فى نارِ حزنٍ غيرِ متَّئِبِ[٥][٦]

لكنه يتساءل بعد هذه الآهة المتفجرة من أعماق فؤاده : أترى هل من سبيل إلى مصر لعل ترابها يجمعه به ولو فى بطون ثراها ؟

منْ لى بمصرَ التى ضَمتْكَ تجمعُنَا ؟ ولو بطونُ الثرى فيهَا فيَاطَرَبى
ماأعجَبَ الحالَ ، لى قلبٌ بمصرَ وفى دمشقَ جسمى ، ودمعُ العينِ فى حَلَبِ[٧]

---

(١) ضمن الشاعر الشطر الثانى من شعر المتنبى فى قصيدة يرثى بها أخت سيف الدولة ، وقد توفيت بميافارقين ، وصدر البيت : «طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر» (ديوان المتنبى ج ١ ص ٨٦) .

(٢) الديوان ص ٤٢ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٣٢ . (٣) المصدر السابق .

(٤) الحقب : الحزام الذى يشد على حقو البعير ، وما تشده المرأة على وسطها تعلق به الحلى .

(٥) متئب : اتأبه أى أغضبه ، أورده بخزى عن حاجته ، أو فعل به فعلا يستحيا منه . واتأب منه : انقبض واستحيا .

(٦) الديوان ص ٤٢ (٧) الديوان ص ٤٢

لن أتحدث عن هذه الأبيات فهى ناطقة تغنى عن كل حديث وأكتفى بالإشارة إلى هذه الحكم السامية التى ختم بها هذه الحسرة الآسية ، وهى تدلنا على سمو الشاعر واعتباره بمن سبقه من إخوانه ويذكر أن مصيره مثلهم إلى التراب ، ولاعجيب مآل الترب للترب ، منه خلقنا وإليه نعود .

مدح ابن نباتة بعض من عرفهم خلال حياته فى هذه المرحلة ، لكن مدحه إياهم كان بعيداً عن العاطفة الصادقة التى لمسناها فى مدائح من ترجمنا لهم فى هذه الدراسة . وتكاد تكون ذات طابع واحد فى معانيها وألفاظها وهيكلها ؛ وكان غرضه منها الزلفى ، لينال بعض عطاياهم . نكتفى بذكر بعضهم أمثال جمال الدين بن الشهاب محمود (المتوفى سنة ٧٦٠هـ) ، وجمال الدين بن جملة (المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وجمال الدين بن ريّان (المتوفى سنة ٧٤٩هـ) وتاج الدين بن الزين خضر (المتوفى سنة ٧٤٧ هـ) ، وتاج الدين السبكى (المتوفى سنة ٧٧١هـ) ، وبهاء الدين السبكى (المتوفى سنة ٧٧٧هـ) ، وغيرهم

المرحلة السادسة

٧٦٢هـ ــ ٧٦٨هـ

١

عودته إلى مصر

إنها خاتمة حياته فى نهاية مطافها ، وهى أقصر مراحلها . بدأت برحيل ابن نباتة ، وهو فى ذروة شهرته عن أرض الشام ، وعودته إلى بلده الحبيب بعد غيبة استمرت نصف قرن من الزمن تقريباً ، قضاه ينشر علمه وأدبه ، ويذيع فى الخافقين شعره ، ويبشر بالوحدة الفكرية بين وادى مصر والشام .

بدأت علاقة الشاعر ــ قبل عودته ــ على البعد بالسلطان الناصر حسن ، وبعلاء الدين بن فضل الله ، وهما أجل ممدوحين عرفهما فى هذه المرحلة الختامية ، إذ كان لهما عليه الفضل الكبير ، فساعداه على العود أولا ، وعلى تكريمه فى

أواخر هذه الحياة الحافلة ، ليموت بعدها قرير العين هانئها .

فكر الشاعر فى العودة بعد موت أبى الفداء الذى أنساه أهله وموطنه ونفسه ، وكان طبيعياً أن يزيد الحرمان الذى حل به بعد ذلك لوعته وأساه ، فيأسى على حياته البائسة فى غربة نازحة ، ويبكى أيام صباه فى السبك والمقياس بنيل مدامعه ، كما رأينا ذلك خلال مديحه لابن مصره السبكى ، وقدماً تحدث عن منازل محبوبته المعمورة بالسبك . وها هو ذا الآن يبكى هذه المنازل التى تهدمت أطلالها ، وعفت رسومها وملاعبها . لم يبق من العمر إلا أقله ، ولقد وخط المشيب عارضيه ، وصبغ فوديه ، ولم تكن شهرته الذائعة وصيته السائر بعد أن أصبح شاعر الشام فى مطلع حياته وشاعر الشرق فى أوج كهولته بالأمر الذى يغره ، فلقد عزف عن هذه المظاهر ، وهو كعبة القصاد ، يقصده الناس من كل حدب وصوب من أطراف مصر والشام لينالوا منه الإجازة فى رواية الحديث أو الأدب شعراً ونثراً . وقد سمعناه يتذمر كثيراً من كثرة رواده من الشعراء وغيرهم ، حتى إن المبتدئين منهم كانوا يطرقون بابه ، ويطلبون الشهرة عن طريقه .

عزف عن هذا كله لأن حب الأوطان قتال ، وأشد الحب ما قتل ، وفكر فى أمر عودته ليموت فى الأرض التى ولد على أديمها ، وقد ظهر لنا هذا الأمر فى رثائه للسبكى تقى الدين ، إذ تمنى أن يعود لمصر ، وتضمه أرضها ولو كان ميتاً .

عزم على العودة فسعى لها ، وشرع يمدح السلطان الناصر حسناً وأمين سره علاء الدين ، وقد مهد بمدحهما سبيله إلى هذه العودة ، فرق له قلب السلطان الناصر ، وبعث إليه يطلبه فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وسبعمائة[1] فى الشهر نفسه الذى ولد فيه ، وكأنما كانت عودته بدء ميلاد جديد فى حياته ، ولكنه ميلاد الموت المقبل .

أمر السلطان فى المرسوم الذى أصدره بشأن عودته أن يصرف له ما يتجهز به ، وأن يجمع له ما انقطع من المعالم إلى تاريخه ، فجمع له ذلك ، وعاد إلى

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٧ ، والموسوعة الإسلامية جـ ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

مصر ، ودخلها ، واستنشق أريجها ، وروى من مائها العذب بعد أن حرمته منه الأيام دهراً طويلا . لقد مضت أيام البعاد وكأنها لم تكن ، وما أسرع مرور الزمن وتوالى الأيام ، نصف قرن من الزمن تقريباً مرت كأنها لمحة عين وانتفاضتها .

نزح عن مصر وشعره لمة سوداء ، وعاد إليها ، وقد شيبته الأيام ، فأصبح عاجزاً لايستطيع أن يقوم بعمله الرسمى الذى أنيط به فى ديوان التوقيع بالقاهرة، إذ كان يشغل منصب موقّع فى الدست . ويتطلب منه هذا المنصب الهام الحضور ، ليشرف على أمور الديوان ، ويراقب رسائل السلطان . أقعدته السنون والأيام ، وساور الضعف جسمه ، فعجز عن الحضور ، وقد أشفق السلطان عليه ، فأعفاه من الحضور ، وأمر بإجراء معلومه عليه [١]. أقام هادئاً فى عزلته يقضى أعوامه الأخيرة بعيداً عن أولاده الذين أبقاهم فى الشام . سعى لدى صديقه علاء الدين أمين سر السلطان ، فأعادهم إليه ليقر عيناً ، وينعم بهم .

لم يكتف الناصر حسن بكل ما فعله من أجله ، بل كان يود لو يكرمه كأكبر أديب وأرفع شاعر فى مملكته ، فأمر أن ينسخ ديوانه[٢] ليحفظ مكرماً فى المكاتب السلطانية الخاصة ، وأمّر شعره على سائر الشعراء ، وأصبح ديوانه فوق كل الدواوين ، كما سنشير إلى ذلك بالتفصيل خلال دراستنا المقبلة عن علاقة الشاعر بالناصر حسن وأمين سره علاء الدين .

٢

مع السلطان الناصر حسن

لم يطل عهده كثيراً بالناصر حسن ، ولكنه أكثر من مديحه فى الفترة البسيطة التى عاشها فى كنفه بمصر ؛ ولو أنه بقى فى الحكم مدة أطول لرأينا

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ١٢٧ .

(٢) الديوان ص ٥١٩ .

للشاعر فيه مدائح عديدة ، وذلك لأنى لمست فى هذه القصائد روحاً ، أخلصت الود لصاحبها، ومحضته خالص الولاء : كيف لا ، وقد أنقذه هذا السلطان العظيم من براثن الغربة بعد أن استمع إلى قصائده عن بعد فشجى لحاله .

أحب أن نقف عند شعره الذى قاله فيه قبل عودته لمصر بزمن يسير ، ويتصف شعره فيه أنه كان يصف شيبه فى مطالع النسيب.وقد لمست أنه كان نسيباً ذاتياً أكثر منه نسيباً تقليدياً ، كما عهدناه من قبل فى المراحل الأولى. يضاف إلى ذلك الطابع المصرى الصميم الذى بدأ يتطبع به الشاعر ، وهو على وشك العودة لمصره :

بَدَتْ فى رداءِ الشِعرِ باسمَةَ الثغرِ فعوّدْتُها بالشمس والليلِ والفَجْرِ
وقبَّلْتُهَا مِصريَّةً حلوَةَ اللَّمَى أُكرِّرُ فى تقبيلِهَا السكَّرَ المِصْرِى
وشيَّبَ رأسى خــدُّها ومعنِّى وهذا رمادُ الشيبِ من ذلكَ الجَمْرِ
يُذكِّرنى عهدُ الوفا مــا نسيتُهُ ولكنَّهُ تجديدُ ذكرٍ على ذكرِ
وأمّا وقدْ ضاءَ المشيبُ بمفرِقى فبالشيب لا بالطوعِ صرْنا إلى الهجرِ
وفارَقْتُ خدَّ الغانياتِ وجفنَهَا فجُرْحاً على جُرْحٍ وكَسْراً على كَسْرِ [1]

ويتحدث بعد هذا النسيب الذى صوّر فيه شيبه عن شوقه إلى مصر ، فيقول :

وإنى لمشتاقٌ إلى ظلِّ روضةٍ على النيلِ أروى العيشَ منهاعن النَّضْرِ
لئنْ حثَّنى بابُ البريدِ إلى مصر لقدْ حثَّنِى بابُ الزيادَةِ فى النزْرِ
إلى مصرَ يحلو نيلُها مُخْصِبَ الثرَى فيُغنى الوَرَى فى الحالتَيْنِ عن القَطْرِ [2]

ويتخلص من هذا الوصف الرائع للنيل ، هذا الوصف الذى لا يجيده إلا ابن نبله ، إلى الحديث عن الناصر حسن فيقول [3] :

وتقبيلُ حلوِ الغزوِ للمَحْلِ قاتِلٌ حلاوتُهُ سكبٌ وجنديُّه يجرى

---

(١) الديوان ص ١٩٥ ، ١٩٦ . (٢) الديوان ص ١٩٦ .
(٣) الديوان ص ١٩٦ .

ويَجْرِي بإسعادِ العبادِ فحبّذَا بسعدِكَ يا سلطانها ساعياً يَجْرِى
لسلطان مصرَ الناصرِ بنِ محمدٍ[١] وهلْ تُجمعُ الأمصارُ إلّا على مصرِ؟

يؤكد مدح ابن نباتة ما رأيناه من مظاهر الوحدة السياسية ، وكيف أجمعت الأمصار الإسلامية المختلفة فى البلاد العربية على هذه الوحدة المباركة ، ويؤكد أن مصر قد أجمعت الأقطار المختلفة على أن تكون الرائدة لكل البلاد العربية فى مضمار الانطلاق نحو الوحدة المنشودة .

يتحدث بعد ذلك عن ممدوحه بالتفصيل ، وينتقل كعادته فى المديح إلى التحدث عن أسرته العريقة ، فيذكر أباه وأجداده ، ويشيد بهذا البيت القلاوونى قائلا[٢] :

مضَى الشفعُ منْ مرأى أبيهِ وجدِّهِ وجاءَ فلا زالتْ لهُ دولةُ الوَتْرِ
إلى ناصرٍ من ناصرٍ وكذا على مدى جدِّهِ المنصورِ[٣] مسترسلَ النصرِ
أجلُّ بِبَيتِ الملكِ بيتُ قلاونٍ وأنتَ أجلُّ البيتِ ياوارثَ الدهرِ

ننتقل إلى قصيدة ثانية قالها فيه بعد عودته لمصر وقد هنأه بحلول العام الجديد ونود لو نقف قليلا عند نسيبه فى هذه الفترة لنرى أنه — كما قلنا — يؤكد هذه الذاتية التى شب فيها عن طوق التقليد :

سلوتُ لكنَّ قلبى يا سعادُ سَلى وأنتَ فِى الحِلِّ مِنْ قلبى ومِنْ قِبَلى
قد جاءَ ماجاءَ مِنْ رأيٍ ومن رشدٍ وزالَ ما زالَ مِنْ غىٍّ ومِنْ زَلَلِ
حتى أضاالشيبُ فى فَوْدِى فأرشَدَنى إلى الهُدَى فى سوادِ الرأسِ كالشُّعَلِ
فلا الخلاعةُ بعدَ اليوم من أَرَبى ولا التغزُّلُ فى الأشعارِ من شُغُلى
وغاضَ ماءُ شبابٍ قد عَصَيْتُ بهِ رَأْىَ النصيحِ فلمْ أسمع ولم أَخَل[٤]

---

(١) أى الناصر حسن بن الناصر محمد .
(٢) الديوان ص ١٩٦ .
(٣) أى المنصور سيف الدين قلاوون الألفى العلائى الصالحى النجمى من عظماء سلاطين هذه الدولة ، وقد تتابع من هذه الأسرة أربعة عشر سلطاناً .
(٤) أخل : خال الشىء يخاله أى ظنه ، وفى المثل : (من يسمع يخل) .

ولا حصلتُ على دنيا وآخرةٍ إلَّا بدولةِ مَنْ أنشَا ذوى الدولِ
أنشى مدائحَ سلطانِ العبادِ بلا لغوٍ وأتلو معانيها بِلا خَلَلِ
الناصرِ اسمًا وألقابًا وأفعلةً فانظرْ لنصرٍ على عِطفيهِ مشتملِ
سلطانَ مصرَ الرخَا والأمنُ عمَّ فما بها سوى النيلِ قطَّاعٌ على السبلِ[1]

نكتفى بهذا القدر من أماديح ابن نباتة فى الناصر ، ولعلنا استطعنا من خلالها أن نطلع على نفسيته المفعمة بالحب والولاء لهذا السلطان الذى جمع له الدنيا والآخرة ، فحصل منها على ما يشتهى بعد أن بلغ من الكبر عتيًّا ، حصل على الدنيا ؛ لأنه كفاه وأجرى عليه رزقه ، وحصل على آخرته لأنه يموت الآن آمناً مطمئنًّا بعد أن اكتحلت عيناه لأول مرة برؤية وطنه الحبيب بعد أمد مديد .

لم يمض إلا زمن يسير حتى أصبح ابن نباتة شاعر بلاط السلطان بغير منازع ، وكأنما قد أحس الشاعر بعلو هذه المنزلة التى لايدانيه فيها شاعر ثان فى شرق ملك السلطان وفى غربه . هو الواحد الفرد العلم الذى أمر السلطان أن ينسخ ديوانه ليزين به مكاتب قصوره بعد أن أمّر شعره على الشعراء جميعاً ، فأصبح أميرهم الأعلى .

لم يفعل الناصر هذا إلا بعد أن لمس إجماع الأدباء والشعراء والناس فى الشام ومصر وغيرهما على تبجيله واحترامه ، ورفعه إلى ذروة المنتهى فى الشعر والأدب . تسنم إمارة الأدب قبل أن يحل بأرض مصر ، ولم يفعل الناصر أكثر من أن استجاب لهذه الرغبة العامة ، فأضفى عليها طابعها الرسمى ، لنستمع إليه يهنئه فى العيد ، وقد جاء فى هذه المدحة قوله :

يا ناصرَ الدين والدنيَا لقد نفذتْ أقلامُ مدحكَ فى الدنيا بسلطانِ
مقام ملككَ فى عزٍّ ومنتسبٍ كِسْرَى بنسبتهِ منْ آل ساسانِ

---

(١) الديوان ص ٣٨٠ .

دانَتْ لكَ الخلقُ من بدوٍ ومن حَضَرٍ وفاضَ جُودكَ فى قاصٍ وفى دانِ
هذى المدائن من أقصى مشارقها لمنتهى الغربِ فى طوعٍ وإذعانِ [1]

تؤكد هذه الأبيات مرة أخرى اتساع ملك سلاطين المماليك كما فصلنا ذلك خلال دراستنا الحياة السياسية . وفيها يؤكد امتداد هذا الملك من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب . والمهم فى هذه القصيدة أن الشاعر لايكتفى بهذا المديح الذى أشار فيه إلى اتساع هذا الملك العظيم ، إنما صور حياته فى أواخر عمره أروع تصوير . ولعلى أحسن صنعاً لو وقفت ههنا بعض الوقت لأوفى الشاعر حقه من وصف أواخر حياته [2] :

وأمسكَ الضَّعفُ نطقى بزهَةً فرَقَى بالمدحِ منظرُ ما قدْ كانَ أولانى
ضَعْفٌ تَضاعفَ فى فكرى وفى بدنى حتى تَحيَّفَ إسرارى وإعلانى
وعطلَتْنِى عن الأوزانِ أنظمُهَا مدحًا وما عطَّلتْ جدواهُ ميزانى
إن أمتدحْهُ بشعرى أو بكِسوتِه فسوفَ تمدحُه فى التُرْبِ أكفانى
كفَّانِ فى الجود جادتْ لى جوائزَها وكانَ خيرَ سماعِ الشعرِ كفَّانِ
وقدَّمَتْنى على الأقرانِ ذو نعمٍ حتى جَدَعْتُ بهِ أنفَ ابن جُدْعانِ [3]
وقالَ قومٌ بما قد نِلتُ تقدمةً فقلتُ : مُذ أمَّرَ السلطانُ ديوانى

لعلنا نشعر بصدق هذه العاطفة التى تنبض فى هذه الأبيات ؛ إذ يصف الشاعر ضعفه ، وقد حلّ السقام بجسمه ، وعطل فكره ، وأفسد ذهنه ، لكن الناصر لم ينس الشاعر فى أيامه الأخيرة ، بل مده بالعطاء . وما أروع الشاعر حين قال له : إن أكفانه الطاهرة سوف تمدحه ، وهو فى التراب ؛ جزاء وفاقاً

---

(١) الديوان ص ٤٩٢ .
(٢) الديوان ص ٤٩٣ .
(٣) ابن جُدْعان : أى عبد الله بن جُدْعان (بضم الجيم) جواد معروف ، قيل : كان يحضر النبى صلى الله عليه وسلم طعامه ، وكانت له جفنة يأكل منها القائم والراكب لعظمها . قالت عائشة : يارسول الله ، هل كان ذلك نافعه ، قال : إنه لم يقل يوماً : « رب اغفرلى خطيئتى يوم الدين » .

على جميله الذى أولاه إياه فى حياته ، ويختم قصيدته مشيراً إلى ما فعله السلطان من تأميره على الأقران . وما فعله من نسخ شعره فى الديوان ، كما أشار مرة ثانية إلى هذا الأمر فى معرض إحدى قصائده من السبع السيّارة[١] :

يا أيُّها الناصرُ السلطانُ لا غَمَضَتْ عينٌ لها عن سَنا مرآكَ سلوانُ
أَمَّرتَ شعرىَ يا خيرَ الملوكِ على أشعارِ قومٍ فلى أَمرٌ وديوانُ

أمّر شعره على سائر الشعراء . فأصبح (أمير شعراء المشرق) . وتلك هى أرفع منزلة يسمو إليها شاعر . فأصبح له أمر وشأن . وأصبح ديوانه جوهرة الدواوين . لأنه السحر الحلال الذى لم يعرف فى غير شعره . وتلك هى أغلى أمنية يحلم بها شاعر . نختم حديثنا بعد هذا العرض المسهب بذكر مخمسه فى الناصر . وهو المخمس الوحيد الذى عثرنا عليه فى الديوان . ولعله آخر ما قاله من شعر . لأنه يذكر فيه ضعفه وعجزه . ويحسن بنا أن يكون هذا المخمس الشعرى خاتمة المطاف فى حديثنا عن الشاعر وعلاقته بالناصر :

لنا مَلِكٌ قدْ كَمَّلَ اللهُ فضلَهُ فخوَّلهُ مُلْكَ البسيطةِ كُلَّهْ
بجِدٍّ وجمع جَمَّعَ الفضلُ شملَهُ هُوَ البحرُ إلّا أنّنا سمَكٌ لهْ
بلُقياهُ نحيا أو بفُرْقتِهِ نَفْنَى
إلى أنْ تجلَّتْ طلعةٌ ناصريةٌ حَلَتْ دولةٌ مِنْ مُلْكِها قاهريّةْ
مليّةٌ[٢] أبياتِ العَطَا[٣] قادريّةٌ وكان عَطَا مَعْنٍ[٤] القِرَى نادريّةْ
وأنتَ القِرَى أعطيْتَ والكَنزَ والمدْنا
فلا زالَ للإسلامِ مَلْكًا وناصرًا وللمالِ والأعدا مُبيدًا وقاهِرا
ولا زالَ كُلُّ الناسِ أصبحَ شاعرًا يُقيمُ لِوَزْنى شِعْرَهُ البرَّ وافرا
وما كانَ ذو وَفْرٍ يُقيمُ لهُ وزنا

---

(١) الديوان ص ٥١٩ .
(٢) ملية : الملىء والملى أى الغنى المقتدر .
(٣) العطا : العطية .
(٤) معن : أى معن بن زائدة بن عبد الله من أجواد العرب .

وحقِّكَ لا أَنْسَى ببابِكَ ثَرْوَتى مرتَّبةً فى حالِ ضَعفى وقُوَّتى
ولا قلتُ ماقالَ ابنُ جرحٍ لعُسْرتى أذو صَنْعةٍ فاستخدمونى لصَنْعتى
برزقى وإلَّا فارزقونى معَ الزمنى(١)(٢)

ألف ابن نباتة للناصر ديوان خطب جمعية منبرية بعدد أسابيع السنة ، أورد فى خطبة النعت التقليدية ، وهى آخر خطب الكتاب ، ذكر الناصر فى الدعاء له . وأعتقد أنه ألفها له لتكون نمطاً موحداً ، يعتمد عليه الخطباء فى المساجد عامة ، وفيها يقول : « وكن اللهم مؤيداً لهم وحافظهم وناصرهم . . . »(٣) . ظن الشاعر أن الدهر قد انقلب مره حلواً ، لكنه سرعان ما ابتلاه بمقتل الناصر على يد مملوكه بلبغا ، فقبض عليه وسجنه ، ثم خنقه وأغرقه فى البحر سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، أى بعد عام واحد تقريباً من وصوله من بلاد الشام .

أما معلومه فكان يقطع عنه فى بعض الأحيان بعد موت الناصر ، وقد ظهر لنا ذلك الأمر فى معرض مدائحه لعلاء الدين بن فضل الله ، وهو الممدوح الوحيد الذى اختص به بعد موت سيده .

٣

مع علاء الدين بن فضل الله

بدأت علاقته به عندما قابله فى دمشق خلال زيارته لها . وقد ذكرنا أنه أغاثه ، وزاد من وظائفه قمامة التى عزل عنها ، وذكرنا أنه كان يرغب فى العودة إلى التوقيع بعد صرفه عنه . أوضحنا ذلك من قبل ، واستمرت علاقته به . ولقد أمل ابن نباتة أن ينصرف لهذا الممدوح ، ولا سيما أنه شقيق شهاب الدين ، رئيس ديوان الإنشاء بدمشق . وكان لعلاء الدين هذا فضل كبير عليه ،

(١) الزَمنى : جمع زَمْن وزَمِن ، أى المصاب بالزمانة ، وهى تعطيل القوى عن بعض الجسم والعلة المستديمة .
(٢) الديوان ص ٥٨١ ، ٥٨٢ .
(٣) ديوان خطب جمعية ، ص ١٠٩ .

لأنه ساعده على العودة ، وبخاصة بعد وفاة سلطانه الناصر . إن عهده إذاً قديم بآل فضل الله، وقد فصلنا علاقته بالسابقين منهم ،ويعد علاء الدين هذا[١] خامس ممدوح منهم يطرق بابه وينال عطاءه . كان لهذه الأسرة — فى الحقيقة — فضل كبير عليه ، ولعل علاء الدين هذا كان خاتمة المطاف،وهو آخر ممدوح عرفه فى حياته كلها . لن أتحدث بالتفصيل عن أسرته العمرية ، فقد وفيناها حقها من البحث خلال دراستنا المدائح النباتية فى سروات الأسرة العدوية العمرية ؛ وإنما أكتفى من ذلك بالإشارة إلى « عمر الفاروق » جده[٢] ، وأما « أصله فإلى قريش »[٣] ، وأنه « ابن الخلائف من عدى »[٤] ، وأنه من « أسرة عمرية عدوية »[٥] .

أعرض الآن لما قاله فيه من شعر قبل حلوله أرض مصر ، ولقد تعمدت أن أعرضه هنا ، لأنه يصور لنا شوقه وهو فى بلاد الشام لأرض النيل التى كان يمنى نفسه بلقائها حيًّا أو ميتاً . لنستمع إليه يتحدث لنا قبل وصف شوقه عن مصرية ماردة الهوى[٦] :

عَطَفَتْ كأمثالِ القِسِىِّ حواجبًا فرَمَتْ غداةَ البينِ قلبًا واجبًا

مِنْ كلِّ ماردةِ الهوَى مصرية لم تخشَ من شُهْبِ الدموعِ ثواقبا

إنها نموذج خالد للمرأة المصرية الفتانة بجمالها الفرعونى القديم ، كما خلدته الآثار الباقية ،ولعل ولع الشاعر بالجمال المصرى يثير شوقه الدفين منذ أعماق السنين لأرض النهر الخالد . ولايلبث بعد هذا النسيب المصرى المارد إلا أن يتغنى بموطنه مصر، موطن هذه الماردة فى هواها قائلا[٧] :

(١) علاء الدين أبو الحسن على بن يحيى بن فضل الله بن مجلى العدوى العمرى . ولد سنة ٧١٢ هـ ، وقد ولاه الناصر الكتابة بعد غضبه على أخيه شهاب الدين وكان — إذ ذاك صغير السن — فتعهد الناصر بتدريبه ، وذكر أنه كان حسن الخط ، فلم يلحق به أحد ، وقد خدم اثنى عشر سلطاناً خلال ثلاث وثلاثين سنة . توفى سنة ٧٦٩ هـ . الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٣٨ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) الديوان ص ٢٩ .

(٣) الديوان ص ٤٥١ .

(٤) الديوان ص ٥١٥ .

(٥) الديوان ص ١٠ .

(٦) الديوان ص ٢٦ .

(٧) المصدر السابق .

بأبي الخدودُ العارياتُ من البكا   اللابساتُ من الحريرِ جلاببا[١]
النابتاتُ بأرضِ مِصْرَ أزاهرًا   والزاهراتُ بأرضِ مصرَ كواكبَا
آهًا لمصرَ، وأينَ مصرُ؟وكيفَ لى   بديارِ مصرَ مراتعًا وملاعبا ؟
حيثُ الشبيبة والحبيبةُ والوفَا   فى الأَعْذَبَيْنِ[٢] مشاربًا وأصاحبا

لانعدو الحق إن قلنا إن هذه الأبيات من أجمل ما قاله الشاعر فى وصف حنينه ، ولن أعيب عليه تكرار اسم وطنه الحبيب لأن الحب الصادق يظهر فى هذا التكرار المستحب ، وقد بلغ ست مرات فى ثلاثة أبيات إذا أهملنا البيت الأول ، أو فى بيتين إذ أهملنا الأول والرابع. صحيح أن هذا التكرار نوع من السحر الحلال الذى وصف به شعره . لابل إنه السكر النباتى على حد تعبير ابن نباتة فى بعض مقاطيع شعره .

نعود كرة أخرى ، فنتذكر مع الشاعر وطنه من خلال مدائحه ، ولنستمع إليه يناشد صاحبه علاء الدين ، وهو يتغنى بالأهرام الذى فارقه منذ عهد سحيق :

وحبَّذَا العيشُ والأيامُ مسعفةٌ   ومصرُ دارى وأحبابى بها خَوَلِى[٣]
يا بارقًا من نواحى مصرَ مبتسمًا   بَلِّغْ تحيةَ هامى الدمعِ منهملِ
واذكرْ إذا هَبَّ معتلُّ الصَّبَا جسدى   فربّما صَحَّتِ الأَجسادُ بالعِللِ[٤]

ما أعذب خطاب هذا البارق المبتسم من آفاق مصر! وكأنما يبشره ابتسامه بقرب العودة . ها هو ذا يخاطبه ، ويطلب إليه أن يحمل معه تحية مصرى مقيم بجلّق ، وقد كتب هذه التحية ، وخضّلها بنيل مدامعه ، ويطلب من هذا البرق المصرى أن يذكره إذا هبت النسائم العليلة ، فقد تشفيه ، وقد يصح من سقمه . وكيف لا ؟ وهل أنفع منها للمشوق المحروم ؟

---

(١) الجلابب : جمع جلباب وهو القميص الواسع . .
(٢) فى الديوان : «الأعربين» والتصويب من رواية مخطوطة (سوق الرقيق) ق ١٠٣ ظ
(٣) خولى : خول جمع خائل ، ويقال : لفلان خيل وخول أى حشم .
(٤) الديوان ص ٣٨٣ .

نقف كرة أخرى عند هذا البرق الثانى المتبسم السارى من آفاق مصر ومن ظلال الأهرام ، ونستمع لابن نباتة ، وقد هملت دموعه النيلية :

يا سارىَ البرقِ فى آفاقِ مصرَ لقدْ ... أذكرْتَنِى من زمانِ النيلِ ما عذُبَا
حدثْ عن البحرِ أو دمعى ولا حَرَجٌ ... وانقلْ عن النارِ أو قلبى ولا كَذِبا
وانْدُبْ على الهَرمِ الغربىِّ لى عُمُرًا ... فحبّذا هرمٌ فارقتُــه وصِبَا [1]

جمع مصر وهرمها ونيلها كلها فى ثلاثة أبيات فقط ، وهى تعبر بحق عن لوعة الشاعر وحرقته. ولو حاول مصور أن يجمع هذا الثالوث الكنانى فى صورة واحدة لعجز عن ذلك . لكن الشاعر الفنان استطاع بما أوتى من عبقرية أن يجمعها ضمن إطار واحد فى صورة ساحرة ، كما جمع فيها أيضاً بحر المدامع ونار الشوق المتأجج فى قلبه . ولعلنا نستطيب هذا الحنين ، فنستزيده من نار الشوق العارم ، والأحرى بهذا الشاعر أن نستزيده ، فنشاهد معه الظباء الرائعة بضفاف النيل ، ونستمع تأوهاته وهو يصيح من بعد : « آهاً على مصر » بعد أن شابت لمّته :

ومالىَ لا أبكى على درِّ مَبْسِمٍ ... كما بكتِ الخنساءُ قبلى على صخرِ
وأُجرى عيون الدمعِ فائضةً على ... عيونِ المَهَا بَينَ الجزيرة والجسرِ
ظِباءٌ بشطَّىْ نيل مصرَ لأَجلِها ... يقولُ حنينُ الشوقِ : آهًا على مصرِ
خليلىَّ شابَتْ فى النواظِرِ لِمَّتى ... وشبَّ الأَسَى نارَ التذكُّرِ فى صدرى
سَقَى اللهُ أيامَ الشبابِ التى خَلَتْ ... من السحبِ أحلَى مايسيلُ من القَطْرِ [2]

لن أفيض فى الحديث عن هذه الأبيات ، وأكتفى بالإشارة إلى توجع الشاعر على أيام شبابه ، ويدعو له بالسقيا . نصحو من هذه النشوة النباتية ، ونعود ثانية مع الشاعر لنعيش فى واقعه غريباً عن وطنه ، ذلك لأن الدهر كان يحاربه ، وليس له إلا صاحبه علاء الدين ، فهو الذى يستطيع أن يشفع له عند

(١) الديوان ص ٣١ .
(٢) الديوان ص ٢٠٠ .

السلطان ، فيأمر بعودته بعد أن طالت هذه الحرب الشعواء بينه وبين دهره :

والدهرُ سلْمٌ كيفما حاولتُهُ لا مثلَ دهري فى دمشقَ مُحاربا
هيْهاتَ يَقرُبُنى الزمانُ أذًى وقد بَلَغَتْ شِكايتَى العلاءَ الصاحبَا (١)

توثقت المحبة بينه وبين العلاء الصاحب ، وطفق يمدحه فى كل مناسبة ، ويبعث بمدائحه إليه بعد أن ترامى إلى سمعه أنه يسعى لدى السلطان ليرسم أمره بعودته بعد أن أصبحت حياته مستحيلة فى الشام . وتم الأمر — كما ذكرنا — وعاد الشاعر إلى وطنه تاركاً هناك زوجه وأولاده وحدهم :

ورُبَّ شائمةٍ عزمى ومُرْتَحلى إلى حِمَى مصرَ أشكو جفوةَ الشامِ
قالتْ :وراءك أطفالٌ ،فقلتُ لهَا : نعمْ ونُعْمَى ابنِ فضلِ الله قُدَّامِى (٢)

ننتقل مع ابن نباتة إلى أرض الكنانة ، ونصور حياته فى هذه الفترة وعلاقته بالعلاء الصاحب فما ينفك يمدحه ، ولم يمض أكثر من عام حتى قتل السلطان كما ذكرنا ، وساءت حاله ، وذكر أولاده الذين تركهم فى بلاد الشام وحدهم ؛ وقد صور شوقه إليهم خير تصوير فى هذه القصيدة التى قالها يمدحه بها :

إذا دعا خـادمُ شـجوٍ إلى دمعٍ جرَى فى الحالِ مَرجانُهْ
فقلبُـهُ فى مصرَ مستودعٌ وفى أقاصى الشـامِ جُثمانُهْ
أغصَّـهُ النيـلُ بدمعِ الأسى ومرَّتْ ذِكـراهُ حُلوانُهْ (٣)

إن هذه الأبيات تصور شوقه لأولاده ، وتخرج لنا صورة رائعة عن الحنان الأبوى . يضاف إلى ذلك انطباع هذه الصورة بالطابع المصرى الصميم، ونعثر فى هذه الصورة على الثالوث الآخر الجديد ، وهو مصر والنيل

(١) الديوان ص ٣٧ .
(٢) الديوان ص ٤٤٢ .
(٣) الديوان ص ٤٩٩ .

وحلوان ، وقد رأيناه من قبل يضم مصر والنيل والأهرام . ثم يخاطب بعد ذلك صاحبه العلاء :

يا سيِّدى دعوةَ ذى حالةٍ أحالَهَا الدهرُ وعُدوانُهْ
تَفليسُهُ فى الشامِ بعد الغنى يَقْضى بأَنَّ القلبَ حرَّانُهْ
فارقَ أولادًا وأهـلًا وما تحمَّلَتْ للبَيْنِ أَظعانُهْ
ذو الفَقر فى أوطانِه نـأْيُهُ وذو الغِنَى فى النـأْىِ أوطانُهْ
ضاقَ بهِ إلا إليكَ الفَضا وحثَّـه حاشَاكَ حـرمانُهْ
فالدهرُ لونٌ واحدٌ عندَهُ طُرًّا وعندَ الناسِ ألوانُهْ(١)

سما فى هذه الأبيات إلى آفاق الحكمة ، فقابل بين الفقر والغنى ، والغربة والوطن ، لكننا لانقف عند هذا اللون من وصف سوء حاله وغربة عياله ، وإنما ننتقل لمكانة الشاعر ، فهو يذكر صديقه بأنه أمير الشعر والشعراء :

أنا أميرُ الشعرِ فى وصفِ ذا ومدحِ ذا ، رُتِّبَ ديوانُهُ(٢)

لكن حاله تحسنت بعد ذلك فى مصر ، فصار فى غنى ويسر ، وأما أولاده الذين كانوا بعيدين عنه فى دمشق فهم فى سوء حال من فقر وعسر ، وقد وصف الشاعر هذه الحال فى قصيدة له من السبعة السيارة :

أصبحتُ بعدَ تطاولِ الأيامِ قلبى بموضع قالبى بالشامِ
إنْ مُتُّ مِنْ حزنٍ فإنَّ بنى قَد ماتَوا بشامِهِمُ من الإعدامِ
يا للوزيرين اللذين هما هما لا ترحمـانى وارحما أيتـامى
مَنْ لى بحَمْلِهِمُ على عينى فما لى نحو حملهمُ على أقـدامى

---

(١) الديوان ص ٤٩٩ .
(٢) الديوان ص ٤٩٨.

فيكون جبرُكما لقلبي جبرَهمْ   فهُمُ على كلّ الوجوه عظامِى
يا عِصمةَ لأَراملٍ ، وثِمـــالَ أيـ   ـتامٍ بقيتمْ عِصْمةَ الإســـلامِ
أَقْسَمْتُ لولا جاهُكم ونوالُكمْ   أَصبحتُ لا خلفى ولا قدّامى [1]

لم يطل العهد كثيراً . فعاد العيال ومعهم ربة البيت . فهم على كل الوجوه عظامه . وأعتقد أن عودتهم تمت بعد مقتل السلطان الناصر حسن . ذلك أن معظم قصائده التى حوت ذكر أولاده الغائبين اقتصرت على شعره فى العلاء الصاحب . فلنستمع إليه ينشده بعد أن وصلوا أرض مصر :

جاء العيالُ وذاتُ البين قاليةٌ   بالبعدِ تَجعلُ بيتَ القلبِ مكسورَا
وكلُّ مَنْ شئْتَ أَوْمَنْ لمْ أَشأْ بُعِثَتْ   لهم صِلاتُك مخفيًّا ومشهورَا
حتّى الأَجانبُ زادوا ضعفَ عائلتى   وربّةُ البيت أَضْحَتْ بينهمْ [2] بُورَا [3]

ساءت العلاقة بين الشاعر وبين علائه . وقد توضح لى هذا الأمر من خلال إحدى قصائده التى مدحه بها، وهو فى مصر . وقد استعطفه فيها وذكر له أنه برىء . ولو أنه أذنب لاعترف بذنبه . ويشير إلى معشر من الناس كانوا يدفعونه عن قوت يومه ؛ وكأنهم قد ساءهم أن يتناول معلومه من الديوان دون أن يُكلَّف عناء الحضور . كما جرت العادة على ذلك منذ أيام السلطان الناصر حسن . فلنستمع إليه يعتذر قائلا :

إذا رَفَعتْ قدرى بمدحِكَ ليلةٌ   تيقَّنَ قصدِى أنها ليلةُ القَدْرِ
وقضَّيتُها ، والنيِّراتُ تَمدُّنى   سَلامًا وتسليمًا إلى مطلعِ الفجرِ
على أنَّ عندى كأْسَ شَكْوَى أُديرُها   على السمع مَمْزوجًا بمَدمعى الغَمْرِ [4]

---

(١) الديوان ص ٤٦٢ .

(٢) البوار : الهلاك ، والبور بالضم الهالك يستوى فيه الاثنان والجمع والمؤنث ، فيقال ، رجل بور ، ورجلان بور ، وقوم بور ، وكذلك الأنثى .

(٣) الديوان ص ٢٢٨ .

(٤) الديوان ص ٢٠٢ .

أما هذه الشكوى التي مزجها بمدمعه الغمر ، وهو يديرها على مسمع صاحبه فهي :

أَيُكسرُ حالي بالجَفاءِ وطالما   تعوّدتُ من نُعماكَ عاطفةَ الجَبْرِ
ويَدفعُني عن قوتِ يومِيَ معشرٌ   وأَنتَ عليهمْ نافذُ النهي والأَمرِ
ولو كانَ ذنبٌ لاعتَرَفْتُ بهِ ولا   تَحيّلتُ في عذرولا جئتُ عن عُفْرِ[1][2]

إنها حقًّا كأس شكوى مريرة لأن معشراً من إخوانه يحاولون أن يحرموه قوت يومه ويخلص من ذلك ليقول له إنه غير مذنب . ولو أنه قد أذنب لاعترف بما قدم ، ولما حاول أن يفتش لنفسه عن عذر مقبول . لكن الشاعر قد عرف قدر نفسه ، وهو سلطان شعراء الشرق . فترك الاعتذار جانباً ، وأفهم الصاحب العلاء بصريح العبارة أن مدائحه حلت بالشعرى في السماء . وأضاءتها بأنوارها وسنائها . وأنى لمثله أن يطفىء هذه الشعلة الخالدة التي تألق بها مجده ؟

أَحاشيكَ أَن يَدجو زمانيَ بَعْدَ ما   أَضاءتْ بشِعْرَيَ في المدائحِ من شِعرِي
بنيتُ على ضَمٍّ ولاءَكَ في الحَشا   فلا تَبْنِ بيتَ القلبِ منِّي على كسرِ
وإنْ تخْفَ ياذا السرِّ عنكَ محبَّتي   فشاهدُ حبي عالمُ السرِّ والجهرِ[3]

هكذا كانت أيامه الأخيرة مع آخر ممدوح في حياته ، وقد آن له أن يرتاح من حياة كلها تعب قضاها بين مصر والشام. فتارة كانت تصفو له . فينهل من أفاويقها كؤوس الصفاء . وتارة أخرى كانت تتجهم أمامه ، وتذيقه من مصائبها كؤوس الصاب والعلقم . حتى اقتربت منيته . وآذنت الشعلة النباتية بالخمود والهمود .

---

(١) العفْر : البعد ، وقلة الزيارة ، وطول العهد ، يقال : (ما تأتينا إلا عن عفر) ، أى بعد قلة زيارة وفى الأساس : (أتانا عن عفر) أى بعد حين .
وقد صحفت فى ديوان الشاعر ، فكانت (من غفر) والصواب ما أثبتناه .

(٢) الديوان ص ٢٠٢ .

(٣) المصدر السابق .

٤

انطفاء الشعلة النباتية

تمنى ابن نباتة حينما رثى صديقه شيخ الشافعية تقى الدين السبكى وهو فى بلاد الشام أن يعود إلى مصر لعل بطون ثراها تجمعه به وبها ولو كان ميتاً :

منْ لى بمصرَ التى ضمَّتْكَ تجمعُنا ولو بطونُ الثرَى فيها فيا طربى

لقد أمهلته المنية حتى عاد إلى مصر ، وقرّ بها عيناً ، وشرب من معين نيلها بعد أن كان نيل مدامعه ينهمل مدراراً لذكراها .

لم يبق من العمر إلا أقله ، وهذه أواخره قد أفصحت من أفقها البعيد ، وقد أحس الشاعر بقرب الأجل ، فأودع فى إحدى مقطعاته نداءه لصاحبه :

صاحِ هذى أواخرُ العمرِ قدْ ولَّ ى وهذى أواخِرُ الأشعارِ
أنجمٌ قلتُهـا أوانَ مَشيبِى فهْىَ ـ لا شكَّ ـ أنجمُ الأسحارِ[1]

ها هى ذى المنية تتقدم إليه ، فلا يخشاها ، بل يذكر أولاده الكثيرين الذين دفنهم فى حياته ، وعدّهم ستة عشر ولداً [2] ، ويذكر أباه ، ويترحم عليه ، وقد سبقه إلى الموت فى بلاد الشام قبل ثمانى عشرة سنة ، وينشد فى آخر أيامه يذكرهم جميعاً :

تأخَّرتُ عنكمْ يابَنِىَّ ، ويا أبى وما أنَا إلَّا البعضُ ماضٍ جميعُه
وعودٌ نباتى مَتى يَرْتجى بَقـا ؟ وقد ماتَ عنهُ أهلُهُ وفُروعُه[3]

ذبل هذا العود النباتى ، وانطفأت هذه الشعلة النباتية ، فى القاهرة[4] ،

---

(١) الديوان ص ٢٥٠ .
(٢) المنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ ورقة ٣٠٠ .
(٣) الديوان ص ٣٢٠ .
(٤) طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٣١ والموسوعة الإسلامية جـ ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

ويظهر أنه كان يعالج فى المارستان المنصورى فى أواخر أيامه[١] ، وكانت وفاته فى يوم الثلاثاء[٢] السابع[٣] أو الثامن[٤] من شهر صفر سنة ثمان وستين وسبعمائة[٥] بمنزله بزقاق القناديل[٦] الموافق لشهر تشرين أول « أكتوبر » سنة ١٣٦٦م. وقد شيع جثمانه ودفن بمقابر الصوفية[٧] خارج باب النصر[٨] ، فى خانقاه سعيد السعداء[٩] ، فعليه الرحمة والسلام يوم ولد ويوم مات .

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٧ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ ورقة ٢٩٩ ، والنجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٩٥ .

(٢) مقدمة الديوان ص د .

(٣) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٧ ، والنجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٩٥ ، ومقدمة الديوان ص د ، والموسوعة الإسلامية ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٤) البدر الطالع جـ ٢ ص ٢٥٢ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ ورقة ٣٠٠ .

(٥) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٧ ، وبدائع الزهور جـ ١ ص ٢٢١ ، والموسوعة الإسلامية جـ ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ومقدمة الديوان ص د ، وطبقات الشافعية الكبرى جـ ٦ ص ٣١ ، وحسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٥ ، والنجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٩٥ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ ورقة ٣٠٠ .

(٦) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٩٥ .

(٧) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٧ .

(٨) مقدمة الديوان ص د .

(٩) مقدمة الديوان ص د .

الفصل الثالث

آثاره الأدبية

بقي علينا أن نتناول في بحث اليوم أدب ابن نباتة ، وقد درسه الأقدمون من معاصريه والتابعين لهم دراسة عميقة. وقاسوه بموازين عصره ، وذلك لأنه ممثل الزعامة الأدبية . ويندر أن نجد ترجمة له دون أن يقال عنه : « إنه شاعر العصر [١]». أو « شاعر المشرق »[٢]. أو « حامل لواء الشعراء في زمانه »[٣]، أو « شاعر الوقت »[٤] أو « شاعر الشام »[٥]. أو غيرها من الألقاب التي خص بها دون غيره . والغريب جداً أن تهمل دراسة آدابه . وبقي هذا الأدب في طي الإهمال دون أية محاولة لنشره . والعجيب أيضاً ألا تنشر آثاره كاملة بل تبقى غريبة كصاحبها في حياته ومبعثرة بين أقطار المعمورة لاتزال مخطوطة حتى الآن في لندن وفينا وباريس وغيرها من أمهات عواصم الغرب. وقد بلغت ثلاثة وثلاثين كتاباً بين مخطوط ومطبوع ومفقود .

إن ما طالعته من مؤلفاته . وما استطعت الوصول إليه من سائر آثاره المخطوطة ، وما عثرت عليه من شذرات هنا وهناك في بطون كتب الأدب والتاريخ ، يكفي بعض الكفاية . لكي يعطينا صورة واضحة . تدلنا على أهميته كزعيم كبير لأهم مذهب شعري ظهر في عصره .

أثار ابن نباتة خلال إقامته في بلاد الشام مدة لاتقل عن خمس وأربعين سنة حركة أدبية ، شملت مصر والشام معاً ، لأنهما تؤلفان وحدة سياسية وفكرية في آن واحد ، ولكي ندرس هذه الحركة الأدبية لابد لنا من دراسة آثاره الأدبية .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ٣١ .
(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٢ .
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ٣١ .
(٤) تاج العروس ص ٥٩٠ .
(٥) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٣ .

لم نعثر على أى أثر ألفه ابن نباتة فى مصر قبل رحيله إلى بلاد الشام ، لأنه كان آنئذ أديباً مغموراً ، ويرجع الفضل الأكبر فى تشجيعه على التأليف إلى الملك المؤيد أبى الفداء الذى أجرى عليه كل عام راتباً سوى ما يتحفه به من الهدايا فى كل مناسبة يلقاه فيها[١]. وقد وفى ابن نباتة حقه من الثناء والتقدير فى فاتحة كل كتاب ألفه بإشارة منه ، وذكر لنا تشجيعه له ومؤازرته فى حفظ المؤلفات فى الخزائن الشريفة السلطانية المؤيدية. وذلك فى معرض إجازته للصفدى : وأما مصنفاتى التى هى كالياسمين لاتساوى جمعها ، ولولا جبر الخزائن الشريفة السلطانية الملكية المؤيدية لما استجزت نصبها ورفعها فهى : «كتاب مطلع الفوائد ومجمع الفرائد» ، وكتاب «منتخب الهدية فى المدائح المؤيدية» ، و «الفاضل من إنشاء الفاضل» و«زهر المنثور» . و «إبراز الأخبار» . و«شعائر البيت التقوى» . لم تكمل إلى الآن . والأرجوزة المسماة «فرائد السلوك فى مصايد الملوك»[٢].

هذه بعض مؤلفاته التى ألفها فى عهد الملك المؤيد حتى عام ثلاثين وسبعمائة ، بدليل أن الصفدى استجازه — كما هو مفهوم من الإجازة — سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وقد ذكر ابن نباتة أنه أبطأ فى الجواب . ولكنه فضل أن يبطىء ولا يخطئ كما يقول . يضاف إلى هذه مؤلفات أخرى ظهرت فى الفترة التى تلتها . وسوف نأتى على شرحها وتعريفها فى مكانها من هذا الفصل . يمكننا أن نصنف الآثار المذكورة — قبل البدء بدراستها — ضمن زمرتين : آثاره الشعرية ، وآثاره النثرية .

---

(١) الدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٧٣ .

(٢) خزانة الأدب ص ٢٩٢ ، والدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٧٣ ، والوافى بالوفيات ص ٣١٤ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ ورقة ٧١ .

القسم الأول

دواوينه الشعرية

الديوان الكبير

نبحث — بالطبع — أول ما نبحث ديوان شعره، وقد عثرت على عدة مخطوطات له[١] وطبع مراراً[٢]، لكن معظم هذه الطبعات مغلوط وغير محقق، وتحتاج لجهود كبيرة لتهذيبها وتشذيبها، ولعلنا نقوى على ذلك فى يوم من الأيام.

لم يشأ الشاعر أن يكون شعره كله حبيس ديوانه، ولذلك نراه قد صنفه منذ أول عهده تصنيفاً طريفاً، فهو قد جمع بين أمرين: تصنيفه بحسب الأغراض الشعرية كبعض الدواوين الصغيرة، وتصنيفه الآخر بحسب الهيكل العام للقصائد، وعدد أبياتها، وكأنما كان يجمع فى ذلك التقسيم بين القديم والجديد.

يضاف إلى ذلك إكثاره من نظم المقطعات الشعرية الصغيرة المؤلفة من بيتين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة. أما القصائد المؤلفة من سبعة أبيات فسماها: السبعة السيارة.

حاول الأقدمون جمع شعره كله بما فيه الدواوين الصغيره بديوان كبير، وكان على رأس هؤلاء بدر الدين البشتكى الذى جمع ديوان الأصل مع سائر دواوينه الأخرى. وضم إليها المقطعات الشعرية المختلفة، فكان لنا من ذلك الديوان الكبير الذى عرف بين الناس وتداولوه منذ القديم. أشار البشتكى إلى ذلك فى فاتحة الديوان فقال: جمعته من ديوان الأصل، و« ظرائف الزيادة »، و« مطالع الستة » و « المؤيديات»، و« القطر النباتى»، و« جلاسة

---

(١) توجد نسخة خطية منه بدار الكتب المصرية، والمكتبة التيمورية ومكتبة طلعت، كما أن هناك نسخاً أخرى موزعة فى مكاتب العالم أشير إليها فى ملحق فهرس الكتب العربية المخطوطة المحفوظة بالمتحف البريطانى برقم ١٠٨٦.

(٢) طبع بالإسكندرية طبعة مجهولة التاريخ، وطبع جزء آخر فى المطبعة الوطنية بمصر سنة ١٢٨٨ هـ، وطبع فى مطبعة التمدن بمصر أيضاً سنة ١٣٢٣ هـ، وهى الطبعة التى اعتمدناها فى هذه الدراسة بالرغم مما فيها من الأخطاء.

القطر » ، و « السوق الرقيق » ، والسبعة السيارة » ، وغالبها بخطه [١].

أشارت بعض المصادر القديمة إلى الديوان الكبير ، فذكر ابن حجة فى خزانته : « وكنت أظن أن هذه النكتة من اختراع الشيخ عز الدين الموصلى إلى أن وقفت على الديوان الكبير من نظم الشيخ جمال الدين بن نباتة ، فوجدته قد أخذها منه ، إلا أن يكون وقع حافر على حافر »[٢].

لكنه لايجمع مع ذلك كل شعره ، لأننى عثرت على مقطوعات وقصائد لم تنشر فى الديوان الكبير ، وقد لاحظ الأقدمون ذلك ، فأشار الشوكانى إلى هذا النقص فى البدر الطالع فى معرض ترجمته للبدر البشتكى تلميذ ابن نباتة : « وجمع ديوان شيخه ابن نباتة ، وفاته كثير منه . فاستدرك ابن حجر مما فاته من شعر ابن نباتة نحو مجلد »[٣] .

كما ذكر الشوكانى أيضاً أن « ديوان شعره مجلد لطيف ، كله غرر ، وهو موجود بأيدى الناس »[٤]

لم يقتصر الاستدراك على ابن حجر ، فقد عثرنا بأخرة فى دار الكتب الظاهرية على زيادات مستدركة على ديوان ابن نباتة . وقد جمعها رمضان ابن موسى العطيفى سنة ١٠٤٦ هـ . وقد أشار إلى عمله هذا فى عنوان الديوان وفى مطلع القسم المستدرك بعد انتهائه من نسخه بقوله : « كنت كتبت ديوان الشيخ جمال الدين بن نباتة من النسخة التى جمعها بدر الدين البشتكى . ثم وقفت بعد ذلك على نسخة فيها شىء زائد على ما جمعه البدر البشتكى . فأحببت أن يضاف إليه . فما كان ناقصاً من القصيد أكملته على هامش النسخة كما ترى، والباقى كتبته فى هذه الأوراق . واتكالى فى جميع أمورى على الله الخلاق »[٥] .

---

(١) مقدمة الديوان ص د .

(٢) الخزانة ص ٣٣٣ .

(٣) البدر الطالع ج ٢ ص ٩٤ .

(٤) البدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٥) زيادات ديوان ابن نباتة (مخطوط) ، ورقة ١١٨ – ١٦٩ .

يضاف إلى هذه الدواوين الشعرية التى ألفها الشاعر وجمعت فى ديوان كبير واحد بعض الآثار الشعرية الأخرى التى هى منتخبات ومختارات من دواوين الشعراء الآخرين قدامى ومحدثين ، وسنحاول أن نلم ببعض هذه الآثار .

القطر النباتى

اقتصر فيه الشاعر على مقاطيع مختارة من شعره الرقيق مما له علاقة بمذهب الشاعر فى التورية . وقد سمعه الصفدى من لفظه[1] ، والجدير بالذكر أنه كان يجتمع بالشاعر فى الجامع الأموى عند شباك الكاملية وقد كتب إليه ذات مرة ، وهو فى القاهرة[1] :

بحقِّكَ لا تقلْ فيمن تقضَّى وفاتَ لقد مضى بالطيِّباتِ
وراحَ وشعرُه حلو رقيقٌ فما يتكلَّمُ (القطرُ النباتِى)

أشار الشاعر مورّياً إلى ديوانه هذا فى التوقيع الذى هيأه ليدخل به ديوان الإنشاء بقوله : « ويبطر الأفهام نمام كلامه الحلو ، فيتحقق الناس أنه " القطر النباتى "» [2].

جاء فى مقدمة هذا الديوان قول المؤلف : « كنت قدّمتُ ، لمن شرف لفظى لديه ، وعُرف قدم انتسابى إليه ، نبذة من قصائد شعرى المطوّلة ، وعرضتها على نقد خواطره المتطوّلة ، فقامت نبذة من المقاطيع تمدُّ لحظها ، وتطلب حظها ، قائلة : طالما كنا لك فى المقاصد أعوانا ، وقاتلنا معك فى الأغراض فاجعل لأسمائنا فى العرض ديوانا ؛ فجمعت منها فى هذه الأوراق ما إذا لحظته سعادته ، وأمدّته إفادته ، استطرفت فنه الأفهام ،

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٧ ، ٢٢١ ، وكشف الظنون جـ ٢ ص ٢٣٥١ ، والبدر الطالع جـ٢ ص ٣٥٢ ، والخزانة ص٢٩٢ ، والوافى بالوفيات ص٢١٤ ، والمنهل الصافى (مخطوط) ورقة ٧١ جـ ٦ . ومنه نسخة مخطوطة فى المكتبة الأهلية بباريس رقم (Arabe 2234) فى مجموع . كما ذكر الزركلى أنه رأى منه نسخة بمكتبة اللورنزيانة (Orien 286)

(٢) الوافى بالوفيات ص ٣١٩ .

(٣) الوافى بالوفيات ص ٣٢٧ .

وتسترت وجوه الأزاهر خجلا منه بالاكمام ، وسميتها (القطر النباتى) لأنها قطر من وابل ، ولأن اسم " أبجد " المشهور لهذه التورية قابل » [١]

يتألف هذا الديوان من خمسة فصول : أولها فى المدح والشكر والهناء وما أشبه ذلك ، والثانى فى الغزل وما أشبهه ، والثالث فى الرثاء . والرابع فى المداعبة والمجون ، والخامس فى الأوصاف والأغراض المختلفة .

تناقل الأقدمون هذا الديوان لأنه يمثل المذهب الشعرى السائد فى هذا العصر . فهو ضرورى لكل شاعر ومتأدب لينسج على منواله . يقول تقى الدين البدرى : « ونقلت من "القطر النباتى" قول الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة :

ربَّ راحٍ بِتُّ أشربُهـا مِنْ يَدَىْ حُلْوِ اللَّمَى خَنِثِ »[٢]

لاحظنا أن ابن حجة اعتمد على هذا الديوان فى باب التورية من شرح بديعيته ، ولانبالغ إن قلنا : إن معظم ما فى هذا الباب مستمد من هذا الديوان .

منتخب الهدية فى المدائح المؤيدية

جمع الشاعر مدائح الملك المؤيد فى ديوان مستقل لكثرتها وأهميتها ، وسماه « منتخب الهدية فى المدائح المؤيديه »[٣] . وقد أطلق عليه القدماء أيضاً اسم « المؤيديات » و « الديوان الصغير » و « ديوان ابن نباتة »

تحدث الشاعر فى خطبة هذا الديوان عن الملك المؤيد . ومما قاله بعد الحمد والصلاة : « فإنى لما نسبت بالمدائح السلطانية . الملكية المؤيدية العمادية . واشتهرت بذكرها اشتهار السجع فى الحمام . وعرفت فى تسطيرها بجمل ألف القلم وسرد لأمة الطرس فعُرِّفت — كما يقال — بالألف واللام . أمرنى بعض

---

(١) القطر النباتى (مخطوط) ورقة ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) راحة الأرواح (مخطوط) ورقة ١٠٧ .

(٣) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٧ ، والخزانة ص ٢٩٢ ، والوافى بالوفيات ص ٢١٤ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٦ ورقة ٧١ ، وكشف الظنون جـ ٢ ص ١٨٥٠ وقد طبع بالمطبعة الكاستلية سنة ١٢٨٩ هـ ، وفى بيروت ١٣٠٤ هـ ، وفى مصر ١٣٢٣ هـ . ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة كوبلريل باستنبول بخط الشاعر ، وعنها مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

أولياء دولته الزّاهرة ، وأغنياء نعمته الباهرة ، أن أجمع له نبذة من تلك المدائح التى أجلبُ بضائعها لسوق كرمه ، والهدايا التى أقدّم بها كل عام لأبواب حرمه ، فقابلت بالطاعة أمره ، وقضيت لحاجته حاجة فى النفس مستترة ، وقلت : تاريخ فضل تزدحم الأسماع عليه ، وتصنيف أدب تتأدب التصانيف على الحقيقة بين يديه ، وألفاظ طوّقها المنّ فصدحتْ، ومعان نُفخت فيها أنفاسُ الفضل فنفحتْ ، وأوصاف شهية عرضتْ على الذّوق والعين فعذبتْ وملحتْ ، وفى مثل هذه النعمة يتنافس المتنافس ، وعندها تنادى ورقاء نفس القلم فوق فرعه المائس »[1] .

لايحتوى هذا الديوان الصغير للمؤيدات على كل ماقاله الشاعر فى الملك المؤيدّ من مدائح ، وإنما اقتصر على أربع وعشرين قصيدة وثلاث موشحات وزجل واحد، كما يضم عشر مقطوعات ، منها سبع ثنائية ، وثلاث ثلاثية .

نظم السلوك فى مصايد الملوك

سمعها الصفدى من ابن نباتة ، وهى أرجوزة فى وصف رحلة صيد ممتعة ، صحب الشاعر فيها الملك الأفضل وعدد أبياتها سبعة وستون ومائة بيت ، وقد أشار إليها ابن حجة الحموى فى خزانته بمعرض حديثه عن الانسجامات إذ يقول : « ومن الانسجامات الموجزة التى لو أدركها الشريف لتطفل على نسيم أبياتها واعترف أن ما للصادح والباغم تغريد صادحاتها ، أرجوزة الشيخ جمال الدين بن نباتة الموسومة بـ « نظم السلوك فى مصايد الملوك »[2] .

تمثل هذه القصيدة اتجاهاً خاصًّا فى الشعر العربى فى ذلك العصر ، وهى تصف لنا الطبيعة الرائعة ، وتنتقل من وصفها إلى التحدث عن الطيور ، وذكر صيدها بالبندق، وقد عثرت على رسالة نثرية لشهاب الدين محمود، تدور حول

---

(١) المؤيديات ، ص ٢

(٢) الخزانة ص ٣١٥ ، والدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٨ ، ٢١٩ — ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، والديوان ص د وكشف الظنون ج ٢ ص ١٢٤٣ . منه نسخة مخطوطة فى برلين ، وأخرى فى مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ، ونشرها الدكتور أسعد طلس فى مجلة المجمع العلمى العراقى ، ج ٢ ص ٣٠٢ — ٣١٠ .

الموضوع ذاته فى كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل» . وتكاد تكون الطريقة واحدة فى عرض الصور الشعرية ، لولا أن هذه نظمت شعراً ، وهاتيك سطرت نثراً . وقد لفت نظرى أن ابن نباتة ألحق هذه الرسالة الشهابية التى سميت (رسالة البندق) بكتابه سجع المطوق . ويدلنا هذا على علاقة متبادلة فى هذا الفن الأدبى بين الشاعرين وبين أدباء العصر عامة .

كما لفت نظرى أيضاً فى هذه الأرجوزة الفريدة وصف مملكة حماة وطبيعتها ونواعيرها ووادیها ، فأحببت أن أورد مطلع هذه الأرجوزة لأبين أثر الطبيعة الحموية فى شعر ابن نباتة :

أثنى شذا الروضِ على فضلِ السحبْ ... واشتملتْ بالوشى أردافُ الكُثُب
ما بينَ نَوْرٍ مُسْفِرِ اللثَـامِ ... وزَهَرٍ يَضْحكُ فى الأكمامِ
إنْ كانت الأرضُ لهـا ذخائرُ ... فهىَ لعمـرى هـذه الأزاهرُ
قد بَسَطَتْها راحـةُ الغمائمِ ... بسطَ الدنانيرِ على الدراهمِ
أحسنُ بوجهِ الزمنِ الوسيمِ ... تَعْـرفُ فيـهِ نضرةَ النعيمِ
وحبّـذا وادى حماةَ الرحبُ ... حيثُ زُهِى العيشُ بهِ والعشبُ
أرضُ السناءِ والهناءِ والمـرحْ ... والأمنِ واليُمْنِ ورايات الفرحْ
ذاتُ النواعيرِ سـقاةِ التربِ ... وأُمهـاتِ عصفِـه[1] والأبِّ[2]
تَعلَّمتْ نوحَ الحَمامِ الهتَّفِ ... أيامَ كانتْ ذاتَ فرعٍ أهيف
فكلُّها ـن الحنينِ قلبُ ... لا سـيَّما والماءُ فيهـا صبُّ
للهِ ذاكَ السفحُ والوادى الغـرِدْ ... والماءُ معسولُ الرضابِ مطَّرِدْ
يصبو لها الرائى ويهفو السامعُ ... ويُحمدُ العاصى فكيفَ الطائعُ
إذا نظـرتَ للربا والنهرِ ... فارو عن الربيعِ أو عن جعفر
محاسـنٌ تُلهى العيونَ والفكرْ ... ربيعُ روضاتٍ وشُحـرورُ صَفَرْ
أمـامَ كلِّ منـزلٍ بستانُ ... وبينَ كل قريةٍ مَيـدانُ

(١) عصفه : العصف هو ورق الزرع أو بقله .
(٢) الأبّ : الكلأ والمرعى أو ما أنبتته الأرض من العشب رطبه ويابسه .

أمـا رأيتَ الوُرقَ فى الأوراقِ جـاذبَةَ القـلوب بالأطواق
فبـادرِ اللـذةَ يا فلانُ واغْنَمْ متى أمكنكَ الزمانُ
ولا تَقُلْ مَشْتَى ولا مَصِيفُ فكلُّ وقتٍ للهنـا شَـريفُ
كلُّ زمانٍ يَنقضى بالجـذَلْ زمانُ عيشٍ كيفما دارَ اعتدلْ
أحسنُ ما أذكرُ من أوقاتِهِ وخيرُ ما أبعثُ مـن لذاتِهِ
بروُزنا للصيـدِ فيـهِ والقَنَصْ وحوزُنا مِنْ مُرِّهِ أحلى الفرصْ
وأخذُنا الوحشَ من المسارِبِ وفعلُنا فى الطيرِ فوقَ الواجبِ
لما دَنا زمـانُ رمى البندُقِ[1] سِرْنا على وجهِ السرورِ المشرقِ. . .[2]

أما هذه الأرجوزة الرائعة فقد قيلت فى مدح الأفضل عند ما كان يدعى بلقبه الأول وهو المنصور ، ويعنى ذلك أنه ألفها له فى أول عهده بالحكم أو فى أواخر أيام أبيه المؤيد، وكان إذ ذاك ولياً للعهد .

المنتخب المنصورى

سمعه الصفدى من لفظه وهو الوحيد الذى ذكره من بين العلماء[3] ولعل الشاعر جمع فيه كل ما قاله فى مدح الملك الأفضل ، وسبق لنا أن ذكرنا أنه كان يسمى بالمنصور . على نمط ما فعله فى المدائح المؤيدية التى قالها فى أبيه

سوق الرقيق

اقتصر الشاعر فيه على انتخاب بعض أبيات قصائده فى النسيب والغزل وغير ذلك ، ويقف فيها عند بيت التخلص . ذكر جامع الديوان البشتكى أنه كان أحد مصادره فى جمع الديوان الكبير[4]، وقد ذكر لنا قصيدة غزلية قال إنها من سوق الرقيق ، وهى مؤلفة من أربعة أبيات :

---

(١) البندق : الذى يرمى به ، وهو فى الأصل ثمر شجر الواحدة منه بندقة .
(٢) الديوان ص ٥٨٥–٥٨٧ ، والخزانة ص ٣٢٥ ، والمنهل الصافى (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤
(٣) الوافى بالوفيات ص ٣٢٠
(٤) الدرر الكامنة ج٤ ص ٢١٧ ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، والديوان ص د ، و ص ٤٩ . ذكر بروكلمان أنه توجد منه نسخة مخطوطة فى مكتبة برلين ، وأخرى فى المكتبة الأهلية بباريس ، وقد أطلعت عليها وهى ضمن مجموع ، وشاء فيه « مختار ديوان الشيخ جمال الدين ابن نباتة المشهور بـ (سوق الرقيق) » رقم Arabe 3362 .

سلامٌ على عَهْدِ الصَّبابةِ والصِّبا سلامَ بعيد الدار لا غَرْوَ إن صَبا
مفـــارقُ أوطانٍ لهُ وشبيبة إذا شرَّقَتْ أهلُ التَّواصل غَرَّبا
يعاودُ أحشاهُ من الشوقِ فاطرٌ ويتلو عليهِ آخرَ الآى من « سَبَا »
وما زال صَبًّا بالأحبّةِ والهًا إلى أنْ حكاهُ دمعُهُ فتَصبّبا[1]

أشار تقى الدين البدرى إلى هذا الديوان . وقال : نقلت من (سوق الرقيق) للشيخ جمال الدين محمد بن نباتة قوله :

عوِّض بكأسىَ ماأتلفتُ من نَشَبِ فالكأسُ من فضةٍ والراحُ من ذَهَبِ[2]

رتّب هذا الديوان بحسب تسلسل الحروف الأبجدية .

جلاسة القطر

نظن أنه تتمة للقطر النباتى الذى ألفه فى المرحلة الأولى . أو أنه مختار من مؤلفه المذكور . ولم أعثر على أى إيضاح يتعلق بذلك سوى ما أشار إليه جامع ديوانه إلى أنه أحد مصادره . ولعل فيما ذكره ابن حجة فى خزانته عن جماعة نسجوا على منواله ما يعطينا شيئاً من الإيضاح يلقى النور على هذا الأمر : « وعارض الشيخ جمال الدين بن نباتة جماعة نسجوا على منواله فى عصره . لكن الذوق السليم يشهد أنهم جلاسة[3] قطره »[4] .

أورد ابن حجة هذا القول فى معرض الحديث عن التورية والاستخدام . وقد ألقى النور على هذه الجلاسة من القطر النباتى . إنها إذاً التورية . ونعتقد

---

(١) الديوان ص ٤٩ ، ولم نعثر عليها فى مخطوطة سوق الرقيق .

(٢) راحة الأرواح (مخطوط) ورقة ١٠٦ .

(٣) جلاسة : الجَلْس بالفتح الغليظ من العسل ، وبقية العسل فى الإناء ، وعند ابن سيده : الجَلْس هو العسل ، وقيل هو الشديد منه ، وقد سمى جُلاساً وجَلاّساً . قال سيبويه عن الخليل هو مشتق .

(٤) الخزانة ص ٥٥ .

بعد هذا أن المقصود بها هو المقطوعات الشعرية الصغيرة التى نظمها فى التورية والاستخدام ، وهذا يوضح لنا المذهب الرمزى الذى أخذ به نفسه ، وألف بسببه بعض الدواوين الشعرية الخاصة .

السبعة السيارة

هى كذلك أحد الدواوين الصغيرة التى اعتمد عليها البشتكى فى جمع ديوانه الكبير[١] وأعتقد أنها موجودة بكاملها فيه ، أما القصائد التى تتألف من سبعة أبيات فكثيرة جداً ، ولم يشر البشتكى إلى أنها من السبعة السيارة إلا فى مرات محدودة . ولعل هناك سبباً فى هذه التسمية وتحديد أبياتها بسبعة ، كما حددها العروضيون ، ولا يبعد أن يكون المؤيد قد اقترح عليه هذا الأسلوب فى الشعر فى أواخر حياته ، لأننا لانعثر خلال مطالعتنا الديوان إلا على بعض المؤيديات والأفضليات ، ويعنى هذا أنه بدأ بنظمها فى المراحل الأخيرة من حياته وطغت على شعره طغياناً كبيراً .

يؤيد ما نذهب إليه أن المنصور الثانى جد الملك المؤيد كان قد اقترح على شعرائه المادحين ألا تتجاوز القصيدة سبعة أبيات[٢] . ولعل المؤيد بدوره أطلع شاعره عن ذلك .

ثابر على أسلوبه فى السبعة السيارة حتى أواخر عمره . والدليل على ذلك أننا نجد مدائح كثيرة منها قيلت فى السلطان الناصر حسن وأمين سره علاء الدين ابن فضل الله .

أما موضوعاتها فمختلفة ، تجمع بين المدح والرثاء والغزل وغيرها من الأغراض المعروفة ، ولا يجمع هذه القصائد فى هذا الديوان الفريد إلا وحدة الهيكل الشعرى القائم على التقيد بعدد الأبيات . كما لاحظت أنه كان يخص قسماً من ممدوحيه بهذه السبعة السيارة ، نذكر منهم تاج الدين السبكى[٣] ، فمعظم مدائحه كادت

---

(١) الديوان ص ٤٦ ، ٧٤ ، ٢٢٥ ، ٣٠٨ ، ٣٤٩ ، ٤١٠ ، ٤٦١ ، ٥١٩ ، ٥٧٣ .

(٢) الديوان ص ٢٢٦ .

(٣) الديوان ص ١٥٨ ، ٢٢٦ ، ٣٠٩ ، ٣٤٩ ، ٥٧٤ .

تكون من هذا النوع ، ونور الدين بن حجر [1] وغيرهما من الممدوحين . وقد لفت نظرى استخدامه هذه التسمية فى معرض مديحه أيضاً ، وقد تبين لنا هذا عندما أنشده يتقاضى رسم مشمش . وحماة مشهورة بمشمشها الحموى الذائب :

مُبلبلُ أصداغٍ أثارتْ بلابلى ... وجرَّتْ هَوَى عشَّاقِها بالسلاسلِ
ومِشْمِشُ بستانٍ ثريّاهُ أشرقتْ ... وأينَ الثريّا من يدِ المتناولِ ؟
بلى إنْ تصافحْ بالرجا يدَ أحمدٍ ... تصافحْ ثُريّاها يدُ المتطاولِ
كريمٌ شكَتْ يُمنَى الغيوثِ شِمالَهُ ... فيالكَ من غيثٍ كريمِ الشمائلِ
مقسّمةٌ جدواهُ بينَ فواضلٍ ... لمدّاحهِ تُهدى وبينَ فضائلِ
تعلِّمهمْ نظمَ الثنا مُبْدعاتُه ... فيا لعقولٍ حثَّها بعقائِلِ
على « السبعةِ السيارة » امتازَ فضلُهُ ... فلازال ذا طَوْل [2] عليها وطائل [3]

تؤكد هذه السبعية أن كل قصائد هذا الديوان ذات سبعة أبيات هى بالضرورة من السبعة السيارة ، لأنه لم يذكر عندما أوردها جامع للديوان أنها من السبعة السيارة ، وإنما ذكر أنه أنشدها يتقاضى رسم مشمش ، دون أن يجشم نفسه عناء ذكر اسم الممدوح الذى قيلت فيه .

ظرائف الزيادة

نعتقد أنها مقطوعات شعرية صغيرة [4] تتألف من بيتين أو يزيد ، ولعل الشاعر أراد من ذلك أن يضمنها ملحة أو نكتة أو لغزاً أو ما يستحسنه من ظرائف المجون وطرائف الزيادة ، تدور حول إحدى تورياته البديعية أو غيرها ،

---

(١) الديوان ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٣٠٩ ، ٧٤ ، ١٥٨ .
(٢) الطول والطائل والطائلة : الفضل والقدرة والغنى والسعة .
(٣) الديوان ص ٤١٢ .
(٤) الديوان المقدمة ص د .

ولا نعرف عن هذا الديوان إلا أنه أحد المصادر التى اعتمد عليها البشتكى فى جمع الديوان الكبير .

مطالع الستة

دعتها بعض المصادر باسم مطالع السنة[١] . وهى تشمل مطالع قصائده فى الغزل والنسيب مما يتألف من ستة أبيات أو من القصائد التى تتألف بشكل عام من ستة أبيات ، إن جاز لنا أن ندعوها قصائد متجاوزين تعريف العروضيين .

والدليل على ذلك أن جامع الديوان البشتكى سمى قسماً من مقطوعاته الشعرية بحسب عدد أبياتها . فذكر « المثانى »[٢] . و« الثلاثيات »[٣] و« الخمسيات »[٤] و« السبعة السيارة » . لكنه لم يشر إلى المقطوعات التى تتألف من ستة أبيات إطلاقاً . وهى كثيرة موفورة العدد وأظن أن الصحيح هو ما أقوله . وأنها مطالع الستة لا مطالع السنة .

لم يقف ابن نباتة عند هذا الحد . بل سلك سبيل غيره من الشعراء السابقين أمثال أبى تمام وأبى عبادة وأبى العلاء . واختار من دواوين الشعراء جملة منها ديوان ابن الرومى . وديوان ابن سناء الملك . وديوان شرف الدين عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة . وديوان ابن قلاقس ، وديوان ابن حجاج[٥]

مختار ديوان ابن الرومى

يشتمل على طائفة من مختارات شعره فى ذكر النسيب والتشبيب والعتاب والاستعطاف والهجاء والرثاء والأوصاف وغير ذلك[٦] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الديوان ص ٤٩ .

(٣) الديوان ص ٧٦ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الوافى بالوفيات ص ٣٢٠ .

(٦) أرشدنا إلى هذا الديوان الأستاذ العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم ، وذكر أنه توجد منه

مختار ديوان الصاحب شرف الدين الأَنصارى

ذكره الصفدى فى جملة تصانيف الشاعر ، ولانعرف عنه شيئاً .

مختار ديوان ابن سناء الملك

ذكره الصفدى كذلك ، ولانعرف عنه شيئاً .

مختار ديوان ابن قلاقس

اختار ابن نباتة من هذا الديوان ما أعجبه وراق له ، وما يوافق مذهب العصر فى الشعر ، وما كان من أبناء فكره . وحذف منه ما نسب إليه فى ديوانه من غير شعره ، ورتبه على حروف المعجم ، وقد افتتح هذا الاختيار غير شعره ، ورتبه على حروف المعجم ، وقد افتتح هذا الاختيار بقوله : « طالعت ديوان الأديب البارع أبي الفتوح نصر الدين بن قلاقس . فطالعت الفن الغريب وفتح على بتأمل ألفاظه فتلوت : نصر من الله وفتح قريب ، بيد أنى وجدت له حسنات تبهر العقول فضلا ، وسيئات يكاد بذكرها ابن قلاقس يُقْلَى »[٢].

تعطينا هذه المقدمة فكرة عن الروح النقدية التى يتمتع بها ابن نباتة . وقد طالع ديوانه ، واختار منه حسناته وترك سيئاته بعد أن أشار إليها . عرض ابن حجة خلال حديثه عن « براعة الاستهلال » بعض ما اختاره ابن نباتة من شعر

= نسخة مخطوطة فى مكتبة أيا صوفيا بالآستانة ، وعنها مصورة دار الكتب المصرية برقم ٢٢٢ه أدب. انظر مقدمة (سرح العيون) ص ٢٢ .

(١) خزانة الأدب ص ٦ .

ابن قلاقس ومما قاله : « ومما اختاره الشيخ جمال الدين بن نباتة — رحمه الله — من ديوان أبي الفتوح نصر الدين بن قلاقس ، وهو حسن فى هذا الباب قوله :

كمْ مقلةٍ للشقيق الغضِّ رمداءِ   إنسانُها سابحٌ فى بحر أنداءِ

وقوله :

قفا واسألا منى زفيرًا وأدمعًا   أكانا لهمْ إلَّا مصيفًا ومربعا

وهو من الغايات التى اختارها ابن نباتة من شعر ابن قلاقس »[١] ، وقد ذكره الصفدى فى جملة مؤلفاته[٢] .

تلطيف المزاج فى شعر ابن حجاج

أشار الصفدى أيضاً إلى أن ابن نباتة اختار من ديوان شعر ابن حجاج[٣] ، وهو اختيار جيد ، وقد أعجب ابن حجة كثيراً بهذا الاختيار ، ونوّه كثيراً بمقدمة ابن نباتة ، وأوردها وأشار إليها مراراً . ولعل من الخير أن نورد هنا هذه المقدمة توضيحاً لرأيه فى شعر ابن حجاج ، إذ يقول فى خطبة كتابه : « فإنى رأيت نتائج أفكار الشعراء ذرية بعضها من بعض ، وأم أشعارهم تبعث جميعها فى صعيد واحد من الأرض إلا أشعار الأريب الفريد أبى عبد الله الحسين بن الحجاج ، فإنها أمة غريبة تبعث وحدها ، وذرية عجيبة تبلغ بإتقان اللهو واللعب رشدها ، لم يحط خاطر أحد بمثلها خبراً ، ولااستطاع على معارضة شهدها صبراً »[٤] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية بخط محمود النابلسى ، وأخرى بالمكتبة الأزهرية ، وطبع بمطبعة الجوائب بمصر سنة ١٣٢٣ هـ باسم (ديوان ابن قلاقس) بتصحيح الشاعر الكبير خليل مطران . انظر مقدمة تحقيق (شرح العيون) للأستاذ العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٣) الحسين بن أحمد ، وقد عرف بالفكاهة والمجون ، توفى ببغداد سنة ٣٩٨ .

(٤) تأهيل الغريب ص ٢٩٧ ، والخزانة ص ٤٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، وكشف الظنون جـ ١ ص ٤٨٠ ، وهذا الكتاب مخطوط فى أكسفورد و بودليانا .

يمثل ابن حجاج مدرسة خاصة فى الشعر العربى خلال القرن الرابع الهجرى، وقد فصلنا مذهب هذه المدرسة التحامقية فى عرضنا الحياة الفكرية ، ويكفى أن نشير إلى إعجاب ابن نباتة بهذا الأسلوب الفريد . وقد عثرنا على مقطّعات شعرية صغيرة تسير فى هذا الاتجاه . ولم يفصل الشاعر ذلك إلا تشبهاً بهذه المدرسة الغريبة ليكون قد أخذ من كل شىء بطرف ولاسيما وهو أمير شعراء العصر .

يؤسفنا أننا لن نجرؤ على إيراد نماذج تلطف مزاجنا من شعر ابن حجاج ، لأن حدود الحشمة تردعنا عن التمثل بها . ولا بأس علينا أن نورد من بعض القصائد مطلعها ، لأن مالا نستطيع أن نذكره كله لانترك أوله :

تفديكَ أمى وأبى وابنى وإنْ كانَ صبى
يا منْ إليه حيثما وجـدتُه منقلبى
يا من مديحُ غيرهِ عندى عزيزُ المطلبِ[1]

. . . . . .

وفى قصيدة أخرى يستهلها قائلا :

يا ديمةَ الصفع صُبى على قَفَا المتنبى[2]

. . . . . .

أظن أنه خير لنا أن نقف عند هذا الحد ، وقد أورد ابن حجة قدراً كبيراً مما اختاره ابن نباتة ، نكتفى بالإشارة إليها ، وهذا حسبنا ، وإن لم يكن لنا فيه تلطيف المزاج .

خبز الشعير

ليس بديوان شعر ، ولا بمختارات من دواوين الشعراء ، وإنما هو كتاب يصح أن ندرجه فى كتب نقد الشعر ، لأن ابن نباتة صور فيه ما وقع بينه وبين

(١) الخزانة ص ٤٦ ، ٤٧ (٢) الخزانة ص ٤٠٧ .

تلميذه صلاح الدين الصفدى ، إذ جمع كل ما سرقه منه أو عارضه به ، وسماه : « خبز الشعير » لأنه مأكول مذموم . فقوله مأكول لأنه سرق شعره ، وقوله : مذموم ، لأنه زعم أنه يسرق غيره من الشعراء ، فهو بذلك استوفى المثل العربى حقه فى تسميته كتابه هذا .

أما المثل العربى السائر فهو : (الشعير يؤكل ويذم) ، وقد ضرب هذا المثل لكل من ينتفع به ويجازى بالقبيح . ذلك أن الشعر يؤكل فيسمن ، ويغنى عن جوع وهو مذموم[٢] . والصورة الأخرى لهذا المثل القديم : (خبز الشعير يؤكل ويذم) ، وهذا كالمثل السابق أكلا وذمّا[٢] ، أعجب ابن حجة بهذا الكتاب ، فأشار إليه مراراً فى تصانيفه ، وذكره أكثر من مرتين فى خزانته حتى أورده كاملا فى باب التورية[٣] .

لا بأس أن نذكر مقدمة هذا الأثر ، لنعرف غرضه فيه وغايته منه ، وقد أوردها ابن حجة كاملة فى معرض حديثه عن براعات النثر فى الاستهلال[٤] ، واستهل خطبة الكتاب بقوله تعالى « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً .. » وقال بعدها : « اللهم ومن دخل بيتى كافراً بفوائدى المنعمة ، وبيت شعرى سارقاً من ألفاظه ومعانيه المحكمة ، فأخجلْه فى سره وعلانيته ، وعاقبْه على قوله ونيته ». وفيها يقول : « بلغنى أن بعض أدباء عصرنا ممن منحته ودّى ، وأنفقت على ذهنه الطالب ما عندى ، وأقمته — وهو لا يدرى الوزن — مقام من زكاه نقدى ، وأودعته ذخائر فكرى فأنفقها ، وأعرته أوراق العتيقة فلا والله ما ردّها ولا أعتقها ، بل إنه — والله — غيّر الثناء بالهجاء ، والولاء بالجفاء ، ونسبنى إلى سرقة بيوت الأشعار مع الغناء عنها والغنى ، فتغاضيت وقلت : همّاز مشّاء بنميم ، وغصة صديق أتجرعها من حميم ، وأخليت من حديثه باب فمى ومجلس صدرى ، وصرفت ذكره عن فكرى ، ولكن وقفت له على تصانيف وضعها فى علم الأدب

---

(١) شرح المفصل جـ ١ ص ٥ .

(٢) أمثال الميدانى جـ ١ ص ٣٣٤ .

(٣) خزانة الأدب ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٤) خزانة الأدب ص ١٣ ، ١٤ .

والعلم عند الله تعالى ، ووشحها بشعره وشعرى المغصوب المنهوب ، يقول صاحبى : (ألا لا)[١] وما يتوضح من جيد تلك الأشعار لمعة إلا ومن لفظى مشكاتها ، ولا تتضوع زهرة إلا وفى الحقيقة نباتها ، فضحكت — والله — من ذهنه الذاهل ، وذكرت على زعمه قول القائل :

وفتًى يقولُ الشعرَ إلَّا أنَّه فيما عَلِمْنا يَسْرِقُ المسروقا

وعجبت كيف رضى لنفسه هذا الأمر منكراً ، وكيف حلا لذوقه اللطيف هذا الحرام مكرراً ، وقد أوردت الآن فى هذا الكتاب قدراً كافياً ، ووزناً من الشعر وافياً ، سميته « خبز الشعير » المأكول المذموم ، وعرضته على مَعْدَلة مولانا ليعلم أينا مع خليله مظلوم؟ »[٢].

رتب ابن نباتة كتابه المذكور على قوله : (قلت أنا) فأخذه الشيخ صلاح الدين (وقال) ، ولعله من الواجب علينا أن نورد بعض ما قاله السارق والمسروق . ومما جاء فى خبز الشعير قوله :

— قلت أنا :

بروحى عاطرُ الأنفاسِ ألمى ملىَّ الحسن حالِى الوجنتين
له خالان فى دينار خدٍّ تباعُ له القلوبُ بحبتين

— فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى ، وقال :

بروحى خدُّه المحمرُّ أضحتْ عليهِ شامةٌ شرطَ المحبَّهْ
كأنَّ الحسنَ يعشقُه قديماً فنقَّطَهُ بدينار وحبَّهْ[٣]

فلما وقف ابن نباتة على هذين البيتين قال متهكما : (لا إله إلا الله ، سرق الشيخ صلاح الدين — كما يقال — من الحبتين حبة)[٤] هذا مظهر

---

(١) ضمن الشاعر قول سليك بن سلكة السعدى ، أحد صعاليك العرب :
ياصاحبىَّ ، ألا لا حىَّ بالوادى إلاَّ عبيدٌ وآمٌ بين أذواد
(الشعر والشعراء ج ١ ص ٣٢٦) .
(٢) خزانة الأدب ١٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٨٥ . (٤) المصدر السابق ص ٢٨٥ .

من مظاهر الحركة النقدية النباتية ، وكان هذا النزاع الأدبي يمثل لنا أثر أديبنا الكبير فى خلق هذه الثورة الأدبية فى عصره . ولعلى أصيب لو قلت : إن الصفدى أراد من ذلك استثارة ابن نباتة ليكسب شهرة بذلك . ولقد تعدى هذا الأمر هذا الطور ، وبلغ الأمر حداً جعل الصفدى ينعت أستاذه بالسرقة من أشعار العرب ، ولقد تأثر كثيراً ، وذكر أنه كان يود ألاّ يجيبه وألا يتعرض له ، لكنه لم يستطع عليه صبراً بل انبرى له، فكان ثمرة ذلك خبز الشعير .

وجدير بالذكر أن نشير فى ختام حديثنا عن آثاره الشعرية إلى أن ابن حجة اختار مجموعة من غرر شعره سماها « بياض النبات »[1] وهى ما تزال مخطوطة ، وأن أديباً مجهولا اختار من شعره مجموعة فى المديح وغيره ، سماها « الدرر المقتاتة من مختار شعر ابن نباتة » ، واستهلها بقوله : « قال الشيخ الإمام العلامة جمال الدين ، عمدة الأدباء فخر الكتاب . . . . »[2] .

تشتمل هذه الدرر المقتاتة على قصائد فى المديح وجور الظلمة ، وفى هامشها تقييدات ، وتليها نقول أدبية ، ولم تزل هذه المختارات مخطوطة كمعظم مؤلفاته المار ذكرها .

القسم الثانى

تصانيفه النثرية

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن أشهر آثاره النثرية — بالإضافة إلى آثاره الشعرية — قد وضعت للملك المؤيد أبى الفداء وبتشجيع منه . ولعل فيما أورده خلال إجازته للصفدى من ذكر أسماء مؤلفاته خير دليل على ما نذهب إليه ، بمثل ما يقوله ابن نباتة نفسه فى فاتحة خطبة كل كتاب . ولابد لنا لدراسة هذه الآثار من أن نصنفها بحسب مراحل تأليفها ، فنقسمها إلى زمرتين :

---

(١) توجد منها نسخه مخطوطة بخط ابن حجة فى مكتبة أحمد الثالث باستنبول .

(٢) توجد هذه المختارات ضمن مجموعة مخطوطة فى دار الكتب المصرية رقم ٧٣ مجاميع

١

آثار المرحلة الأولى

تنتهى هذه المرحلة بوفاة الملك المؤيد ، وأشهر آثاره التى صنفها هى التالية : كتاب « مطلع الفوائد ومجمع الفرائد » ، « وكتاب « سجع المطوق » ، وكتاب « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » ، وكتاب « الفاضل من إنشاء الفاضل » ، وكتاب « زهر المنثور » ، وكتاب « شعائر البيت التقوى » و « رسالة السيف والقلم » .

مطلع الفوائد ومجمع الفرائد

كتاب « نفيس فى الأدب »[1] موزع على ثلاثة أقسام : القسم الأول خاص بغرائب الحديث النبوى والأساليب العربية وأبيات المعانى المشكلة ، والقسم الثانى خاص بمبتدعات الشعراء ومخترعاتهم ، والقسم الثالث خاص بمبتدعات الكتاب المخترعة .

والكتاب على جانب كبير من الأهمية ، وكان المؤلف حريصاً فى القسم الثانى والقسم الثالث على بيان منزلته بالنسبة إلى الأدباء قديماً وحديثاً .

أشار المستشرق الفرنسى البارون دوسلان (Le Baron de Slane) إلى أهمية هذا الكتاب ، ووضعه ضمن الفهرس الذى وضعه للمخطوطات العربية[2] وضع المؤلف فيه ثمرة ثقافته الواسعة فى مصر والشام ، وقدمه للملك

---

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧ ، ٢٢١ ، والخزانة ص ٢٩٢ ، والوافى بالوفيات ص ٢١٤ ، وكشف الظنون ج ١ ص ١٧٢ ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، وتوجد منه نسخة خطية فى باريس ، رقم (Arabe 3344) ، ونسخة ثانية بمكتبة طلعت بدار الكتب المصرية برقم ٤٥١٠ أدب ، وثالثة بالمكتبة الأزهرية برقم ٤٧٣ أدب أباظة ، ورابعة بمكتبة خالت أفندى ، وعنها مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أتممت تحقيق هذا الكتاب القيم ، وهو الآن قيد النشر والطبع فى مجمع اللغة العربية بدمشق ، وسوف يتم صدوره فى بحر هذا العام .

(٢) De Slane : Catalogue des manuscrits Arabes No : 3344, P, 1558

المؤيد أبى الفداء ، وقد أحدث ثورة أدبية كبرى وحركة نقدية شاملة فى عصره ، فانبرى لتقريظه كبار أدباء العصر وشعرائه ، أمثال الشهاب محمود والقزوينى والزملكانى وغيرهم، وقد أشار عليه المؤيد أن يترجم للأدباء الفضلاء الذين تناولوا مؤلفه بالثناء فلبى أمره ، وكان لنا من ذلك كتابه سجع المطوق .

سجع المطوق

أما اسم هذا الكتاب[١] فيذكر ابن حجة أن ابن نباتة اقتبسه من لطائف أبى الحسين الجزار فى تورية المطوق كما فى قوله :

أنتَ طوّقْتَنى صنيعًا وأسمعْ ... تُكَ شكرًا كلاهما ما يضيعُ
فإذا ما شجاكَ سَجْعى فإنّى ... أنا ذاكَ المطوّقُ المسجوعُ[٢]

أشار ابن نباتة فى مقدمة الكتاب إلى سبب تأليفه ، وذكر سبب تسميته ، فقال : « وسميته سجع المطوق لتطويقى بالإنعام ، ولسجعى بالمحامد على غصون الأقلام »[٣] وقد ترجم للفضلاء الذين قرظوا كتابه « مجمع الفوائد » منهم الشهاب محمود ، والجلال القزوينى ، وكمال الدين بن العطار ، وأمين الدين بن النحاس ، وبهاء الدين بن غانم، وغيرهم . وأورد بعد ذلك نبذة من مكاتباته ، وقد ألحق بالكتاب بعض الرسائل الهامة مثل « مفاخرة بين الورد والنرجس » وغيرها[٤].

---

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧ ، والخزانة ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، والوافى بالوفيات ص ٢١٤ ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، ومنه نسخ خطية موجودة فى دار الكتب المصرية والمكتبة التيمورية ومكتبة طلعت والمكتبة الأزهرية ، ومنه نسخة أخرى مخطوطة فى المدرسة العبدلية فى الموصل، ذكرها الدكتور داود جلبى فى كتابه « مخطوطات الموصل » فى الصفحة ١٦٥ رقم ٤ ، ومنه نسخ أخرى فى دار الكتب المصرية ، وأيا صوفيا ، و حكيم أوغلى بإستنبول رقم ٤٤٥ وفى معهد المخطوطات (ف ٤٥٨ أدب) وهى بخط المؤلف نفسه .

(٢) خزانة الأدب ص ٢٥١ ، ٢٥٢ . (٣) سجع المطوق (مخطوط) ورقة ٢

(٤) المصدر السابق ورقة ٦٦ .

سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون

ألف ابن نباتة هذا الكتاب[١] أيضاً تلبية لطلب الملك المؤيد ، وقد أشار فى مقدمته إلى ذلك ، وأوضح أنه اعتذر للملك تواضعاً . وقد ألح عليه بقبول هذه المهمة . فقابل أمر الملك بالطاعة الواجبة . كما أوضح بعض العقبات التى اعترضت سبيله فى شرح رسالة ذى الوزارتين ابن زيدون ، وذكر أنه لم يتيسر له أن يراجع بعض الأسفار فى خزائن دمشق الوقفية[٢].

بدأ الرسالة فترجم لمنشئها ، وبين سبب إنشائها ، وتناولها بعد ذلك، فشرحها فقرة فقرة شرح أديب كبير ، وقد أحدث تأليفها آنذاك ضجة كبرى فى الأوساط الأدبية ، فتناولها كثير من الأدباء بالتعليق والشرح نذكر منهم الصفدى الذى شرحها، وسماها « تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون » .

طبع هذا الكتاب طبعات كثيرة فيها الخطأ والتحريف ، وقد ترجم للتركية ، وقام أخيراً المحقق الثبت الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم فنشر الكتاب نشراً علمياً سليماً ، وصنع له الفهارس المتنوعة التى تساعد الباحث على الإفادة من الكتاب المذكور .

الفاضل من إنشاء الفاضل

اختاره ابن نباتة من أدب القاضى الفاضل[٣] ، وذكر فى فاتحة خطبة الكتاب أنه أورد للملك المؤيد مقتطفات من أدبه ، فأمر أن يجمع ذلك فى سفر خاص .

---

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٨ ، ٢٢٣ ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، وخزانة الأدب ص ٢٩٢ ، والمنهل الصافى مخطوط ج ٦ ورقة ٧٠ ، ٧١ . وتوجد منه نسخة مخطوطة فى أكسفورد .

(٢) سرح العيون ص ٢ .

(٣) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٨ ، ٢٢١ ، والخزانة ص ٢٩٢ ، والوافى بالوفيات ص ٢١٤ ، والمنهل الصافى (مخطوط) ج ٢ ورقة ٧١ .

يحسن أن نورد مقدمته لتدلل على أثر أبي الفداء فى النهضة الأدبية ببلاد الشام ، وعلى تشجيعه لابن نباتة واعتماده عليه فى قيادة حركة التأليف فى عصره : « أما بعد حمد الله، ينشئ الخلق بصنعه ، والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه ، حزب الحق وجمعه ، فهذه فقر جليلة النماء والانتماء ، وكلمات طيبات أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، اخترتها من كلام سيدى القاضى الفاضل — رحمه الله — اختياراً يقوم عنى بوصفه ، وينأى عن الدر بعطفه ، وذلك أنى كنت أوردت فيه بالمواقف الشريفة السلطانية المؤيدية — نصرها الله — نبذة أصغى إليها إصغاء الخبير بسرها العارف بتبرها ، المطلع فى ليالى السطور على ليلة قدرها ، فجلبت لذلك السوق من هذه الجواهر ، وحملت ذلك الفكر بمثل هذه الأزاهر ، وذكرت هذا البيت الأيوبى برتب علمائه الذين هداهم وفتح بلهاه ظاهر . رضى الله عن ماضيه ، ونصر باقيه ، وشيد ببقاء عماده الشريف مبانيه »[1] .

زهر المنثور

كتاب[2] فى فن الترسل، وقد شاع التأليف فى هذا الموضوع كثيراً . نذكر من هؤلاء مثلا الشهاب محمود وغيره . وقد أورد ابن حجة شيئاً من هذا الكتاب فى معرض التمثيل على الاستعارة قائلا: « وقد عن لى أن أنثر فى حدائق الاستعارة نبذة من زهر المنثور . وأورد منه ما يزهو بوروده على روضات الزهور .

وقال جمال الدين بن نباتة: كتبها المملوك ومنظر الروض قد شاق ، ودمعُ

---

(١) الفاضل من إنشاء القاضل (مخطوط) ورقة ١ . توجد منه نسخة خطية فى مكتبة جامعة يال هافن فى أمريكا ، وقد وصفناه فى (المخطوطات العربية فى دور الكتب الأمريكية) ص ١٩ ، كما توجد نسخة خطية فى مكتبة المتحف البريطانى وعنها مصورة دار الكتب المصرية ، ونسخة بالمكتبة الأزهرية بعنوان (المختار من إنشاء القاضى الفاضل) .

(٢) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٢٨ ، ٢٢٣ ، وخزانة الأدب ص ٢٩٢ ، والوافى بالوفيات ص ٢١٤ ، والمنهل الصافى (مخطوط) ج ٢ ورقة ٧١ .

الغيث قد رقأ ووجه الأرض قد راق، وقدود الأغصان قد راسلت أهواء القلوب بالأوراق ، وقيان حمائمها قد ترنمت وجذبت القلوب بالأطواق ، والورد قد احمرّ خده الوسيم، وفكت أزراره من أجياد القضب أنامل النسيم، وخرجت أكفه من أكمامه لأخذ البيعة على الأزهار بالتقديم»[١].

هذا الكتاب فى ترسل ابن نباتة جارٍ على النهج الذى سار عليه القاضى الفاضل من قبل .

أبزار الأخبار

لا نعرف عنه إلا اسمه[٢]، وقد أشار إليه مؤلفه خلال إجازته للصفدى ، وورد فى الدرر الكامنة مصحفاً باسم « إيراد الأخبار » وفى الخزانة باسم « إبراز الأخبار » و« أبرار الأخيار» وقد اعتمدنا على ما أورده الصفدى لضبط اسمه .

شعائر البيت التقوى

يبدو أنه ألف هذا الكتاب لتخليد الملوك الأيوبيين الذين حكموا حماة ، وعلى رأسهم المظفر تقى الدين الذى تولى الملك سنة ٥٧٤هـ . وقد وهم ابن حجر فى ضبط اسمه أيضاً ، فأورده باسم شعائر البيت النبوى ، وقد اعتمدنا على الخزانة فى ضبط اسم هذا الكتاب، كما ذكر فى إجازته للصفدى أنه لم يتم حتى ذلك التاريخ[٣].

---

(١) خزانة الأدب ص ٤٩ .

(٢) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢٢٣ ، والخزانة ص ٢٩٢ ، والوافى بالوفيات ص ٢١٤ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٢ ورقة ٧١ .

(٣) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢٢٣ ، وخزانة الأدب ص ٢٩٢ ، والوافى بالوفيات ص ٢١٤ والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ٢ ورقة ٧١ . منها نسخة مخطوطة فى المكتبة التيمورية ، وقد طبعت فى بيروت سنة ١٣٠٢ هـ .

المفاخرة بين السيف والقلم

ألف ابن نباتة هذه الرسالة فى المفاخرة[١] وهو فى كنف أبى الفداء ، وقد أوردها ابن حجة كاملة فى معرض حديثه عن التغاير ، وقدم لهذه الرسالة بقوله : « وقد عن لى هنا أن أرفع بالمتأخرين فى التقديم راية ليعلم المنكر الفرق بين البداية والنهاية ، فإن الشيخ جمال الدين أظهر فى المغايرة بين السيف والقلم ما صدق به قول القائل :

وإنى وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُه لآتٍ بما لم تستطعْه الأوائلُ »[٢]

استطاع ابن نباتة أن يمثل لنا مسرحية رائعة ، أما بطلاها فهما السيف والقلم ، وأما الحكم فهو ملكه المؤيد . وقد استطاع أن يضفى على الرسالة حياة وحركة ، ولا بأس أن نلتقط هذه الصورة الأخيرة لهذه المفاخرة لنرى الحكم يفصل أخيراً بينهما بالعدل والقسطاس : « وقد رأيت أن يحكم بيننا المقام الأعظم الذى أشرت إلى يده الشريفة ، وتوسلت بمحاسنها اللطيفة ، فإنه مالك زمامنا ، ومنشئ نمامنا ، ومصرف كلامنا ، وحامل أعبائنا الذى ما هوى لهوى . . . وانتبه المملوك من سنة فكره ، وطالع بما اختلج سواد هذه الليلة فى سره ، والله تعالى يديم أيام مولانا السلطان التى هى نظام المفاخر ومقام المآثر ، وغوث الشاكى وغيث الشاكر ويمتع بظلال مقامه الذى لا تكسر الأيام مقدار ما هو جابر ، ولا تجبر ما هو كاسر »[٣] .

تحدث ابن حجة عن هذه الرسالة فى بحث براعات الاستهلال فقال : « ولقد كشف الشيخ جمال الدين بن نباتة عن هذا الوجه القناع ، وأظهر من بهجته فى رسالة السيف والقلم ما ليس لمطالع البدور عليه اطلاع ، فإن الرسالة مبنية على المفاخرة بينهما . . وما أظن أن أحداً من المتقدمين

---

(١) خزانة الأدب ص ١٠٤ – ١٠٩

(٢) خزانة الأدب ص ١٠٤ .

(٣) خزانة الأدب ص ١٠٩ .

نسج على هذا المنوال ، ولانفث فى عقد أقلامهم مثل هذا السحر الحلال »[١].

واختتم الناقد ابن حجة ذكر هذه الرسالة بقوله :

« تمت رسالة الشيخ جمال الدين التى كشف بها عن قناع المغايرة ، وأتى فيها بكل مثال ليس له مثيل ، ووسمها بصاحب حماة . فأطاعه عاصى الأدب ، ووهب له على الكبر إسماعيل »[٢] .

ورد ذكر هذه الرسالة فى « سجع المطوق » فقد أشار المؤلف فى معرض حديثه عن أمين الدين بن النحاس إلى أنه طلب منه أن يبعث بها إليه[٣]. وهذا يدلنا على أن أدباء عصره كانوا يتناقلون آثاره وتصانيفه الكثيرة .

المفاخرة بين الورد والنرجس

وهى أيضاً رسالة فى المفاخرة[٤] ، ولعل الرياض الغناء فى بلاد الشام وبساتين حماة القاهرة ذات النواعير النائحة كانت من العوامل التى فتقت ذهن الأديب فأنشأ هذه المفاخرة الفريدة .

لانبعد عن الحق إن قلنا إنها مسرحية رمزية مبسطة ، يضفى الحياة والحركة على أبطالها ، وأجمل ما فى هذه الرسالة تشخيص الأزهار بشكل جميل يوشحها بالسحر والفتنة . ولعلنا نقف لنستمع كلام الراوى : « فلما رأيت كلا منهما قد جاء فى حجته بالبرهان والدليل ، ولم يتضح لى أيهما أولى بالتفضيل ؟ وضاق على فى الفرق بينهما المسالك ، ورأيت مالكى فى المدينة ، فلم يجز لى أن أفتى وفى المدينة مالك ، فهو فريد عصره فى فضله وآدابه ، وهو يفصل بينهما بفصل خطابه ، وقد بلغ من رتبة الأدب أقصاها ، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها »[٥].

يظهر أن الحكم الذى يفصل بينهما هذه المرة هو ابن نباتة لأنه ختم هذه

---

(١) المصدر السابق ص ١٧ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠٩ .
(٣) سجع المطوق (مخطوط) ورقة ٥١ .
(٤) المصدر السابق ورقة ٦٦/٦٩ .
(٥) المصدر السابق ورقة ٦٩ .

المفاخرة قائلا : إنه فريد عصره فى فضله وآدابه ، وهو الذى يحكم بينهما بالعدل . ومن عادته أن يكثر من مديح نفسه كلما سنحت له سانحة . وهو إن حكم فى المرة الفائتة مولاه المؤيد رب السيف ، فإنه يحكم اليوم نفسه وهو رب القلم والبيان .

٢
آثار المرحلة الثانية

نصنف فى المرحلة المذكورة آثاره النثرية التى دبجتها براعته بعد موت المؤيد . وغنى عن البيان أن إنتاجه قد تضاءل عن ذى قبل . أما أشهر ما وقفنا عليه فهى : مراسلات ابن نباتة فى مخاطبة أقرانه ، وكتاب « سلوك دول الملوك » ، وكتاب « حظيرة الأنس » وكتاب « تعليق الديوان » ، وكتاب « ديوان خطب جمعية » و« خطبة فى تعظيم شهر رجب » ، و« رسالة فى هجاء ابن شنار » .

مراسلات ابن نباتة فى مخاطبات أقرانه

يضم هذا الكتاب[1] الرسائل الأدبية التى تبادلها مع أقرانه ، وهو سجل هام للحركة النقدية التى كان المؤلف محورها ودعامتها .

سلوك دول الملوك

لعل هذا الكتاب[2] من الكتب القديمة التى كتبت عن آداب الملوك ، ولعله من أقدمها بعد الذى كتبه ابن المقفع من قبل . وهو يدور حول آداب

---

(١) توجد منه نسخة خطية فى مكتبة طلعت .

(٢) توجد منه نسخة خطية فى أكاديمية فينا .

الدولة وسياستها ، ويتحدث عن الملوك وواجباتهم نحو أنفسهم وأهليهم ورعاياهم. وكأنما آنس فى نفسه الكفاءة ليكون النصوح الذى يهمه أن يرسم للملوك الأيوبيين سبيلهم فى الحكم وواجباتهم ، وهو بحق يعتبر المؤدب الأكبر للبيت الأيوبى .

حظيرة الأنس إلى حضرة القدس

وصف ابن نباتة فى هذه الرسالة الفريدة[١] رحلته إلى بيت المقدس مع صديقه الوزير الصاحب أمين الدين سنة خمس وثلاثين وسبعمائة . وقد تحدث فيها بالتفصيل عن المدن التى زارها أو حل بها . تعتبر هذه الرسالة من الرسائل الهامة التى تصور شطراً من حياة ابن نباتة بعد موت المؤيد أبى الفداء ؛ وقد أشار فيها إلى موت ابنه عبد الرحيم ، وذكر أن الوزير الأمين صحبه معه ليخفف من لوعته على فقد فلذة كبده .

أورد ابن حجة هذه الرسالة كاملة فى « ثمرات الأوراق » ، وقد حدثنا أن محمد بن البارزى قرأ على المسامع الشريفة رسالة لابن نباتة وأخرى له لاختيار الألفاظ والمعانى من كلا الرسالتين [٢].

التحفة الأنسية فى الرحلة القدسية

لم يكتف بهذه الرسالة لوصف الرحلة ، بل ذكر أنها تاريخ ومجموع ، وأنه سيضع غيرها فى سفر خاص : وتمت هذه السفرة . . . والتقطت من الفوائد الوزيرية ما كنت أرتقب جواهره وأزاهره ، وأردت أن أذكرها فى هذه الخطبة لأنها جواهر ، وأختمها بعض العلم فى هذه الأوراق فإنها أزاهر . فكثرت على هذا اللفظ المسجوع ، واقتضى الحال أن أجمعها فى سفر يقال فيه تلك الرحلة وهذا تاريخ ومجموع »[٣]

---

(١) ثمرات الأوراق ص ١٣٨ – ١٤٣ . (٢) المصدر السابق ص ١٣٣ .
(٣) الوافى بالوفيات ص ٣١٩ .

عثرنا على ذلك السفر الذى يقال فيه تلك رحلة من خلال إشارة استدللنا بها عليه ، وقد جاءت عرضاً فى كلام الصفدىّ إذ ذكر أنه سمع من لفظه : « التحفة الأنسية فى الرحلة القدسية»[١].

نخلص إلى القول إن ابن نباتة جمع الرحلة وأرخها فى « حظيرة القدس » وفصلها فى سفر كبير سماه « التحفة الأنسية » .

تعليق الديوان

ألف ابن نباتة هذا الكتاب بعد أن ولى التوقيع فى الديوان[٢] . فجمع فيه كل ما أنشأه خلال ذلك وقد ذكرنا توقيعين من توقيعاته خلال مراحل حياته ، ونظن أنهما بعض هذا الكتاب . وقد لاحظنا أن القلقشندى أورد نماذج كثيرة منها فى كتاب صبح الأعشى .

ديوان خطب جمعية

لعل هذا الكتاب هو الوحيد الذى ألفه ابن نباتة بعد عودته إلى مصر وقد أنشأ عدداً من الخطب على عدد أسابيع السنة لتلقى كل يوم جمعة فى المساجد . ويظهر أن الناصر حسناً طلب إليه تأليف هذا الكتاب ليوحد الخطب الدينية فى المساجد كلها ضمن إطار واحد . وللدلالة على أنه ألفها فى مصر لابد لى من أن أذكر ما جاء فى آخر خطبة له فى الديوان وهى خطبة النيل ، إذ يقول فيها : « اللهم اجلب الزيادة لنيلك المبارك ، وبلغ به المزارع والمنافع . . . . » ويورّى باسم السلطان الناصر حسن فيقول : « وكن اللهم مؤيداً لهم وحافظهم وناصرهم . . . »[٣].

---

(١) ثمرات الأوراق ص ١٤٢

(٢) توجد منه نسخة مخطوطة فى مكتبة برلين

(٣) ديوان خطب جمعية ، ص ١٠٩ ، ١١٠ . طبع طبعات كثيرة .

عارض الأقدمون هذه الخطب ، فذكر ابن حجر فى درره أن الحسين بن محمد المعروف بابن قاضى عسكر ألف ديوان خطب سماها : « المقال المحبر فى مقام المنبر »[١] يعارض بها خطب ابن نباتة . كما أنه يجدر أن نذكر أن جده عبد الرحيم خطيب الخطباء قد ألف ديوان خطب خاصة . وأما أديبنا جمال الدين فأصبح مثله خطيب الخطباء .

خطبة فى تعظيم شهر رجب

يبدو أن المؤلف لم يكتف بالخطب الأربع التى وضعها لشهر رجب فى ديوان خطب جمعية ، وفق أسابيعه الأربعة ، وإنما أفرد للشهر المذكور خطبة خاصة[٢] به لكونه مباركاً والدعاء مستجاب فيه .

رسالة فى هجاء ابن شنار

ما أكثر رسائله التى لم تصلنا ، وقد أصابها الضياع . نذكر منها هذه الرسالة وقد عثرنا على ذكرها عرضاً فى ترجمة « ابن شنار »[٣] فى الدرر الكامنة ، وكان بينه وبين ابن نباتة خصام شديد ومنافرة مشهورة ، وله فيه هجاء . واتفق أنه قرأ على ابن نباتة قطعة من نظمه ونثره فكتب له قائلا : « الحمد لله حاشا من فخر ، والصلاة والسلام على محمد ما نبح الكلب فى ضوء القمر . . . »[٤] .

استمر على هذا الأسلوب فى هجائه ، وقيل : إن هذه الرسالة من عجائب ما أنشأه ابن نباتة :

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٦٨ (٢) توجد منها نسخة خطية فى كوتا

(٣) بدر الدين ، الحسن بن على بن حمد بن شنار الغزى ، ولد سنة ٧٠٦ هـ ، وهو شاعر معاصر لابن نباتة ومن كتاب الإنشاء المعروفين فى ديوان دمشق . كانت بينه وبين جمال الدين منافرة شديدة ، وله فيه هجاء . ألف رسالة هامة سماها (قريض القرين) ، وقد عارض بها ابن شهيد فى رسالته المشهورة (التوابع والزوابع) . توفى سنة ٧٥٣ هـ . (الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٢) .

(٤) الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٤ .

انتشرت كتب ابن نباتة انتشاراً كبيراً فى الأوساط الأدبية المختلفة، حتى إن النواجى صاحب حلبة الكميت استخدم أسماء بعض كتبه موريا كما فى قوله :

« وأبرزت فى وصف الكميت شعر من تفحّل ، وأمسى وهو إلى الغايات سباق . وابتعت ما غلت قيمته ، ولكن ما خرجت عن سوق الرقيق »[١].

ويقول فى مكان آخر : « وأتحفته بعد قهوة الإنشاء بزهر المنثور ، ورامت بسجع المطوق تشنيف مسامعه »[٢].

لعلنا لاحظنا من خلال أسلوب النواجى التورية بأسماء بعض كتب ابن نباتة هى (سوق الرقيق) و (زهر المنثور) و(سجع المطوق) ، بالإضافة إلى ذكر اسم كتاب (قهوة الإنشاء) الذى ألفه ابن حجة .

---

(١) حلبة الكميت ، ص ٢ ، ٣ .

(٢) حلبة الكميت ، ص ٣٠ .